

الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم

بقلم

الدكتور بدوي طبانة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ

الوزير الأديب العالم

بقلم

الدكتور بدوي طيبانة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه سيرة علم كبير من أعلام التاريخ في القرن الرابع الهجري الذي انقسمت فيه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف الى أجزاء وامارات أو دويلات ، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمل العرب ، وترفع راية الاسلام ، وتتخذ لها قاعدة واحدة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم في دمشق في بلاد الشام ثم في دار السلام في أرض العراق .

ففي الفترة التي لمع فيها نجم صاحب هذه السيرة كان السلطان في شبه جزيرة أيبيريا التي أصبحت تسمى بلاد الأندلس لخلفاء بنى أمية الذين أقاموا لهم هناك دولة عربية ، تنافس دولة بغداد ، وبينما كانت هذه الدولة القوية تبني معالم نهضة عربية مشرقة بخلفائها الذين احتفظوا بلقب « أمير المؤمنين » كانت خلافة بغداد قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف أمام قوة الجند من الأتراك والديلمة الذين سال سيلهم ببغداد ، وأصبحوا أصحاب الحل والعقد ، وبين أيديهم خليفة عباسي لا يملك من سلطان الدولة شيئاً .

وكان الملك ببلاد افريقية للعباسيين الذين قامت دولتهم على انقاض الأغالبة والادارسة ، وكان كل خليفة من أولئك العبيدين يلقب نفسه باللقب الكبير الماثور ، لقب « أمير المؤمنين » .

وكانت مصر والشام في يد الاخشيديين الذين احتفظوا بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين ، فكانوا يخطبون باسمهم على المنابر ، وكذلك كانت الجزيرة الفراتية تحت اماره بنى حمدان يحكمها منهم ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيباني ، وكانت حلب والثغور في يد أخيه سيف الدولة على ابن عبد الله بن حمدان الشيباني ، وكان كل منهما يخطب على المنابر في امارته باسم الخليفة العباسي .

أما القرامطة فامتد نفوذهم وسلطانهم على عمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة ، وكانوا يخطبون باسم المهدي . وكان السامانيون يحكمون خراسان وما وراء النهر ، ومقر ملكهم مدينة بخارى ، وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي .. وظلت جرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وبنو بويه وآل سامان .

وكان الأمر بالعراق للديلم ، والسلطان منهم معز الدولة أحمد ابن بويه ، وكان يخطب على منابرهم باسم الخليفة العباسي ، ثم باسم معز الدولة ، وابنه ، وابن عمه من بعده . وكذلك كان سلطان بنى بويه بالاضافة الى ذلك يمتد على بلاد فارس والأهواز والجبل والري^(١) .. تلك هي القوى الكبرى التي كانت تحكم الرقعة الاسلامية ، بعد أن تفرق الحكم تفرقا غريبا ، وقد كان قبل ذلك متماسك الأعضاء ، يرجع كله الى دولة واحدة ، وحاضرة كبرى تجمع شتاته .

(١) راجع تاريخ الامم الاسلامية ٣/ ٣٨٠ .

وقد ننظر الى نظام الحكم فى ذلك القرن الرابع ، فنأسى لذلك الشمل الشتيت ، وهذه الوحدة الممزقة ، وتلك القوى التى تبددت ، وذلك الصف المتين والركن الركين ، وقد استحال أركانها متنازعة ، وقوى متنافسة ، وقيادات موزعة .

وقد نطل من زاوية أخرى لنرى من بعض الجوانب الخلية الواحدة ، وقد انقسمت خلايا عاملة توالى الكفاح ، وتواصل التقدم ، فنرى عروشا تثبت دعائمها بقوة سلطانها ، وبعظمة الأمراء وسياسة الوزراء ، مواصلة السير فى ركب الحضارة التى رسمت طريقها ، وأقامت معالمها الدولة الموحدة ذات القيادة الموحدة ..

وهناك ظاهرة يقف أمامها الباحث حائرا مفكرا ، فان تلك الجهود التى بذلتها الامارات المتوزعة والقيادات المنقسمة فى تثبيت دعائمها ، وفى ترسيخ أقدامها ، وفى دعم سلطانها — وهى جهود جبارة كانت كفيلة بأن تقف عجلة السير فى طريق التقدم والاصلاح واشاعة الأمجاد — لم تستطع أن تثنى من عزم الرجال ، أو تفل من حدتهم ، أو توقف زحف الأبطال نحو مواطن العزة والقوة ، والوقوف فى وجه الغزاة والطامعين من أعدائهم الذين كانوا ينتهزون الشجرة فى الصف ، والفرقة فى الجماعة ..

فقد انقسمت الدولة الى امارات ودويلات ، والتسمية بالدويلات هنا لا تعنى ضعف السلطان ، ولا الضيق فى دائرة السطوة والنفوذ ، ولا القلة فى أعداد الرعايا والمحكومين ، وانما هى تسمية نسبية بالنظر الى الدولة الواحدة ، أو الدولة الأم ،

التي كانت أصلا لهذه الدويلات ، يضم شملها ، ويوحد كلمتها ،
وييسط شعارها من حدود الصين الى شاطئ المحيط في آسيا
وافريقية وأوربا وفي جزر البحر المتوسط . فقد كان بعض تلك
الدويلات ييسط سلطانه على مساحات شاسعة من البلاد ذات
الحضارة والثروة والتاريخ . بل ان كثيرا من تلك الدويلات كان
يفوق كثيرا من الدول المستقلة في العالم المتحضر وغير المتحضر
اليوم من حيث سعة الرقعة ووفرة الثروة .

وهذه الدويلات كانت تقوم بعبء حراسة الأمن في الداخل
وحماية الحدود والثغور ، وكانت تقوم في الوقت نفسه بعبء البناء
واقامة معالم المجد . والحراسة عبء يستلزم توفير الحشود
وبذل الجهود ، والبناء عبء يستلزم الأمن والاستقرار داخل
الحدود وخارجها .

والقدرة على تحقيق هاتين الغايتين ، والنهوض بهذين العبين ،
يدل أعظم الدلالة على قوة الروح في هذه الأمة ، وصلابة عودها ،
وصفاء معدنها ، وتقاء جواهرها ..

بل ان القرن الرابع — وهو القرن الذي تقع فيه أحداث هذه
السيرة — يعد في طليعة قرون الخصب والسعة في تاريخ هذه
الأمة في ميادين العلم ومجالات التفكير ، وفي دنيا الآداب والفنون
عند الأمة العربية ، فقد نبغ فيه من العلماء الأعلام في مختلف
مجالات النشاط الفكري والفني من لا يحصون كثرة ،
ولا يدركون عمقا ، ومن الأدباء والنقاد من انتهت اليهم معالم
العبقرية ، وخصائص الأدب والفن ، واجتمعت فيهم خلاصة

المعارف والأذواق ، حتى كان للفكر العربى صرح ثابت الدعائم
قوى الأركان ، ينشر نوره شرقا وغربا ، ويشارك في بناء الحضارة
الانسانية مشاركة فعالة مذكورة ، بل لا نجاوز الحق اذا قلنا ان
هذا الفكر الذى ابتكره العرب أو الذى حملوه كان السراج
الوهاج الذى بعث النور في سائر الأرجاء .

وقد شارك في بناء ذلك الصرح عقول وصلتها رابطة العروبة،
ورجال أظلمهم لواء الاسلام ، ووحدتهم أواصر العقيدة ، فكانت
لهم قرابة ورحما جعلتهم يسرون في طريق واحد ، توجههم وحدة
الهدف ، وتدفعهم وحدة التعاليم ، متخذين من كتاب الله اماما ،
ومن الكعبة قبلة ، ومن العربية لسانا .

ومن هنا كان علينا في هذا الدور الخطير من أدوار حياتنا
ونهضتنا أن نحیی هؤلاء الرجال ، وأن نمجد هذه العقول ، وأن
تقدم من سبقت به قدمه ، ومن تقدم به عمله ، وأن نعد في جحفل
العروبة كل من خدم العروبة وأسدى إليها يدا بما مكن لنهضتها،
وأرسى من حضارتها ، وأعز من لغتها ، وأثرى من فنها ، وأذاع
من أفكارها ومبادئها ، ودافع عن حياضها ، وبنى بكل هذا
أو بشيء من هذا لها مجدا ، وجعل به لها في العالمين ذكرا .

والعروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها المتألقة،
وأمجادها السامقة في تاريخها المجيد أن تصهر أفذاذا من أبناء
الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزاء ومنعة
وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من عقولهم
وقلوبهم وغيرتهم ما يعز على الإحصاء ، وما يستعصى على النسيان،

فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة أبنائها ، وصهرت من هذه العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية متألفة وجوهرة فريدة في جبين الزمان ، فألساهم ذلك الاعزاز منابثهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا في بناء نهضة وحضارة تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها في وجه الأحداث والعواصف والمحن .

والصاحب بن عباد الذي نعرض في هذا الكتاب لدراسة بعض جوانبه يمثل احدي تلك الشخصيات البارزة التي أحالت بعض الأطراف الحائلة في تاريخ العرب والمسلمين صحائف من نور أخاذ يكاد يذهب بالابصار . فقد كان الصاحب وزيرا من الوزراء الذين لا يحصى عددهم كثرة ولا سيما في ذلك الزمان ، وكان أولئك الوزراء معدودين دائما رجال الصف الثاني الذي يلي صف الملوك والخلفاء ، ولكنه استطاع أن يثبت بقوته ، وأن ترقى به همته فيكتب في التاريخ سطرا خالدا لامعا ، يرفعه الى الصف الأول بين بناء المجد ، بل أن مجده ليفوق أمجاد سادته الذين ارتقوا به الى ذلك المنصب الرفيع ، وبدل أن يتلاشى نوره في أضوائهم ، أو أن يستمد هذا النور من أنوارهم ، توارت أسماؤهم وراء اسمه ، واحتجبت أنوارهم في سطوع شمسه . وأكد بهذا أن الرجال لا يشرفون بما يقلدون من وظائف وما يتسمنون من مناصب ، وإنما تشرف المناصب بالرجال ، وينصف التاريخ الرجال بالهمم والأعمال . وقد كان في شرف

الصاحب شرف المعلم والمعرفة ، وكان في كرامته كرامة للفن
والأدب والعلم ، أو للأدباء والعلماء في شخصه .

وكان علم الصاحب وأدبه هماً سرّ خلوده وبقاء اسمه على
صفحات التاريخ وفيما خلف من آثار بقيت على الزمان ، في حين
أن الفرقة والتناحر بين تلك الدويلات وحكامها أودى بها ،
ومحاهها وعفى على سلطانها في الأذهان ، ولم يعد لها ذكر الا في
زوايا كتب حاولت أن تسد الثغرات في حساب الزمان ، فلا يوقف
عليها الا بعد عنت ومشقة ، وكان هذا النسيان ثمرة وجزاء لما
اقترفوه من تشيت الشمل ، وتمزيق الصف ، فكان ما أشرنا
اليه من معالم القوة أشبه بوميض البرق الذي يأتلق ، وسرعان
ما ينطفئ في فترات لا تذكر في مراحل التاريخ التي لا تحصى
بالسنين ، ولكن بعد أن هدت كيان الأمة واستنفدت جهودها
ومقدراتها ، وأفنت فتوة أبنائها بما شغلتهم به في سبيل الحفاظ
على سلطان زائل ، ارضاء لشهوة السلطان ، واستجابة لنزوة
الاستعلاء ، واشباعا للمطامع . وقد أدّى هذا التفكك فيما بعد
الى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج ، فتكاثفت عوامل الضعف
والانحلال حتى طمع في سيادة الأوطان أعداء هذه الأمة الذين
انتهزوا فرصة الضعف والهوان ، فاستعمروا البلاد ، وأذلوا
أهلها ، واستنزفوا خيراتها ، وفي ذلك عبرة لمن تحركه الأطماع ،
وتستبد به الشهوات على حساب الشعب العريق ، وذكرى لمن
ألقي السمع وهو شهيد .

ولم يكن هدفنا في دراسة الصاحب أبي القاسم اسماعيل بن

عباد تتبع حياته ، أو استقصاء أخباره ، أو العكوف على حوادث التاريخ بالتدريج والاحصاء ، وإن كنا قد بذلنا في سبيل ذلك الكثير من الجهد ، بقدر ما كان هدفنا إبراز أهم الجوانب الانسانية ، وأبرز السجایا النفسية للصاحب ابن عباد ، وللرجال أو الأحداث التي صاحبها وعاش فيها ، وكان لها تأثيرها في بناء شخصيته ، ثم البحث عن العوامل التي أشرقت بها شمسها ، واستطاع بها أن يكون علما من أفذاذ رجال السياسة والعلم والأدب ، له طابعه الخاص ، وسماته المتفردة التي احتل بها تلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم درسناه عالما مفكرا ، وأديبا كاتباً وناقداً وشاعرا ، وإنسانا وضعته الأقدار في موضع القيادة ، يعيش مع الناس ويخالطهم ، ويسوسهم ويصرف أمورهم .

ولذلك كان أكبر اهتمامنا بما يجلى هذه السمات ، ويبرز تلك الجوانب . ولم تمنعنا الرغبة في انصافه من الخضوع لمنطق الحق وميزان العدل .
والله الموفق للصواب .

بدوى احمد طبانة

مصر الجديدة ٩ شعبان ١٣٨٣ هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٦٣

الفصل الأول

بنو بويهي

بنو بويه

ابتدأ الدور الثانى للخلافة العباسية ، وهو الدور الذى انتزع فيه السلطان الحقيقى من أيدي الخلفاء العباسيين الذين كانوا يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف ؛ ولم يبق للخليفة العباسى فى بغداد من الخلافة الا اسمها ، أى أنه أصبح رمزا للسلطة الدينية فحسب يدعى باسمه على المنابر ، وليس له شئ من الأمر أو النهى ، بل لم يبق له وزير يدبر شئون الدولة باسمه ، وانما كل ما كان له كاتب يدبر شئونه المالية ويحصى نفقاته ودخل اقطاعاته لاغير . أما ماعدا ذلك من شئون الحرب والسياسة وتدير أمر الرعية فلم يكن لخليفة بنى العباس منها قليل أو كثير ..

ابتدأ هذا الدور فى أيام المستكفى بالله الذى تولى الخلافة ، أو أسند اليه منصب الخلافة ، أسنده اليه القائد « توزون » الديلمى بعد أن غدر بالخليفة المتقى لله (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ — ٢٠ صفر سنة ٣٣٣) . وفى المدة التى ظهر فيها بنو بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) أسندت تلك الخلافة الاسمية الى خمسة من خلفاء بنى العباس ، هم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم .

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر « بحر قزوين » ..
وقد ظل الديلمة على وثنيتهم حتى بعد أن فتح المسلمون بلادهم ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ؛ على الرغم من أن بلاد طبرستان التي كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالاسلام ، وكان بينهم وبين الطبريين سلم وموادة .. وظل الديلمة على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الأطروش الذي كان لقبه « الناصر لله » وأقام بينهم مدة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، ويقتصر منهم على العشر ، ويدفع عنهم عدوهم ، حتى تبعه منهم خلق كثير ، دخلوا في الاسلام ، وبني في بلادهم المساجد لاقامة الصلاة ..

* * *

وقد ساد من بني بويه ثلاثة أشقاء استطاعوا ببسالتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش ، وأن يجمعوا حولهم القلوب ، وأن ينشروا سلطانهم على رقعة كبيرة من الدولة الاسلامية ، حتى كانت لهم دولة مزدهرة في تاريخ الاسلام حكمت مدة طويلة (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) = (٩٣٢ - ١٠٥٥ م) ..
وكان أبوهم بويه بن فناخسرو المكنى بأبي شجاع يدعى أنه من نسل ملوك ساسان القدماء ليكسب لأسرته نفوذاً في هذه البلاد . وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو اسحاق ابراهيم ابن هلال الصابي (ت ٣٨٤ هـ) فقد ذكر في كتابه « التاجي »

أن بني بويه يرجعون في نسبهم الى بهرام جور بن يزدجرد الملك
الساساني ، وأن بويه هو ابن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن
شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سستان
شاه بن سسن بن شيروزيل بن سسناد بن بهرام جورا الملك بن
يزدجرد بن هرمز ...

وتدل الروايات على أن الصابي حين كان يكتب كتابه
« التاجي » لم يكن متمتعا بتمام حريته ، وأنه حمل عليه حملا ،
فقد ذكر ابن خلكان أن الصابي كان كاتب الانشاء ببغداد عن
الخليفة ، وعن عز الدولة بختیار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ..
وكانت تصدر عنه مكاتبات الى عضد الدولة بما يؤمله ، فحقد
عليه ، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله في
سنة ٣٦٧ هـ ، وعزم على القائه تحت أيدي القبيلة ، فشفعوا فيه ،
ثم أطلقه سنة ٣٧١ هـ ، وكان قد أمره أن يضع له كتابا في أخبار
الدولة الديلمية ، فعمل « الكتاب التاجي » فقبل لعضد الدولة
ان صديقا للصابي دخل عليه فراه في شغل شاغل من التعليق
والتسويد والتبييض ، فسأله عما يعمل ، فقال : « أباطيل أنمقها ،
وأكاذيب ألفقها » .. فحركت ساكنه ، وهيجت حقدته ، ولم يزل
مبعدا في أيامه (١) ..

فهل نستطيع أن نطمئن الى صحة هذا النسب كما رواه
الصابي ؟!

ليس من المعقول أن يصدق قول الصابي « أباطيل أنمقها ،

(١) وفيات الأعيان ١/١٠٩

وأكاذيب الفقهاء « على كل ما كتب الصابى ، بل المعقول أن فى « التاجى » ، بل أن أكثر ما فيه صحيح ، فقد كتب على أرض الأحداث ، وفى مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها.. ولكن الأنساب الضاربة الى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد ، ومجال كبير للحدس والتأليف ، لا سيما أن تلك الأمم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب ، ولم يكن يعرف شىء من ذلك أى من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أبناؤه ملوكا وحكاما ..

على أن هذا النسب الذى ذكره أو اخترعه أو أمر بذكره واختراعه لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان ، وطعن بعضهم فى أخباره ، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقات منهم أبو القاسم على بن محمد الكرخى — وكان شديد الاختصاص بالصاحب — أن الصاحب كثيرا ما كان يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع » يعنى الصاحب به نفسه ..

ويقول ياقوت بعد ذلك : فأما الترجيح بين هذين الصديقين ، أعنى الصاحب والصابى فى الكتابة ، فقد خاض فيه الخائضون ، وأطنب المحصلون ^(١) ، ومن أشفى ما سمعته فى ذلك ^(٢) أن

(١) حصل الكلام : رده الى مفاده ومعناه ، وبروى باليتيمة : وأخب فيه المخبون ، أى أفاضوا واختلفوا فى المقارنة بينهما ... والخيب : السير السريع .

(٢) أى مما يشفى الغلة فى هذا الباب .

الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو اسحاق يكتب كما يؤمر ،
وبين الحالين بون بعيد (١) .. ١

ثم اتنا لم نر اجماعا على صحة هذا النسب الى ملوك آل
ساسان القدماء ، فقد اختلف المترجمون في بهرام الذي رفع اليه
نسب بويه ، فقد قال القائلون بنسبه الى الفرس هو بهرام جور
ابن يزدجرد بن سابور (٢) ، وقال آخرون بنسبته الى العرب
وقالوا عن بهرام انه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية
ابن الديلم بن باسل بن ضبة بن أد (٣) ..

ويرى البيروني أن هذا النسب مختلق لأن الأنساب قل أن
تحفظ بالتوالي اذا طال الزمان وامتدت الأيام ، ويقول ان السبيل
الى معرفة صحة الانتماء الى أصل ما من باطله اتفاق الكافة
 واجماع الجيل على ذلك ، كسيد ولد آدم محمد عليه الصلاة
والسلام ..

وقال ابن خلدون ان هذا النسب مصنوع تقرب الى بني
بويه به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود ، واستبعد أن
يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رئاسة على الديلم ، ولو
كان نسبهم الى الفرس ظاهراً امتنعت بذلك رياستهم على الديلم ،
كما استبعد أن يختفى نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين يزدجرد

(١) معجم الأدباء ٥٢/١٥ .

(٢) ابن الأثير ٩١/٨ .

(٣) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان محمد بن

احمد البيروني ٣٨ .

وانقطاع الملك الا ثلثمائة سنة ؛ فيها سبعة أجيال أو ثمانية (١) .
وبقى بعد ذلك أن بنى بويه كانوا من الديلم ، والباحثون
عن تاريخهم القديم يختلفون في أصل هذا الشعب كله ، فيذهب
بعضهم الى أنهم من ولدضة الذين كانت مساكنهم بالناحية
الشمالية من بلاد نجد بجوار بنى تميم ، وأنهم قد هاجروا الى
هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل
الأخرى ، وأنهم افرقوا فرقتين لأنهم كانوا ينتسبون الى
أخوين « ديلم » و « جيل » فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين
منسوبة اليه (٢) ومعنى ذلك أنهم يرجعون الى أصل عربى ،
وقد تشكك في هذا القول أكثر المؤرخين .

وذهب آخرون الى أن الديلم من أصل فارسى كما مر ، فى
حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنسا مستقلا وأن المناطق
التي كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هى موطنهم الأصلية ، وأن
لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبائعهم المتميزة التي جعلت لهم شخصية
مستقلة وهم شعب بدوى يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة
وقلة المبالاة كما يقول الاصطخرى (٣) ولما أراد الحجاج أن يفتح
بلادهم ، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها ، أمر برسم مصورا لها ،
فلما عرف الديلميون ذلك قالوا : صدقوك عن بلادنا ، هذه
صورتها ، غير أنهم لم يصوروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/٢٦٦ .

(٢) المنتزع من كتاب « التاجى » - الورقة !

(٣) الاصطخرى : مسالك الممالك ٢٠٣ .

العقاب والجبال ، وستعلم ذلك لو تكلفته (١) .. ولما علم الخليفة العباسي المعتضد خبر دخول أحد الديالمة قزوين وصفهم بأنهم شر أمة في الدنيا ، وأتهمهم مكرأ ، وأشدّهم بأسا ، وأقواهم قلوبا .. والله لو ملكوا قزوين لنبعوا على من تحت سريري هذا ، واحتوا على دار المملكة (٢) ..

* * *

وقد ألحق بويه أولاده في خدمة قواد الدولة ، وكانوا يعيشون مع أيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب ، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب « شذور العقود » أن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو واخواه البلاد (٣) .. وفي حديث صاحب « تجارب الأمم » عن ركن الدولة الحسن بن بويه أنه كان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردّهم عنه ، وكان مضطرا إلى فعل ذلك ، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك ، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمثل جميع أمره ، وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه ، ومسامحة في أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور (٤) والذي يستفاد من كل هذا أن بني بويه قد صنعوا أمجادهم بأنفسهم ، وبذوا

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ٢٨٣ .

(٢) التنوخي : نشوار المخاضرة وأخبار المذاكرة ١٥٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٧٥/٢ .

(٤) تجارب الأمم ٢٧٩/٦ .

ملكهم بسواغدهم وحرابهم وسيوفهم وسخائهم وواسع حيلتهم .
وأولاد بويه الذين سميت دولتهم (دولة بنى بويه) أو
(الدولة البويهية) ثلاثة هم :

١ — عماد الدولة ، على بن بويه ، الذى كان يحكم فارس
والأهواز ، وكان أكبر بنى بويه ، ولذلك كان يلقب
« أمير الأمراء » .

٢ — ركن الدولة ، الحسن بن بويه ، الذى كان يحكم
الجبل والرى وجرجان وطبرستان .

٣ — معز الدولة ، أحمد بن بويه ، الذى حكم العراق .
وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة — عماد الدولة ، وركن
الدولة ، ومعز الدولة — على الاخوة الثلاثة فى يوم واحد ، وكان
الذى أطلقها عليهم هو الخليفة العباسى « المستكفى بالله » .

* * *

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم
جنوداً فى جيش (ماكان بن كالى) ولكنهم ارتقوا بسرعة الى
مرتبة الأمراء ، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا الى
قائد ديلمى آخر هو (مرداويج بن زيار) الذى خرج على
(أسفار بن شيرويه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان
وقزوين وزنجان وقم والكرج ، فزاد نفوذه حوالى عام ٣٢٠ هـ ،
وتجنب الى الرعية ، وعمل له سريراً من ذهب يجلس
عليه ، وسيراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده ، وامتدت
سلطته الى حدود العراق ، وأسس الدولة الزيارية وعزم على أن

يستولى على بغداد ، وينقل الدولة الى الفرس ويبطل
دولة العرب (١) .

ولما استقرت قدم (مرداويج) على هذا النحو ، قدم عليه
أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قوادا في جيش (ماكان بن كالى)
وفارقوه لما ضاقت بهم الحال ، وكان معهم جماعة من قواد ماكان .
وقد رحب مرداويج بأبناء بويه فخلع على عليّ والحسن ،
وولى القواد الذين جاءوا معهم النواحي ، وولى علي بن بويه
بلاد الكرج ، وكتب لهم بذلك العهد ، فساروا الى الرى .
وبها « وشمكير » أخو مرداويج ، ومعه وزير مرداويج « الحسين
ابن محمد » الملقب بالعميد . وصادف أن كان لابن بويه بغلة
شهباء من أحسن ما يكون ، فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار ،
فعرضت على العميد فأخذها وتقد ثمنها ، فلما حمل الى عليّ أخذ
منه عشرة دنانير ، ورد الباقي ومعه هدية جميلة ، فكان ذلك بدء
الصلة بين العميد وآل بويه ..

ولكن مرداويج أحس بالخطأ فيما فعل ، وندم على ما كان
من اطمئنانه الى هؤلاء ، فكتب الى أخيه « وشمكير » والى
العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم ، وان
كان بعضهم قد خرج يرد .

ولكن الكتب كانت تصل الى العميد فيقرؤها قبل وشمكير ،
ثم يعرضها عليه . فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى

على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ، ويطوى المنازل ،
فسار ابن بويه من ساعته ..

ولما أصبح العميد عرض كتاب مرداويج على وشمكير ، فمنع
سائر القواد من الخروج من الرى ، واستعداد التوقيعات التى
كانت معهم . وأراد أن ينفذ خلف على بن بويه من يرده ، فقال
العميد : « انه لا يرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ، ويخرج
من طاعتنا » ! فتركه . ووصل على بن بويه الى الكرج ، وأحسن
الى الناس ، ولطف بعمال البلاد ، فكتبوا الى مرداويج يشكروه ،
ويصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته ، وصرف كثيرا فى استمالة
الرجال بالصلات والهبات ، فشاع ذكره ، وقصده الناس وأحبوه .
ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على
الكرج ، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم ، فوصلهم وأحسن
اليهم حتى مالوا اليه ، وأحبوا طاعته ، وبلغ ذلك مرداويج
فاستوحش وندم على انفاذ أولئك القواد ، فكتب اليهم والى على
ابن بويه يستدعيهم اليه ، وتلطف بهم فى هذا الاستدعاء
ما استطاع ..

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه ، واشتغل بأخذ العهد على
قواده ، وخوفهم سطوة مرداويج ، فأجابوه جميعا ، فجبى مال
الكرج ، واستأمن اليه « شيرازاد » وهو من أعيان قواد الديلم ،
فقتوت نفسه ، وسار بمن معه الى أصفهان فاستولى عليها من يد
المظفر بن ياقوت ..

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه ، وبلغ مرداويج فأقلقته ،

وخاف على ما بيده من البلاد ، واغتم لذلك غما شديدا . ولكن مرداويج أراد أن يحتال فكتب الى ابن بويه يعاتبه ، ويستميله ، ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمدّه بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ، ولا يكلفه سوى الخطبة باسمه في مساجد البلاد التي يستولى عليها . وفي الوقت نفسه جهز مرداويج أخاه وشمكير في جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة ، فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين . وتوجّه الى أرجان وبها أبو بكر ابن ياقوت ، فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال ، وقصد رامهرمز ، فاستولى على أرجان سنة ٣٢٠ هـ واستخرج منها أموالا قوى نفسه بها ..

وقد جاءته وهو برامهرمز كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يشير عليه بالمسير الى شيراز ، ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مئوته ومثونة أصحابه ، وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم ، فتردد على أولاً ، ثم عزم على المسير ، فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ هـ فلقى بها مقدمة ياقوت فهزمها ، ثم سار منها الى اصطخر ، خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج ، لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه ، فقابله ياقوت بجيوشه ، فكان النصر لعلي ، وانهزم ياقوت ومن معه .

وكان أحمد بن بويه مدّن ظهر أثره في ذلك اليوم ، وهو صبي لم تنبت لحيته ، وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل على الأسرى أحسن معاملة ، وخيّرهم بين المقام عنده واللحاق

بياقوت فاختروا المقام عنده ، فخلع عليهم وأحسن اليهم . ثم سار حتى أتى شيراز قسبة فارس فاستولى عليها ، ونادى فى الناس بالأمان ، واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعهم فسهلت عليه استرضاء الجنود والتودد اليهم فأحبوه ، وثبت ملكه .. وعند ذلك أحسّ على بن بويه بحاجته الى قوة روحية تسنده ، وثبت سلطانه ، فأرسل الى خليفة بغداد (الراضى بالله) والى وزيره (ابن مقله) يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد ، وبذل ألف ألف درهم ، فأجيب الى ذلك ، وأنفذت اليه الخلع واللواء .

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد ، وسار الى أصبهان للتدبير عليه ، وبها أخوه وشمكير ، فرأى أن ينفذ عسكرا الى الأهواز للاستيلاء عليها ، ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصدته ، فلا يبقى له طريق الى الخليفة ، ويقصده هو من ناحية أصبهان ، ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم . وسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيدج فى رمضان ، ثم استولت على رامهرمز فى شوال سنة ٣٢٢ هـ ، ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه ياقوتا .

ولما بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز كاتب نائبه يستميله اليه ، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ، ففعل ، واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويج ، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة ، وأنفذ اليه أخاه الأوسط الحسن ابن بويه ، ليكون رهينة بين يديه ..

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويج الأتراك تمردوا عليه ، لأنه كان كثير الاساءة اليهم ، يفضل عليهم الديالة الذين هم من عنصره ، فاتفقوا على اغتياله فقتلوه سنة ٣٢٣ هـ . وكان رؤساء المتألبين على مرداويج من الأتراك « بجكم » و « توزون » وهما اللذان توليا امرة الأمراء بالعراق ، و « ياروق » و « ابن بغرا » و « محمد بن ينال » الترجمان . ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش ، فأما الأتراك فافترقوا فرقتين : فرقة منهم لحقت بابن بويه ، وفرقة سارت نحو الجبل مع « بجكم » . وأما الديلم فقد ذهبوا الى وشمكير أخى مرداويج وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده ، وسار الى أخيه بفارس .

وعلى هذا صارت القوى الكبرى التى تتنازع بلاد العجم ثلاثا : قوة على بن بويه بفارس ، وقوة وشمكير بالرى : وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر .

أما ياقوت الذى كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادرا على الاحتفاظ بما معه فضلا عن مصادمة غيره ..

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعا هى قوة ابن بويه الذى سير أخاه الأوسط « الحسن بن بويه » الى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان ، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير ، وبقي هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد ، وهى : أصبهان ، وهمدان ، وقم ، وقاشان ، وكرج ، والرى ، وكنكور ، وقزوین ، وغيرها ، حتى تم للحسن بن بويه

الاستيلاء عليها يعد خطوب وحروب طويلة ، حتى استطاع أن يجلى عنها نواب وشمكير .

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الأهواز والعراق ، لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد ، وكان هو مشغولا بإدارة اقليم فارس ، وكان أخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبل ، أما أخوهما الأصغر « أحمد » فلم يكن له شغل ، فسيّره على الى الأهواز ، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين « بجكم الرائق » وانهزم بجكم الى واسط .

فتح العراق :

كان من أهم ما يتطلع اليه ابن بويه المسير الى العراق بعد الاستيلاء على واسط ، فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم يعود عنها ، حتى كاتبه قواد ببغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على ببغداد ، وقد استجاب لهذا الطلب فسار الى ببغداد حتى وصل اليها يوم ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ ، وكان الخليفة بها هو « المستكفي بالله » الذي قابله واحتفى به ، وبايعه أحمد . وحلف كل منهما لصاحبه ، هذا بالخلافة ، وذلك بالسلطنة.

وفي ذلك اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب :

فلقب عليا صاحب فارس « عماد الدولة » وهو أكبرهم .

ولقب الحسن صاحب الري والجبل « ركن الدولة » .

ولقب أحمد صاحب العراق « معز الدولة » وهو أصغرهم^(١).

(١) تاريخ الأمم الإسلامية (عصر الدولة العباسية) ٣/ ٣٧٨ .

ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم بنى بويه فى الاشراق واللمعان ،
وان أخذت الدولة فى التدهور والانحلال ، واختلت أحوال
الرعايا أمام أحداث كثيرة لا مجال لتفصيلها فى هذه العجالة .

ولقد خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن
بنى العباس ، ويوليها خليفة علويا ، لأن البويهيين كانوا شيعة
زيدية ، وقد وصلت اليهم التعاليم الاسلامية على يد الحسن بن
زيد ، ثم على يد الحسن الأطروش ، وكلاهما زيدى . فكانوا
يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، وهم
أبناء على . ولقد حاول معز الدولة ذلك لولا أن بعض خواصه
أشار عليه ألا يفعل ، وقالوا له : « انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت
وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه
مستحلين دمه ، ومتى أجلسست بعض العلويين خليفة كان معك من
تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا » !
فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس ،
واشرد هو بالسلطان ، ولم يبق بيد الخليفة شئ البتة الا ما أقطعه
معز الدولة مما يقوم بحاجة (١) ..

وعلى الرغم من أن بنى بويه قد سلبوا السلطة كلها من يد
خليفة بنى العباس ، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا الهوان ،
لم يسلموا من سوء معاملة البويهيين وظلمهم ، ففى سنة ٣٣٤
ذهب معز الدولة الى دار الخلافة ، وذهب اليها سائر الناس على

(١) انظر الكامل لابن الاثير ٣١٥/٦ .

عادتهم ، فلما جلس المستكفي على سريرہ ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ، ثم قبل يد المستكفي ، ووقف بين يديه يحدثه ، ثم جلس على كرسى ، فتقدم اثنان من الديلم ، ومدّا أيديهما الى المستكفي ، وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها اليهما ، فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ، ووضعاه عمامته في عنقه وجراهما . فنهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، وارتفعت الزعقات ، وافتتنت دار السلطان ، وضربت الأبواق . وساق الديلميان المستكفي بالله ماشيا الى دار معز الدولة حيث خلغ ، وسلمت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة^(١) ..

وطوال القرن الذي وصل فيه نفوذ البويهيين الى أقصاه (٩٤٥ — ١٠٥٥ م) واصل البويهيون سياستهم من عزل الخلفاء وتوليبتهم وفق هواهم .. وكان لهم في بغداد قصور عدة فخمة كان يجمعها اسم دار المملكة .. ولم تعد بغداد السيدة التي تحرك العالم الاسلامي بل زاحمتها ، وطغت عليها في ذلك شيراز ، وغزنة ، والقاهرة ، وقرطبة .. التي كانت كلها تتقاسم السيادة الدولية في العالم الاسلامي^(٢) .

وكانت مدة ملك معز الدولة في العراق احدى وعشرين سنة

(١) تجارب الأمم ٨٦/٦ .

(٢) فيليب حتى (تاريخ العرب) ٦١٠/٢ .

وأحد عشر شهرا ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ ببغداد ودفن في داره ، ثم نقل الى مشهد له بنى له في مقابر قریش (١) ..
 وولى المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته « شاه زمان » على صداق مبلغة مائة ألف دينار .. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بويه منافسات في الملك أدت الى التنازع وأفضت الى المحاربة ، فالتقى يوم الأربعاء ١٨ شوال سنة ٣٦٧ هـ ، فقتل عز الدولة وكان عمره ستا وثلاثين سنة (٢) .

وقد وصلت قوة البويهيين الى أقصاها في عهد عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) = (٩٧٩ — ٩٨٣ م) . ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهيين فحسب بل كان أيضا أعظم حاكم في زمانه . لقد طوى تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التي ظهرت في عهد الحكام البويهيين في فارس والعراق ، فألف من المجموع امبراطورية كادت تصل في الاتساع الى امبراطورية هارون الرشيد ، وقد تزوج من ابنة الخليفة (الطائع) ، وحمل الخليفة على الزواج من ابنته . وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق في الخلافة نفسها .

(١) هي مقبرة مشهورة ببغداد ومحلة فيها خلق كثير ، وبها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأول من دفن بها جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠ هـ . والمنصور هو أول من جعلها مقبرة لما ابنتى مدينة بغداد سنة ١٤٩ هـ .
 (٢) وفيات الأعيان ١١/٢ .

وكان عضد الدولة أول حاكم في الاسلام حمل لقب
(شاهنشاه) (١) . ولم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة
جرأة واقداما ، وكان عاقلا فاضلا ، حسن السياسة ، شديد
الهيبة بعيد الهمة ، ثاقب الرأي محبا للفضائل ، واهبا باذلا في
مواضع العطاء ، مانعا في مواضع الحزم ، ناظرا في عواقب
الأمر ، وهو الذي بنى على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللعب واللهو ، وكان
شاعرا أدبيا ، ومن شعره :

ليس شرب الكأس الا في المطر
وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى
ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها
ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها
ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير (٢) . وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التي
كانت قد طست وأقام في كثير من المدائن المساجد والمستشفيات

(١) شاهنشاه كلمة فارسية معناها « ملك الملوك » وقد
صيفت على غرار اللقب القديم للملكية ، وأنظر تاريخ العرب
٦١١/٢ .

(٢) تاريخ الامم الاسلامية ٣/٣٩٦ ،

والمباني العامة ، وخصص جزءا من أموال الدولة لأعمال الخير والاحسان ، ومن المباني الهامة التي شيدها «مشهد الامام على» . ولكن أشهر مبانيه على الاطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسمى « البيمارستان العضدي » وكلف الخزانة مائة ألف دينار . وكان يعالج المرضى في المستشفى أربعة وعشرون طبيا كانوا أيضا بمثابة هيئة تدريس في كليته الطبية .

وكثيرا ما تغنى الشعراء من أمثال المتنبي بمدح عضد الدولة ، كما أهدى اليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوى المشهور أبى على الفارسي الذي ألف كتاب « الايضاح » ورفعته اليه (١) .

وولى الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة الذي اجتمع القواد بعد وفاة أبيه على بيعته . وكان اخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات : فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شير زيل بن عضد الدولة « بفارس » ، وعمه « مؤيد الدولة أبو منصور بويه » بجرجان ..

وقد مكث صمصام الدولة قائما بأمر العراق في جو مضطرب من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه ، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل ، فانتهاز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس ، وتجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق ، فسار بجيشه سنة ٣٧٥ هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه « أبى الحسن الملقب بتاج الدولة » ثم سار الى البصرة فملكها ، واصطلاح

(١) تاريخ العرب ٦١١/٢ .

الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، فخطب لشرف الدولة بالعراق ، وسيرت اليه الخلع من الطائع لله ، فلما وردت عليه الرسل بذلك ليحلفوه رجع عن الصلح ، وسار الى واسط فملكها ، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند ، فقر رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته ، فسار اليه ، وقبض عليه شرف الدولة ، وسار الى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٧٦ هـ . وانهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً .

وفي عهد صمصام الدولة توفي عمه « مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة » صاحب جرجان ، وتولى أخوه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد ، والوزير الكبير « صاحب ابن عباد » ..

ونقف عند هذا الحد من أخبار بنى بويه ، لنصل الى صاحبنا « صاحب بن عباد » فان أحاديثهم تطول ، ولكن الحديث الذي لا مناص منه ، لشدة صلته بموضوعنا ، هو عناية بنى بويه بالعلم والأدب ، وحبهم للعلماء والأدباء ، على الرغم من تلك الأحداث الخطيرة والاضطرابات التي من شأنها ألا تدع لأصحابها فرصة للتفكير أو الافتتان إلا فيما يثبت ملكهم ويحفظ حياتهم ، ويسيئهم تربص أعدائهم وثورات جنودهم .

أدب بني بويه

كان بنو بويه يحبون العلم والأدب ، ولا يستوزرون
أو يستكتبون الا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان أشهر أدباء
ذلك العصر من وزراءهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم ، كابن
العميد ، والصاحب بن عباد ، وسابور بن أردشير .. فضلا عن
الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة ..

على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في
الأدب والشعر (١) .

وأشهر بني بويه في ذلك عضد الدولة (ت ٣٧٣ هـ) وكان
كما يقول الثعالبي (٢) على ما مكن له في الأرض ، وجعل اليه
من أزمة البسط والقبض ، وخص به من رفعة الشأن ، وأوتى من
سعة السلطان يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة
الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شعرا كثيرا .. ووصف
الصاحب بن عباد بعض شعره في قوله : .. « وأما قصيدة مولانا
فقد جاءت ومعها عزة الملك ، وعليها رواء الصدق ، وفيها سيما
العلم ، وعندها لسان المجد ، ولها صيال الحق » .. وفي قوله :
« لا غرو اذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين

(١) جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) ٢/ ٢٢٤ .

(٢) يتيعة الدهر للثعالبي ٢/ ٢١٦ .

وقعت على مثله ، ولا أذن سمعت بشبهه » .. وقوله « لو استحق
شعر أن يعبد لعذوبة مناهله ، وجلالة قائله ، لكانت قصيدته هي .
الا أنى اتخذتها عند امتناع ذلك قبلة أوجه إليها صلوات التعظيم ،
وَأَقِفْ عليها طواف الاجلال والتكريم » .. وفي قوله : شعر
قد حبس خدمته على فكره ، ووقف كيف شاء على أمره ، فهو
يكتب في غرة الدهر ، ويشدخ جبهتي الشمس والبدر » . وقال
أبو بكر الخوارزمي : كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء
الظرفاء ، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ، ولا يحضر شيء من
الطعام والشراب وآلاتهما الا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شعرا
حسنا . فبينما هو ذات يوم معه على المائدة ينشد كعادته بهطة
« أرز يطبخ باللبن والسمن » فنظر عضد الدولة كالآمر اياه بأن
يصفها ، فأرتج عليه ، وغلبه سكوت معه خجل ، فارتجل عضد
الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها يا منعى الأوصاف بالزور
كانها في الجوام مجلوّة لآلىء في ماء كافور
ومن شعره في وصف الخيري (١) :

طيب رائحة من نفحة الخيري اذا تمزق جلباب الدياجير
كأنما رشّ بالماورد أو عبقت فيه دواخن ند عند تبخير
كان أوراقه في القد أجنحة صفر وحمر وبيض من دفائير
وألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ،
وقصده فحول الشعراء في عصره كالمتنبى والسلامى وغيرهما ،

(١) نبات ذو زهر عبق الرائحة .

ومن شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية
الوزير ، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي
مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات
ومن نكاته الأدبية أن « أفتكين التركي » صاحب دمشق
كتب إليه : ان الشام قد صفا وصار في يدي .. وان قويتني
بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم « افكتب عضد الدولة
جوابه كلمات متشابهة في الخط لا تقرأ الا بعد الشكل والنقط
والضبط وهي « غرك عزك ، فصار قصار ذلك ذلك ، فاحش
فاحش فعلك ، فعلك بهذا تهذا !

ومن آدب بني بويه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار
ابن معز الدولة ، ومن شعره :

تحبى الندامى بريحانها	فيا حبذا روضتا نرجس
عقارا بكأس كأجفانها	شربنا عليها كأحدافنا
نجرر ريطا ^(١) كقضبانها	ومسنا من السكر ما بيننا

ومن خمرياته قوله :

اشرب على قطر السماء القاطر
في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها
درًا ثيرا بين نظم جواهر

(١) الريط جمع ريطرة وهي الملاعة اذا كانت قطعة واحدة
ولم تكن لفقين .

من كفّ أغيد يستبيك اذا مشى
بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين العصون مصفق
مثل القيان رقصن حول الزامر
ومن شعره الغزلى :

وفأؤك لازم مكنون سرى
وحبك غايتى والشوق زادى
وخالك فى عذارك فى الليالى
سواد فى سواد فى سواد

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة ، ويقال انه كان آدب
آل بويه وأشعرهم وأكرمهم ، وكان يلى الأهواز ، فأدركته
حرفة الأدب ، فأدت الى نكبته وحبسه من جهة أخيه أبى
الفوارس . وكل شعره رائق عذب جميل ، ومنه قوله :

سلام على طيف ألمّ فسلمّا
وأبدى شعاع الشمس لما تكلمّا
بدا فبدا من وجهه البدر طالعا
لدى الروض يستعلى قضيبا منعما
وقد أرسلت أيدي العذارى بخده
عذارا من الكافور والمسك أسحما (١)

(١) العذارى جمع عذراء وهى البكر ، والعذار جانب اللحية ،
والسحمة السواد والأسحم الأسود .

وأحسب هاروتا أطاف بطرفه
 فعلمه من سحره فتعلما
 ألم بنا في دامس الليل فأنجلي
 فلما اتثنى عنا وودّع أظلما
 وأنشد له بديع الزمان الهمداني هذين البيتين :
 هب الدهر أرضائي وأعتب صرفه
 وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
 فمن لى بأيام الشباب التى مضت
 ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى
 ومن شعره الفاخر الحماسى :

ألا شفيت علتي	من العداة بالتي
وصارم مهند	ماض رقيق الشفرة
وليلة أحيتها	منوطة بليلة
كأنما نجم الثريد	افى الدجى ومقلتي
جوهرتا عقد على	نحر فتاة طفلة
أفكر فى بنى أبى	وفعل بعض اخوتى
تظن أنى أحمل الضية	م فأين همتى
تقنع بالأهواز لى	وواسط والبصرة
لست بتاج الدولة	سليل تاج الملة

ان لم تزر بغداد بى عما قليل كبتى^(١)
وعسكر عرمرم يملك كل بلدة
حشو الجبال والافلا مواكب من غلمتى
نصرتهم منى ومن رب السماء نصرتى
ومن قوله فى النكبة :

حتى متى نكبات الدهر تقصدنى
لا أستريح من الأحزان والفكر
إذا أقول مضى ما كنت أحذره
من الزمان رمانى الدهر بالغير
فحسبى الله فى كل الأمور فقد
بدلت بعد صفاء العيش بالكدر

ويكفى هذا القدر من الاستشهاد لهذا الشعر الرائع الجميل ،
يتفجر من شاعرية ثرة مطبوعة . ومن شعراء بنى بويه أبو العباس
خسر وبن فيروز بن ركن الدولة ، أنشد له الثعالبي فى اليتيمة
هذه الأبيات من خمرياتة :

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل كأس فى فم الندمان تغرب^(٢)
فحككت حين تجلت قمرا يلثم كوكب

(١) الكبة بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء - الدفعة فى القتال والجري ، والحمة فى الحرب ، والزحام ، وافلات الخيل .
(٢) الشمول الخمر .

ورد خديه جنى^(١) لكن الناطور عقرب

فاذا ما لدغت فالر يق درياق مجرب^(٢)

ولا شك أن ملوكا هذا أدبهم ، وتلك آثار شاعريتهم ،
لجدير بالأدب أن يزدهر في دولتهم ، وأن يعز بنصرتهم ، وأن
يطلب الزلفى به اليهم ، كل صاحب موهبة وفن ، وهكذا كان ..

(١) الناظر والناطور حافظ الكرم .

(٢) الدرياق - بالدال - والترياق - بالتاء - بالكسر فيهما

دواء السموم ، وهو فارسي معرب .

الفصل الثاني

الصاحب بن عباد

الصاحب بن عباد

هو أبو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ادريس الطالقاني ..
و « الطالقان » التي ينسب اليها — بفتح الطاء واللام —
كما ذكر ابن خلكان ، اسم لمدينتين احدهما بخراسان ، والأخرى
من أعمال قزوین . وأصل الصاحب من طالقان قزوین ، لا طالقان
خراسان (١) ..

وذكر ياقوت أن الصاحب من أهل « الطالقان » وهي ولاية
بن قزوین وأبهر ، قال : وهي عدة قرى يقع عليها هذا الاسم ،
وبخراسان بلدة تسمى « الطالقان » غير هذه ، خرج منها جماعة
من أهل العلم ، هكذا نسبه المحدثون (٢) ..

وكان أبوه عباد يكنى بأبي الحسن ، ويلقب « الأمين » ،
قال أبو حيان في « أخلاق الوزراء » انه كان خيرا ، مقدما في
صناعة الكتابة .. وكان الأمين ينصر مذهب الأشناني تدينا ،
وطلبا للزلفى عند ربه ، وكان قبل ذلك معلما بقرية من قرى
طالقان الديلم ، ثم كان من أهل العلم والفضل سمع أبا خليفة
الفضل بن الخباب وغيره من علماء بغداد وأصفهان والري ،

(١) وفيات الأعيان ٢٣٠/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٦٩/٦ .

وصنف كتاباً في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه ،
وروى عنه جماعة في مقدمتهم ابنه الوزير أبو القاسم بن عباد
وابن مردويه الأصفهاني .. وكان عباد كاتباً ووزيراً لركن الدولة
البويهى ، ومات سنة خمس وثلاثين وثلثمائة (١) .

وعلى هذا فقد كان عباد وزيراً قبل أن يكون ابنه صاحب
وزيراً . قال صاحب سلم الوصول في ترجمة صاحب : هو الوزير
الأديب ابن الوزير الطالقاني .. وكان أبوه وزير ركن الدولة بن
بويه (٢) وحدث أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب
« مشارب التجارب » وذكر صاحب ، فقال : أبو القاسم اسماعيل
ابن عباد بن عباس ، الوزير بن الوزير ، كما قال الرستمي فيه :
ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الاسناد بالاسناد (٣)
يروى عن العباس عباد وزاً رته واسماعيل عن عباد
وقال فيه أبو بكر الخوارزمي : صاحب نشأ من الوزارة في

(١) هكذا ذكر صاحب « سلم الوصول » . وتردد ابن خلكان
بين سنتي ٣٣٤ و ٣٣٥ قال في ترجمة صاحب « وتوفي والده أبو
الحسن عباد بن العباس في سنة أربع أو خمس وثلاثين وثلثمائة
رحمه الله تعالى ، وقال ابن الجوزي في « المنتظم » : مات عباد في
السنة التي مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وفي كلام
ابن الجوزي شك كثير اذ كان عباد على هذه المنزلة فكيف يطوى
التاريخ ذكره طوال الزمن الذي سطع فيه نجم ابنه ، وهو زمان
طويل ؟ وكل ما يذكر هو أن زوجته - أم صاحب - توفيت في
المحرم سنة ٣٨٤ هـ .

(٢) سلم الوصول (مخطوط) الورقة ١٦٦ .

(٣) الاسناد في الحديث رفعه الى قائله .

حجرها ، ودبّ ودرج من وكرها (١) ، ورضع أفويق درّها (٢) وورثه عن آبائه ، كما قال أبو سعيد الرستمي .. وآنشد البيتين (٣).

* * *

وكانت ولادة الصاحب سنة ست وعشرين وثلثمائة في ذي القعدة ، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة بالريّ ، ثم نقل الى أصبهان ، ودفن في قبة بمحلة تعرف بباب ذرّيه ..

وقد علم الصاحب أبوه ، ولقنه ما شاء من علم وأدب ، وقرآن وكلام ، ومنظوم ومنثور ، ليعده لما كان يرجو له من المنزلة بين العلماء والأدباء والوزراء ، وكان أبوه كما تقدم كاتب ركن الدولة بن بويه الديلمي ووزيره ، فكان يطمع أن يكون لابنه ما كان له من خدمة الملوك ، فينال بذلك مجد الدنيا وثواب الآخرة ، فقد كان دينا خيرا يطلب الزلفى عند ربه ، وكان العميد يكتب لصاحب خراسان ، ولم يزل أبو الفضل بن العميد في حياة أبيه وبعد وفاته بالريّ وكور الجبل وفارس ، يتدرّج الى المعالى ، ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ،

(١) دب الماشى اذا سار على هيئته ولم يسرع ، ودرج مشى ، ودرج الصبى والشيخ اذا مشى مشيا ضعيفا ، والوكر عش الطائر وموضعه الذى يبيض فيه ويفرخ .

(٢) الفيقة اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين ، وجمعه أفواق ، وجمع الجمع أفويق . ومعنى العبارة أنه تربى فى بيثة الوزارة طفلا ونشأ فيها صغيرا .

(٣) وفيات الأعيان ٢١٩/٢ .

واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل ،
وخدمة الكبراء . وانتجعه الشعراء ، وورد عليه أبو الطيب المتنبي
عند صدوره من حضرة كافور الاخشيدى ، فمدحه بتلك القصيدة
المشهورة السائرة التى منها :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكا متبدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
ردّ الآله نفوسهم والأعصرا

* * *

وكان صاحب بن عباد في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم
أبا الفضل بن العميد علياً خاصة ، فترقت به الحال الى أن كتب
ل مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخى عضد الدولة بن ركن
الدولة الديلمي . وكان مؤيد الدولة حينئذ أميراً ، وأحسن في
خدمته ، وحصل له عنده بطول الخدمة قدم ، وأنس منه مؤيد
الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافى الكفاة .

قال ابن خلكان : هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ؛
لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، ف قيل له « صاحب ابن
العميد » ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه .
وذكر الصابى في كتاب « التاجى » أنه إنما قيل له الصاحب لأنه
صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا ، وسماه الصاحب ،

فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به ، ثم سمي به كل من ولى
الوزارة بعده ..

وكانت لأبى الفضل بن العميد فى نفس تلميذه صاحب
منزلة كبيرة ، فكان يحله ويكرمه ، ولعل صاحب لم يمدح
بشعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح به أستاذه أبا
الفضل ، فمدحه فيه كثيرة استفرغ فيها جهده ، وألقى حميته ،
فمن عيون شعره فيه قوله من قصيدة :

من لقلب يهيم فى كل واد	وقتيل للحب من غير واد
انما أذكر الغوانى والمق	صد سعدى مكثرا للسواد
وإذا ما صدقت فهى مرامى	ومنائى وروضتى ومرادى
وندى ابن العميد أنى عميد	من هواها ألية الأمجاد
لو درى الدهر أنه من بنيه	لازدرى قدر سائر الأولاد
أو رأى الناس كيف يهتز للجو	د لما عددوه فى الأطواد
أيها الآملون خطوا سريعا	برفيع العمساد وارى الزناد
فهو ان جاد ضمن حاتم طى	وهو ان قال قل قس ايا
وإذا ما ارتأى فأين زياد	من علاه وأين آل زياد
أقبل العيد يستعير حلاه	من علاه العزيرة الأنداد
سيضحى فيه لمن لا يوالى	ه ويبقى بقية الأعياد
ومديحى وان لم يكن طال أيا	تا فقد طال فى مجالى الجياد
ان خير المداح من مدحته	شعراء البلاد فى كل ناد
قال الثعالبي : ما أحسن ما أدمج الافتخار فى أثناء المدح (١) ..	

(١) يتيمة الدهر ١٥٧/٣ .

ومن شعر الصاحب في توديع أبي الفضل بن العميد ، وفيه
يظهر حبه واجلاله ، وحرصه على أن يكون معه أينما سار ؛
ويذكر بعض نعماء عنده :

أودّع حضرتك العالييه	ونفسي لا دمعتي هاميه
ومن ذا يودع هذا الجنب	فتهنئوه بعده العافيه
جنب رعيت به جنه	قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا	وعلمت ما الهمم العاليه
كأنني ببغداد في شوقها	اليك وأدمعها الجاريه
وأنت المرجى لظفارها	بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لي في المسير	إذا سرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطريق	وسرت وفي يدي الغاشيه

وقد كان أبو الفضل بن العميد الأستاذ الذي خدم بفنه
الصاحب ، وهو فن الكتابة الذي أوصله الى ما وصل اليه من
منصب الوزارة ؛ فكان تعليمه التعليم المفيد النافع في الحياة وفي
العمل وفي الفن الكتابي الذي كان أستاذا فيه ، وصاحب منهج
وطريقة متميزة .

* * *

ولا بن عباد أستاذ آخر هو أبو الحسين أحمد بن فارس الذي
حمل الى الريّ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة
على بن ركن الدولة بن أبي الحسن بويه الديلمي صاحب الريّ
فأقام بها قاطنا .

وكان أبو الحسين أستاذا لأبي الفتح على بن أبي الفضل بن

العميد ، كما كان أستاذاً للصاحب بن عباد ، وكان صاحب يكرم ابن فارس ، وكثيراً ما كان يقول : شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف .. !

وكان ابن فارس اماماً في علوم شتى ، وخصوصاً اللغة ، فانه أتقنها وألف كتابه « المجمل » في اللغة ، وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً ، وله كتاب حلية القراء ، وله رسائل أنيقة ، ومسائل في اللغة تعاني^(١) بها الفقهاء ، وله أشعار كثيرة حسنة^(٢) .

وقد وفي ابن فارس لتلميذه صاحب بن عباد ، وفاء علمياً كبيراً ، واعترف له بما بلغه من درجة عالية في العلم والثقافة والأدب ، فضلاً عما بلغه من رفيع المنزلة في عالم السياسة والإدارة ، وفرحة الأستاذ بتلميذه اذا ابتسمت له الحياة لا تعد لها فرحة أخرى ، لأنه يرى أنه شارك في إقامة مجده ، وربما رأى أنه سبب من أعظم أسباب نجاحه وتفوقه ..

وآية هذا الوفاء ذلك الكتاب الممتاز الذي ألفه ابن فارس في « فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » والذي لقبه بتلميذه ، فسماه « الصاحبى » وأهداه اليه ، وكتب في مقدمته : هذا « الكتاب الصاحبى » في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها . وانما عنونته بهذا الاسم لأنى لما ألفتها أودعته خزانة « الصاحب » الجليل كافي الكفاة ، عمر الله عراض العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تجملاً بذلك وتحسناً ، اذ كان

(١) تعاني بها الفقهاء : اهتموا بها واحتفلوا .

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٢/١ .

ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضيا مقبولا ، وما يرذله أو ينفيه منفيًا مردولا ، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ، ومفاد منه (١) ..

ولم ينس ابن فارس أن يذكر صاحب وأن يدعو له قبل أن يلقي القلم ، فكتب في آخر كلماته في الكتاب : « وهذا تمام الكتاب الصاحبى » أتم الله على « الصاحب » الجليل النعم ، وأسبغ له المواهب ، وسننى له المزيد من فضله ، انه ولى ذلك ، والقادر عليه . وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) ..

وفي هذا الاهداء الكريم من ابن فارس ، وفي ذلك الثناء الذى قرأنا للصاحب فى قوله « شيخنا أبو الحسين .. » دليل على الحب المشترك ، والتقدير المتبادل بين الأستاذ الكبير والتلميذ النزيل .

ولكن يبدو أن السياسة لعبت دورها فى التفريق بين الرجلين ، وفى قطع أواصر الودّ وصلات التقدير بينهما ..

ذلك أن خلق الوفاء الذى تمكن من ابن فارس لتلاميذه ولمن أسدى اليه صنيعه جعله يبقى على وفائه وولائه لآل العميد كما كان على وفائه وولائه للصاحب ، وقد كان بين أبى الفتح بن العميد والصاحب من التنافس على السيادة ، ومحاولة كل منهما الانفراد بالأمر ، ما قطع بينهما حبال الود ، وانتهى بهما الى

(١) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢ .

(٢) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢٣٢ .

القطيعة ، فلم يرضى صاحب — فيما يظن — عن ابقاء ابن فارس على مودة ابن العميد والاخلاص لهم ، فأنحرف عنه ..

وآية ذلك ما رواه الثعالبي عن أبي الحسين النحوي في قوله : « كان صاحب منحرفا عن أبي الحسين بن فارس لانتسابه الى خدمة ابن العميد ، وتعصبه له ، فأتفد اليه من همدان كتاب « الحجر » من تأليفه ، فقال صاحب : ردّ « الحجر » من حيث جاءك ! ثم لم تطب نفسه بتركه ، فنظر فيه ، وأمر له بصلة^(١) ..

وذكر هذا أيضا القفطي في انباه الرواة ، فقال عن ابن فارس انه كان شديد التعصب لآل العميد ، وكان صاحب يكرهه لأجل ذلك ، ولما صنف كتاب « الحجر » وسيره اليه في وزارته قال : ردّوا الحجر من حيث جاء ! وأمر له بجائزة ليست سنية^(٢) .. وذلك أن ابن فارس استمر على صلته بتلميذه أبي الفتح بن العميد بعد وفاة أبيه أبي الفضل بن العميد ، فهل كان في استدامة الصلة بين الأستاذ وتلميذه ما يغضب صاحب بن عباد ؟ وما أسباب ذلك السخط ؟ وما علاقة صاحب بأبي الفضل ثم بابنه أبي الفتح ؟ ذلك ما تفصله في الكلمات التالية .

(١) يتيمة الدهر ٢٠٠/٣ .

(٢) انباه الرواة على انباه النحاة ٥٣/١ .

الصاحب وابن العميد

ذكرنا في شيء مما مضى كيف تلتطف على بن بويه الذي لقب فيما بعد « عماد الدولة » مع الحسين بن محمد الملقب « العميد » الذي كان وزيراً لمرداويج بن زيار ، حين تنازل له عن ثمن البغلة الشهباء ، وأرسل إليه هدية جميلة ، وما كان من أثر هذا الصنيع في قلب ابن العميد الذي ردّ الجميل ردّاً كأعظم ما يكون الردّ ، لأن هذا الردّ كان مفتاح مجد بنى بويه ، ولولاه لهلكوا جميعاً على يد مرداويج أو على يد أخيه وشمكير بن زيار ، أو لبقوا في الأقل كما كانوا من الدهماء المغمورين إذا كتبت لهم النجاة من يد مرداويج وأعوانه ، فالعميد هو الذي قرأ كتاب مرداويج قبل أن يقرأه أخوه وشمكير ، وهو الكتاب الذي يأمر فيه أن يمنع بنى بويه وسائر القواد الذين كانوا معهم من المسير إلى ولاياتهم الذي تسرع في اسنادها إليهم ، ثم ندم على ما كان منه .

والعميد هو الذي أنفذ إلى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ، ويطوى المنازل ، قبل أن يقرأ وشمكير كتاب أخيه وينفذ ما فيه .

ثم كان ما كان من أحداث انتهت بذلك السلطان الكبير والملك الواسع ، والمجد التاريخي الذي كتب لبنى بويه .

ومن الطبيعي ألا ينسى أبناء بويه هذا الفضل العظيم وتلك
المأثرة الخالدة التي طوق أعناقهم بها العميد .

والعميد (أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلة) أصله
من قم ، وكان يكتب لما كان بن كالى فلما قتل ما كان في المعركة
واستبيح عسكره ، وحمل قواده وخواصه مقرنين في الأصناد
الى الحضرة ببخارى ، وفي جملتهم أبو عبد الله الذي نفعته شفاعته
فضله ونبله ، فأطلق عنه وأكرم ورتب في الدار السلطانية ، وتقلد
ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر الساماني ملك بخارى ،
ولكن بخارى لم تتسع له ، فذهب الى بلاد الجبل حيث بنو بويه
الذين أكرموا وفادته ، وقدروا ما سلف من صنيعته فيهم ،
فأغدقوا عليه كما أغدقوا على ابنه أبي الفضل الحسين بن محمد
الذي اشتهر بابن العميد ، والذي كان يدعى الجاحظ الأخير ،
والأستاذ ، والرئيس . وقد نشأ أبو الفضل شغوا بتحصيل
العلوم العقلية واللسانية ، فبرع في علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ
في الأدب والكتابة نبوغا جعله واحدا عصره . ولم يزل أبو الفضل
في حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج الى
المعالي ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر
في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل وخدمة
الكبراء ، وانتجعه الشعراء ..

وقد عرفنا أن صاحب بن عباد أحد تلامذته ، وأنه كان أقرب
تلاميذه اليه ، وأكثرهم صحبة له ، حتى كان لقب « صاحب »
الذي لقب به ابن عباد ثمرة لهذه الصحبة ، وقد عرف ابن عباد

فضل أبي الفضل عليه ، فهو الذي علّمه علمه وأدبه ، ولقنّسه
طريقته في الكتابة ، ودربه على أعمال الكتابة والوزارة .. وقد
قرأنا بعض مدائح صاحب فيه التي كانت في حقيقتها اعترافاً
بفضله ، وتقديراً لحسن ما أسدى إليه . وفي الوقت نفسه كان
الصاحب في موضع الثقة من قلب أستاذه ، صان ودّه ، وحفظ
سرّه ، وكان أبو الفضل يطمئن كل الاطمئنان الى الصاحب ،
فكان حريصاً على أن يوافيه بما يستطيع من ثمرة تجاريه
وملاحظاته في كل أمر يعنيه .

ومن أمثلة ذلك ما كتب الصاحب الى أبي الفضل في العراق ،
ليعرفه من أخباره وأخبار المهلبى أبي محمد الحسن بن محمد وزير
معز الدولة ومن أخبار سياسته وأدبه ما يستطيع أن يعرف ، ونرى
الصاحب يطنب لأبي الفضل في وصف ما رأى ، ويذكر من
التفاصيل ما يجعل ابن العميد كأنه حاضر يشهد بعينه كل صغيرة
مما يدور في مجالس الوزير المهلبى . ومن ذلك ما كتبه الصاحب
الى ابن العميد أبي الفضل :

« وردت — أدام الله عز مولانا — العراق ، فكان أول
ما اتفق لي استدعاء مولاي الأستاذ أبي محمد أيده الله ، وجمعه
بين ندمائه من أهل الفضل وبينى .. وكان الذي كلمنى منهم شيخ
ظريف خفيف الروح أديب ، متقعر في كلامه لطيف يعرف بالقاضى
ابن فريعة ، فانه جارانى في مسائل خفّتها تمنع من ذكرها ... ومنها
أن كهلا تطايب بحضرة الأستاذ أبي محمد أيده الله سأله عن حدث

اللقا مريدا تخجيله ، فقال : هو ما اشتمل عليه جربانك^(١) ، ومازحك فيه اخوانك ، وباسطك فيه غلمانك ، وأدبك عليه سلطانك ، فهذه حدود أربعة .. فانصرفت وقد ورد الخبر بمضى أبى الفضل صاحب البريد — رضى الله عنه ورحمه ، وأنساً أجل مولانا ومدته فيه — فساعدت القوم على الجلوس للتعزية عنه لما كان يعرف من الحال بينى وبينه :

صلة غدت فى الناس وهى قطيعة

عجيباً ، وبرّ راح وهو جفاء

فما تمكنت أن جاءنى رسول الأستاذ أبى محمد — أيده الله — يستدعينى ، فعرفته عذرى ، وحسبته يعفينى ، فعاودنى بمن استحضرنى ، فدخلت عليه وقد قعد للشرب فأكرهنى عليه ، ثم قال : أتعرف أحسن صنيعة منى بك ، وقد نقلتك عن «واحرباه» الى «واطرباه»^(٢) . وسمعت عنده خادمه المسمى «سلافا» وهو يضرب بالطنبور ويحيد ، ويعنى ويحسن ، وفيه يقول وقد شربنا عنده سلافا :

قد سمعنا وقد شربنا سلافا

وجمعنا بلطفه أوصافا

وشاهدت من حسن مجلسه وخفة روح أدبه وانشاده

(١) جربان القميص — بضم تين أو كسرتين مع تشديد الباء — جيبه .

(٢) أى من الحزن والندبة الى المسرة والطرب .

للصنوبرى وطبقته ما طاب به الوقت ، وهشت له النفس ، وشاكل
» رقة ذلك الهوى ، وعذوبة ذلك اللى ..

» قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض
مستدير ينصب اليه الماء من دجلة بالدواليب ، وقد مدت الستارة ،
وفيها حسن العكبراوية فغنت :

سلام أيها الملك اليمانى

لقد غلب البعاد على التدانى
فطرب الأستاذ أبو محمد بغنائها ، واستعاد الصوت مرارا ،
واتبعته أبياتا وهى :

تطوى المنازل عن حبيبك دائما

وتظل تبكيه بدمع ساجم

هلا أقمت ولو على جمر الغضا

قلبت أو حد الحسام الصارم

وتبعته جارية ابن مقله ، ولا غناء أطيّب وأطرب وأحسن من
شنائها ، فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يا من له رتب ممكنة القواعد فى الفؤاد

أيحل أخذ الماء من متلهب الأحشاء صاد ؟

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا فى الشرب ، واشتغل فى الشدو ،
وارتفع الأمر عن الضبط ، والأصوات عن الحفظ ، واتفقت فى
أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات ومجاوبات ، وافترقنا (١) ..

(١) يتيمة الدهر ٢٢٩/٢ وقال الشعالى انه مستخرج من
كتاب « الروزنامة » للصاحب .

وهذا حديث ينبىء عن الودّ الصافى ، والوفاء الجميل ،
والا ما كلف الصاحب نفسه هذا العناء فى الوصف والاستقصاء
ليقف أستاذه على أحوال غيره من رجال الدولة ووزرائها .

* * *

وكان أبو الفضل بن العميد — فى أكبر الظن — هو الذى
رشح الصاحب للكتابة لمؤيد الدولة ، وقد كتب بذلك كتابا يحث
الصاحب على قبول ما رشحه له ، ويذكر ما دار حول اختياره ،
وكان الصاحب يباهى بتلك الرقعة التى كتبها اليه أبو الفضل
حين استكتبه لمؤيد الدولة ، وقد جاء فيها : « بسم الله الرحمن
الرحيم ، مولاي ، وان كان سيدا ، بهرتنا نفاسته ، وابن صاحب
تقدمت علينا رياسته^(١) ، فانه يعدّنى سيدا ووالدا ، كما أعده
ولدا واحدا ، ومن حق ذلك أن يعضد رأى برأيه ، ليزداد
استحكاما ، وتتنظّهر^(٢) عقدا وابراما ..

» وحضرت اليوم مجلس مولانا ركن الدين ، ففاوضنى
ما جرى بينه وبين مولاي طويلا ، ووصل به كلاما بسيطا ، وأطلعنى
على أن مولاي لا يزيد بعد الاستقصاء والاستيفاء على التقصّى
والاستعفاء ، وألزم عبده أن أكره مولاي اكراها فى المسألة ، وأجبره
اجبارا فى الطلبة ، علما بأنه ان دافع المجلس المعمور طلبا للتحرّز
لم يردّ وساطتى أخذا بالتطوّل .. وأقول بعد أن أقدم مقدمة :

(١) يشير الى أبيه « عباد بن عباس » الذى كان وزيرا لركن
الدولة ، وكان يلقب « الأمين » .
(٢) أى نتعاون ونتضافر .

مولاي غنى عن هذا العمل بتصونه وتصلفه وعزوفه ، وبهمته
عن التكثر بالمال وتحصيله ..

« لكن العمل فقير الى كفايته ، محتاج الى كفالاته . وما أقول :
ان مرادى ما يقعد من حساب ، وينشأ من كتاب ، ويستظهر به من
جمع وبذر ، ومن عطاء ومنع . فكل ذلك وان كان مقصودا ، وفي
آلات الوزارة معدودا ، ففى كتاب مولاي من يفى به ويستوفيه ،
ويوفى عليه ما يسر مساعيه . ولكن ولى النعمة يريده لتهديب
ولده ، ومن هو ولى عهده من بعده ، والمأمول ليومه وغده .
أدام الله أيامه ، وبلغه فيه مرامه ^(١) ولا بد ، وان كان الجوهر
كريما ، والسنخ ^(٢) قديما ، والمجد صميما ، من ينوب مثاب من
تعلم ما السياسة ؟ وما الرياسة ؟ وكيف تدير العامة والخاصة ؟
وبماذا تعقد المهابة ؟ ومن أين تجلب الأصالة والاصابة ؟ وكيف
ترتب المراتب ويعالج الخطب اذا ضاقت المذاهب ؟ وتعصى الشهوة
لتحرس الحشمة ، وتهجر اللذة لتحفظ الامرة . ولا بد من محتشم
يقوم فى وجه صاحبه ، فيردّه اذا بدر منه الرأى المنقلب ، ويراجعه
اذا جمح به اللجاج المرتكب ، ويعاوده اذا ملكه الغضب الملتهب .
فلم يكن السبب فى أن فسدت ممالك جمة وبلدان عدة الا أن
خفضت أقدار الوزارة فانقبضت أطراف الامارة ، وليس يفسد
على ما أرى بقية الأرض الا اذا استعين بأذئاب على هذا الأمر ..
« فلا يبخلن مولاي على ولى نعمته بفضل معرفته ، فمن هذه

(١) يشير الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة .

(٢) السنخ - بكسر السين - الأصل .

الدولة جرى ما فضله ، وفضل الشيخ الأمين^(١) من قبله ، وإن كان مسموعا كلامي ، وموثوقا باهتمامي ، فلا يقنع^٢ انقباض عني ، واعراض عما سبق مني ..

ومولاي محكم الاجابة الى العمل فيما يقترحه ، وغير مراجع فيما يشترطه . وهذا خطي به ، وهو على ولي^٣ النعمة حجة لا يبقى معها شبهة ، وسأتبع هذه المخاطبة بالمشافهة ، اما بحضوري لديه ، أو بتجسسه الى هذا العليل^(٢) الذي قد ألح^٣ النقرس^(٣) عليه .. وكان صاحب بن عباد يحفظ هذه النسخة ويرويه ويفتخر بها^(٤) .

والحقيقة أن هذه الوثيقة تلقى الضوء على كثير من محاسن صاحب وآدابه ، فهي تسجل فضل أبيه عباد في الوزارة والكتابة ، فهو في نظر أبي الفضل صاحب تقدمت رياسته ، وابن العميد يجعل من نفسه للصاحب أبا بعد أبيه ، ويعترف للصاحب بالسيادة ثم يبرز حاجته في عمله الى صاحب ليعضد رأيه برأيه ، وليزداد أمره استحكما . ثم إن هذه الوثيقة تسجل ما هو أكثر من ذلك ، وهو أن ركن الدولة قد ألح^٣ على صاحب أن يقبل هذه الوصاية على ابنه مؤيد الدولة ، وأن صاحب أصر على الاعتذار والاستغناء وأنه تقدم الى أبي الفضل ليلح على صاحب الحاحا ، ويكرهه اكراها ، ويجبره جبرا . وأن الدافع للصاحب الى هذا التأبى

(١) يشير به الى أبي الفضل ، الذي كان يلقب « الأمين » .

(٢) يعني أبو الفضل بن العميد بالعليل نفسه .

(٣) هو مرض في مفاصل الكعب وأصابع الرجلين .

(٤) معجم الأدباء ٢٢٤/٦ .

والتمنع هو عزوفه عن الدنيا وتحزره من مفاتها ، وأنه غنى
بنفسه فهو يصونها الى درجة الصلف والكبرياء ، غير طامع في
مال ، ولا متطلع الى جاه . وقد وعد أبو الفضل صاحب بن عباد
بأن له كل ما يقترح ، وإن يرد له شرط مما يشترط ، وذلك
ما لا يخاطب به الا السادة الموقرون الأبهة ..

* * *

ذلك شيء يبين عن علاقة صاحب الوطيدة بأستاذه أبي
الفضل « ابن العميد الكبير » .. فماذا كانت تلك العلاقة بين
الصاحب وبين ابنه « أبي الفتح » أو « ابن العميد » الصغير ؟
أما ابن العميد الصغير « أبو الفتح علي بن محمد بن
الحسين بن محمد » الملقب بذي الكفایتين ، الذي كان وزيراً لركن
الدولة أبي علي الحسن بن بويه بعد وفاة أبيه أبي الفضل ، ثم
وزيراً لابنه مؤيد الدولة بويه بالرى وأصفهان وما اليها من
أعمال الدولة .. فقد كان أبوه قد أدبه فأحسن تأديبه ، وهذبه
أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فأحسن تهذيبه . وكان كما
يقول الثعالبي : نجيباً ذكياً ، لطيفاً سخياً ، رفيع الهمة ، كامل
المروءة ، ظريف التفصيل والجملة ، قد تألق أبوه في تأديبه وتهذيبه ،
وجالس به أدباء عصره وفضلاء وقته ، حتى تخرج وخرج حسن
الترسل متقدماً في النظم آخذاً من محاسن الآداب بأوفر
الحظ ، ولما قام مقام أبيه قبل الاستكمال ، وعلى مدى بعيد
من الاكتهال ، وجمع تدير السيف والقلم لركن الدولة لقب

بذى الكفائتين ، وعلا شأنه ، وارتفع قدره (١) ، وقد كان قيامه
مقام أبيه بعد وفاته سنة ٣٦٠ هـ ، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون
سنة .

وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل قد كلف جماعة من ثقافته
في السرّ يشرفون على ابنه أبي الفتح في منزله ومكتبه ،
ويشاهدون أحواله ، ويعدون أنفاسه ، وينهون إليه جميع
ما يأتيه وما يذره ، وما يقوله ويفعله ، فرفع إليه بعضهم أن أبا
الفتح اشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث المترفون من عقد مجلس
الأنس واتخاذ الندماء ، وتعاطى ما يجمع شمل اللهو في خفية
شديدة واحتياط تام ، وأنه كتب في تلك الحالة رقعة الى من
اسمه « أبو جعفر » في استهداء الشراب ، فحمل إليه ما يصلحهم
من المشموم والمشروب والنقل . فدرس الأستاذ الرئيس الى ذلك
الانسان من أتاه برقعة أبي الفتح الصادرة إليه ، فاذا فيها بخطه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . قد اغتنمت الليلة — أطال الله بقاءك
يا سيدي ومولاي — رقدة من عين الدهر ، واتتهزت فيها فرصة
من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابي في سمط الثريا ، فان لم
تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبسات نعش (٢) . والسلام » ..
ويقال ان أبا الفضل لما اطلع على هذه الرسالة استطير فرحا واعجابا ،
وقال : الآن ظهر لي أثر براعته ، ووثقت بجريه في طريقى ، ونيابته
منابى . ووقع له بألفى دينار ..

(١) اليتيمة ١٨١/٣

(٢) بنات نعش الكبرى سبعة كواكب .

ويبدو أن غرة الشباب قد أخذت مأخذها من أبي الفتح ، فلم يكن في جد أبيه ووقاره ، وكان أبوه يأسى لبعض ما يجد منه مما لا يراه موافقا لما يرشحه له المنصب السيادة ، وما يجدر أن يأخذ نفسه به من الجد وازوم السمات ..

حدث أحد أصحاب أبي الفضل بن العميد المختصين به قال : كان أبو الفتح بن أبي الفضل يباكر أباه في كل يوم ، ويدخل اليه قبل كل أحد ، فاتفق أن دخل يوماً وأنا جالس عنده ، فلما رآه مقبلاً في الصحن وشاهد عمته ومشيمته ، وهو يختال فيها ويسرف في تلويها ، عجب من ذلك ، وقال لي : أما ترى الى هذه العمة وهذه المشية في مخالفتها لعادتنا ومفارقتها طريقتنا ؟ فقلت : قد رأيت ، وإن رسم (١) الأستاذ أن أخاطبه فيها وأنهاء عنها فعلت . فقال : لا تفعل ، فانه قصير العمر ، وما أحب أن أدخل على قلبه همّاً ولا أمنعه هوى !

ووجد أبو الفضل لابنه أبي الفتح رقعة كتبها الى بعض من ينسب اليه ، وفيها مجون فاحش نظمه في بيتين (٢) ، فلما وقف ابن العميد أبوه على ذلك غضب ، وقال : أمثل ولدى يكتب مثل هذا الفحش والفجور ؟ ثم قال : أما والله لولا ولولا .. ثم أمسك كأنه يشير الى ما حكم له من سوء العاقبة ، وقصر العمر !

* * *

(١) رسم الأستاذ أي أمر .

(٢) معجم الأدباء ٢٠٢/١٤ .

كان ذلك في حياة أبيه ، فلما مات ألقى ركن الدولة مقاليد
اليه ، وعول في تدبير السيف والقلم عليه ، فلما جرى لعز الدولة
بختيار بن معز الدولة ببغداد ما جرى مع غلامه سبكتكين ،
وأرسل الى عمه ركن الدولة يستعين به ، تقدم الى أبي الفتح
بالمضى الى شيراز والمسير في صحبة ولده عضد الدولة لانجاد
عز الدولة ، وورد الى بغداد ، وجرى ما جرى من موت سبكتكين
ومحاربة أصحابه حتى انجلوا عنها ، وطمع عضد الدولة في بغداد ،
وأراد القبض على بختيار ، فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه ،
ويطالبوه بالأموال ، وأشار على بختيار ألا يلتفت الى شكواهم ،
ويغلظ في معاملتهم ، ثم قبض على بختيار واخوته ، وجمع الناس ،
وأعلمهم استعفاء بختيار وعجزه ووعد الجنود بالاحسان اليهم ،
وسر الخليفة بذلك لأنه كان مجافيا لبختيار ، وقد قابله عضد
الدولة وأظهر تعظيمه لرسوم الخلافة .. ولما بلغ ذلك ركن الدولة
استاء منه جدا وعزم على أن يسير بنفسه الى العراق لخراج ابنه
عضد الدولة ، ولم يقبل في ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه
معز الدولة والد بختيار حبا شديدا .. ولما عرف عضد الدولة ذلك ،
لم يسعه الا إعادة بختيار الى ملكه ، والمسير الى فارس ..
وكان ركن الدولة قد كتب الى أبي الفتح بن العميد في أثناء
تلك الأحداث يطلب اليه أن يحول بكل ما استطاع من تمكين
عضد الدولة مما أراد ، وأن يعمل بكل قوته وحيله على مفارقة
عضد الدولة ببغداد ، فتشدد ابن العميد على عضد الدولة في ذلك ،
وخاطبه فيه مخاطبات حقدتها عضد الدولة عليه ، فلما رجع عضد

الدولة قال لابن العميد : « ما حظيت من ورودي بغداد بفائدة
وقد أطلقت بسببها أموالا لا تحصى ؟ ، فقال له أبو الفتح :
ما سلم من الأعطيات سلطان ، ولا خلا من النفقات مكان ،
ولو استقصيت مقدار ما فرقته لكنت مبذرا . »

فقال له عضد الدولة : « أما أنت فقد شرف قدرك ، وعلا
ذكرك . كذاك خليفة الله في أرضه ولقبك ، فأنت ذو الكفائتين
أبو الفتح ، فأعظم بذلك من فخر يبقى بقاء النيرين ، ويدوم دوام
العصرين » ..

وكان عضد الدولة يقول : « خرجت من بغداد وأنا » زريق
الشارب « وخرج ابن العميد مكنى من الخليفة ، ملقباً بذي
الكفائتين » !

وفي تاريخ أبي سعد منصور بن الحسين الآبي أن عضد الدولة
كان ينقم^(١) على أبي الفتح ابن العميد أشياء ، وكان من أعظمها .
في نفسه حديثه ببغداد لما خرج لنجدة بختيار ، فانه جوّد القول
والفعل في ردّ عضد الدولة عن بغداد ، وأقام لنفسه بذلك ببغداد
سوقا تقدم بها عند أهل البلد والخليفة ، حتى لقبه الخليفة « ذا
الكفائتين » وكناه في مكتوبه « بأبي الفتح » ..

ولما انصرف عضد الدولة عن بغداد ، وقد ظهرت له مخايل
الغدر من بختيار من قيام أهل بغداد عليه ، وتصريحهم بالشتيم له ،
ولقبوه زريقا الشارب . وذلك أن عضد الدولة تقدم باتخاذ

(١) نقم عليه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .

مزملة (١) في داره ليشرّب منها الجند والعامة ، ولم يكن قد عهد مثل ذلك في دور السلاطين من قبل ، وكان في نفسه أزرق العين ، فلقبوه بذلك . فكان عضد الدولة يقول : خرجت من بغداد وأنا « ذريق الشارب » وابن العميد : الوزير ، ذو الكفایتين ، أبو الفتح (٢) ..

* * *

وعلى ذلك فقد عاد عضد الدولة الى فارس ، وهو ناظم على ابن العميد ، فقد عرف أنه عاد من بغداد دون أن يحقق شيئاً من الآمال التي كان يتطلع اليها ، وضاعت منه الفرصة التي كان ينتظرها ، في حين أن ابن العميد قد رجع راضياً مرضياً ، فقد اتصل في بغداد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ، وقربهم اليه ، وحببهم فيه . وعرف له بختيار في الوقت نفسه فضل ابن العميد في ابقاء سلطانه وتثبيت ملكه ، والحيلولة بين عضد الدولة وما كان يشتهي من القضاء عليه ، وتولى زمام ملكه .

وكان عضد الدولة لما عاد من بغداد الى فارس شرط على ابن العميد ألا يقيم ببغداد بعده الا ثلاثة أيام ، ثم يلحق بوالده بالري ، فلما خرج عضد الدولة طابت لابن العميد بغداد ، فاتبع هوى صباه ، وأحب الخلعة والدخول مع بختيار في أفانين من لهو ولعبه ، ووجد خلوا من أشغاله ، وراحة من تدبير أمر صاحبه « ركن الدولة » مدة ، وتمكن من اللذات . وعرف له بختيار

(١) المزملة جرة أو خابية لتبريد الماء .

(٢) معجم الأدباء ٢٠٥/١٤ .

ما صنع فيه من الجميل ، فهو الذى خلصه وأعاد عليه ملكه ،
 وصرف عضد الدولة عن بغداد فكان بختيار يراه بصورة من
 خلصه من مخالب الأسد بعد أن افترسه ، وأن سعيه بين ركن
 الدولة وعضد الدولة هو الذى رد عليه ملكه ، فبسطه وعرض
 عليه وزارته وتمكينه من ممالكه ، وألا يعارضه فى شيء يدبره
 ويراه ، فلم يجبه أبو الفتح الى ذلك ، وقال : « لى والدته وأهل
 وولد ونعمة قد رتبت منذ خمسين سنة ، وهى كلها فى يد ركن
 الدولة ، ولا أستطيع مفارقتها ، ولا يحسن بى أن يتحدث عنى
 بمخالفتها ، ولا يتم أيضا لك مع ما عاملت به من الجميل . ولكنى
 أعاهدك ان قضى الله عز وجل على ركن الدولة ما هو قاض على
 جميع خلقه أن أصير اليك مع قطعة عظيمة من عسكره ، فانهم
 لا يخالفوننى . وركن الدولة مع ذلك هامة اليوم أو غد^(١) ، وليس
 يتأخر أمره » .

واستقر ذلك بينهما سرا ، لم يطلع عليه الا محمد بن عمر
 العلوى ، فانه توسط بينهما ، وأخذ عهد كل واحد منهما على
 صاحبه ، ولم يظهر ذلك لأحد ..

* * *

تلك قصة ابن العميد فى رحلته الى بغداد أصاب فيها جأها
 عظيما ، وتطلع الى أمل عريض فانه سيكون كما أمل وزير الدولة
 كلها فى حاضرة الخلافة الكبرى ، لا كاتباً أو وزيراً فى ولاية صغيرة
 من ولايات الدولة وأعمالها التى لا تكاد تحصى .

(١) مثل يضرب لمن قرب أجل حياته .

ولا شك أن هذه الأنباء قد وصلت الى عضد الدولة بعد عودته ، وكانت من أهم الأسباب في زيادة اشتعال أحقادده عليه ، وتبرمه به ، وتربصه ليوم القصاص .

* * *

ولم يلبث ركن الدولة أن قضى نحبه في سنة ٣٦٦ هـ ، وقد ضبط أبو الفتح ذو الكفائتين الأمر بعد وفاته أحسن ضبط ، وسكن العسكر ، وفرق فيهم الأموال . وكان مطاعا في الديلم ، محبا اليهم ، كثير الافضال عليهم ، وبادر بالخبر الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة ، وكان بأصبهان ، فورد الرىّ ومعه وزيره وصاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ٣٦٦ هـ . وجلس للتعزية ، ثم انتصب في مكان أبيه .

وكانت لمؤيد الدولة هيئة وسياسة ، وفيه سخاء وسماحة ، وخلع على أبى الفتح بن العميد ذى الكفائتين خلع الوزارة ، وفوض اليه الأمر يوم الأربعاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول . وكان صاحب بن عباد يرغب أن يقيم بالرىّ ، ويخلف أبا الفتح . فلم يأمن أبو الفتح جانبه ، وعمل على ضرب الحجاب الشديد بين مؤيد الدولة وصاحبه ابن عباد ، بعد أن خوفوه منه لمحله من صناعة الكتابة ، ولمكانه من قلب مؤيد الدولة ، فأراد إبعاده عن الحضرة ، ليتمكن من الايقاع به ان أراد ذلك .

وأشار ابن العميد على مؤيد الدولة بأن يرده الى أصفهان ، ليدبر أعمالها ، وليقيم بها ، فخلع عليه رسم الوزارة القباء والسيف والمنطقة وما يجرى مع ذلك . وخرج صاحب الى أصفهان يوم

الأحد لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، أى بعد ثلاثة أيام من تولية أبى الفتح الوزارة .

هذا موقف أبى الفتح بن العميد من الصاحب بن عباد ، وهو موقف الحذر المتوجس من الصلة المعقودة بين الصاحب ومؤيد الدولة ، ومن حقه أن يكون حذرا ، وأن يكون متوجسا ولكن لم يكن له الإسراع الى التهمة على غير أساس من عمل يراه ، أو شرّ بدا له منه ، فكان ابن العميد ظالما للصاحب ، وهو لم ير منه ما يريبه ، بل ان الصاحب بن عباد كان فى طليعة المهنيين لأبى الفتح باسناد منصب الوزارة اليه فى كتاب يفيض بالاخلاص والمودة يقول فيه : « أنا أهنيء — أطال الله بقاء مولاي — الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها ، وبلوغها فى ظله ارادتها ، وانحيازها الى جنبته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوّه عليها ، وعطفه عنان الفكر اليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها اشفاقا من استشراف أناس النقص لها ، وخرج صدرها من تحدث أحلاس^(١) الجهل بها . »

أرأيت كيف وصف الصاحب فى اخلاص كل متطلع الى هذا المنصب ، وكل مزاحم لابن العميد فيه بأنه من « أناس النقص » ومن « أحلاس الجهل » ؟ ولو كان الصاحب من أولئك المتطلعين

(١) الأحلاس : جمع حلس — بكسر فسكون — يقال : هو حلس بيته اذا لم يبرح مكانه ، والمعنى ملازمتهم للجهل .

أو المفسدين ، لكان هو أول من ينطبق عليه هذا الوصف . ثم يستطرد صاحب في شرح استحقاقه الوزارة ، وأصالتها فيه ، وعراقنتها في بيته فيقول : « ولا غرو فهي وليدة داره ، قد آلت لا تخطت خطته ، وعاهدت لا برحت عرصته . فالحمد لله الذي أقرّ عين الفضل ووطأ بها دار المجد ، وترك الحساد يتعثرون في ذيول الخيبة ، ويتسقطون في فصول الحسرة ، حمدا يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور المحاسن ، وشد ظهور المحامد ، بتفويض الصدر الى من وليه بحقّين ، قديم وحديث ، وأوليه بفضلين ، مكتسب وموروث . لأن مولاي وان كان بكفايته مستغنيا عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء الى العبيد — قدّس الله روحه — ييسر فيحفر أمره ، ولا الانتماء الى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل فيترك ذكره ! هيهات ، ان الرياسة خيمت ثمّ متشبّثة بأعطافهم ، متنقلة في أكنافهم ، حتى استكمل مولاي جلالها ، ووفّأها حظّها وجمالها :

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها
ثم يدعو له هذا الدعاء اللطيف : « وفقه الله لطاعته التي هي أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة وليّ نعمته ، فهي حتم لا يرفع مكتوبه ، وفرض لا ينسخ وجوبه ، ولقّاه في نفسه الكريمة نجرا^(١) وطبعا ، الشريفة أصلا وفرعا ، أفضل سعادة قسمت لوالي عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامي أمل ، بمنّه » .

(١) النجر الأصل .

ويختتم صاحب كتابه بالافصاح عن مشاعره ، والشرف
 بخدمته في قوله : « أنا مستغن — أطال الله بقاء مولاي الأمير —
 عن أن أصف ما خصني من بهجة هذه المنحة ، وخلص الى من
 جدة هذه النعمة ، فاني والوزارة في خدمة الأستاذ الرئيس أخوان ،
 وردناها جميعا ، وورثناها مولاي معا . غير أنني قد جلوت من
 الشكر لله ما رجوت أن يحميني مواقف الجحود ، ويؤذن مولاي
 بعوارف المزيد ، وصدقت نذورا أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت
 شروطا قدمتها منذ برهة . وآخر دعواي أن الحمد لله رب
 العالمين ^(١) » .

* * *

ذكر أبو حيان أنه لما ورد مؤيد الدولة الري من أصبهان ،
 وصادف الأمر متسقا ، ولقى كل فتق مرتقا ، بما تقدم من الحزم
 فيه ، ونفذ من الرأي الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند
 فكرها ودمدم بذكرها . فقال له أبو الفتح بن العميد : بها نظمت
 لك الملك ، وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفت
 هذه الزيادة هواك فأسقطها ، قاليد الطولى لك !

وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره
 غير نافذ . هذا في الظاهر ، وأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه
 مؤيد الدولة ، ويوثبه على أبي الفتح بن العميد بما يجد السبيل
 اليه من الطعن والقدح . فأحس بذلك ابن العميد ، فألب الأولياء
 على ابن عباد ، حتى كثر الشغب وعظم الخطب ، وهم بقتله .

(١) رسائل صاحب بن عباد ١٣٣ .

فقال ابن العميد لمؤيد الدولة : « ليس من حق كفايتي في الدولة وقد اتكتت حبلها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام الخسف والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمرات الهوان » !

فقال له مؤيد الدولة في الجواب : « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذي يبرد فورتك عنه — عن صاحب » — ؟

قال أبو الفتح « ينصرف الى أصفهان موفورا ! .. فوالله لو طالبتة منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ! ولئن أحس الأولياء الذين اصطنعتهم بمالي وأفضالي بكلامه في أمري ، وسعيه في فساد حالي ، ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف » !

فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزام بيدك .. ! وتلطف صاحب في خلال ذلك لابن العميد ، وقال له « ألا أتظلم منك اليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاء سهل الزوال اذا تألفت الشاردة من حلمك ، وعظفت على الشائع من كرمك » ..

ثم تقدم صاحب راضيا الى أبي الفتح أن يكون كاتب انشائه ، وقال له « ولني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ، ورتبني بين يديك ، وأحضرني بين أمرك ونهيك ، وسمنني برضاك ، فاني صنيعة والدك ، واتخذني بهذا صنيعة لك . وليس يجمل أن تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبته الى هذا

وأمنتني فاني أكون خادمك بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك
في صغير أمرك وكبيره . وفي هذا اطفاء النائرة التي قد ثارت
بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائي على » .

ولم يكن في هذا الرجاء ، ولا ذلك الاسترضاء ما يستل سخيمة
أبى الفتح ، والصاحب يتقدم اليه طالبا تجربته ، ومذكرا بسابقة
أبيه وفضله عليه ، وداعيا الى استدامة هذا الفضل بازالة ما ثار
في نفسه من سوء الظن ، وتحريض الأتباع أتباع أبى الفتح
وخصوم الصاحب على الكيد للصاحب ، ومحاولة الفتك به
والقضاء عليه .

وهذه الرواية كما ترى تقوم على أساس من سوء الظن
بالصاحب ، دون أن يبدى صفحة وجهه بالثورة ، ودون أن يقع
منه ما يريب . فقد كان الصاحب قريبا كما قدمنا من مؤيد الدولة
في أصفهان ، بل كان ملازما له كظله ، وناصحا له في أمره ، وشأن
القريب أن يظل قريبا الا أن يبادر منه ما يستوجب اقصاءه . وعلى
كل حال لم يكن للصاحب بد من استدامة الصحبة ، وقد أقبلت
الدنيا على مخدمه وأصبح الملك المطاع ، ولم يكن له أن يفر
منه أو أن يتنكر لصحبته .

وليس في هذه الرواية كما ترى خبر صريح يؤكد وشاية
بأبى الفتح أو اساءة اليه . وكان على ابن العميد أن يجرب ، وأن
ينتظر ثمرة التجربة ، ولا ضير عليه في التجربة والانتظار ، فان
الأمر له ، وضم الصاحب الى حضرته ابعاد له عن مواطن الريب
والشكوك ، وليس آمن لابن العميد من أن يكون الصاحب عدوه

فيمن يرى بين يديه في منزلة المأمور المنهى ، وابن العميد الأمر المطاع فيما يأمر وينهى ، ومؤيد الدولة يقولها له كلمة صريحة : « لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمam بيدك » ! ويقول له : « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » !

بل ان الرواية نفسها تذكر في صراحة أن ابن العميد هو الذي ألب الأولياء والأتباع على ابن عباد ، حتى كثر الشغب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله !

ولم يستطع لين كلام صاحب وتوسله أن يلين قلب ابن العميد ، ولا أن يطفىء نار حقدده عليه ، بل كان جوابه على التوسل والاستعطاف « والله لا تجاورني في بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك اذن على » ، ولا عين عندي ، وليس لك منى رضا الا بالعودة الى مكانك من أصفهان ، والسلو عما تحدث به نفسك (١) !

وأصر ابن العميد على رأيه فأبعد صاحب الى أصفهان ، وحرمة الكتابة لمؤيد الدولة . ولكن هل تحققت أمانى ابن العميد الذى أساء بالصاحب الظن فخلا له الجوّ ، أو أمن الكيد الذى كان يعتقد أن صاحب يحوكه له ، ويفسد به ما بينه وبين مؤيد الدولة ؟

ان أبا اسحاق ابراهيم بن عيسى النصيبى يذكر ما آل اليه أمر ابن العميد فى قوله « كان أبو الفتح على بن أبى الفضل بن العميد قد دبر على صاحب بن عباد حتى أزاله عن كتابة الأمير

مؤيد الدولة ، وأبعده عن حضرته بالرى الى أصفهان ، وانفرد
هو بتدبير الأمور لمؤيد الدولة ، كما كان يدبرها لأبيه ركن الدولة.
واستدعى ابن العميد يوما ندماءه ، وعبا لهم مجلسا عظيما ،
وأظهر من الزينة وآلات الفضة والذهب والصيني وما شاكله مما
يفوت الحصر ، وشرب واستفزه الطرب ، وكان قد شرب يومه
وليلته ، فعمل شعرا غنى به ، وهو :

دعوت المنى ودعوت العلا فلما أجابا دعوت القدح
وقلت لأيام شرخ الشباب ألا ان هذا أوان النرح
إذا بلغ المرء آماله فليس له بعدها مقترح
فلما غنى بالشعر استطابه ، وشرب عليه الى أن سكر ، وقال
لغلمانه : غطوا المجلس ولا تسقطوا منه شيئا ، لأصطبح في غد
عليه ؛ وقال لندماءه : باكرونى . ثم قام الى بيت منامه ، وانصرف
عنه الندماء .

فلما كان السحر دعاه مؤيد الدولة ، فلم يشك ابن العميد أنه
لهم ، فقبض عليه ، وأثقل الى داره من استولى على جميع ما فيها ،
وأعاد ابن عباد الى وزارته . وتطاولت بابن العميد النكبة حتى
مات فيها (١) .

* * *

والحقيقة أن نكبة ابن العميد كانت لها أسباب معروفة ، ولم
يكن الصاحب واحدا من هذه الأسباب ، بل ان بنى بويه أنفسهم
هم الذين دبروا أمر نكبته ، فقد كان عضد الدولة يحقق عليه

(١) معجم الأدباء ٢٥١/٦ .

حقدا شديدا لما مر من الأسباب في أيام آبيه ركن الدولة ، وفي أيام أخيه مؤيد الدولة ، منها ممالأته لبختيار ، ومنها استمالاته القواد بالاغداق عليهم فكانوا يغلون في موالأته ومحبتة ، ومنها ترفعه عن التواضع في الكتابة التي تصدر عنه الى عضد الدولة واخوته . وقد عابوا عليه هنواته وآفاته ، ونسبوا اليه أنه هو الذي حرّض من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخيههم فخر الدولة بأخبارهم ، وكانوا يعتقدون أنه عين عليهم لبختيار ينتهز الفرصة للقضاء عليهم والحقاق به ليتمتع ببغداد قاعدة الخلافة ومهبط العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة .

فأين صاحب من كل هذا ؟

لقد كان صاحب رفيقا لمؤيد الدولة وصاحبا له ، ولم يبق في الرى غير أيام معدودات ، وحاول ما حاول من التقرب الى أبى الفتح والزلفى عنده ، ولما أصر أبو الفتح على مغادرته الرى وعودته الى أصفهان بعيداً عنه وعن صاحبه مؤيد الدولة لم يسع صاحب الا السمع والطاعة . فخرج ابن عباد من الرى على صورة قبيحة بالليل ، هي صورة الطريد ، فأيهما كان الظالم ؟ وأيها كان المظلوم ؟

وبلغ صاحب أصفهان ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، وهو غير آمن على نفسه ، وقد رأى من أبى الفتح عين الغدر ، فغلبه الخوف ، وتملكت منه الوساوس بعد أن علم أن ابن العميد سيرسل اليه من يحاسبه ويؤذيه ويهينه ، ولما أحسّ بالأمر وعرف ما يبيت له عمل على ركوب المفازة الى نيسابور لما ضاق به الحال ،

وهو لا يدري ما يفعل ولا ما يدع ، حتى جاءت الأخبار بأن خراسان تزعج الثورة ، وتنوى الزحف على مؤيد الدولة ومعه ابن العميد .

ويتبادر هنا سؤال : كيف رضى مؤيد الدولة لصاحبه ابن عباد هذا المصير ؟ وهل كان يرى أبا الفتح أجدر بمقام الوزارة وصناعة الكتابة من ابن عباد ، أو أقدر منه على تدبير الأمور في تلك الأيام القلقة المضطربة ؟

ان الذى يوثق به أن مؤيد الدولة أنفذ ما أمر به ابن العميد على كراهة منه ، وأنه لم يكن من الهين عليه أن ينأى عنه صفيه الذى قدره وعاشره واختبره ، فلم يجد فيه إلا ما زاده تعلقا به وحرصا عليه .

ولكن الأمر هنا كان أخطر من موجبات الصداقة ومستلزمات الوفاء .. ان الأمر هنا كان أمر دولة وتدبير ملك . وكان أبو الفتح ابن العميد امتداداً لسياسة هذه الدولة فقد جرب ودرّب ، وهو ابن أبي الفضل وزير ركن الدولة أبي مؤيد الدولة ومدير أمره ، فكان إبعاد مثله في تلك الظروف يمثل ثورة على نظام الدولة ، ويدل على تنكر لفضل العميد على أبيه وعميه ، وفضل أبي الفضل في خدمة أبيه ، وذلك بالإضافة لما يتعرّض له صفو الأمن اذا ما همّ بخلع أبي الفتح ، فقد كان ميل القواد والعساكر اليه ظاهراً للعيان ، بما كان يفيض به عليهم من العطايا والأموال ..

فلم يكن من اليسير أن يتسرع مؤيد الدولة في تنحية ابن العميد ، وتسليم زمام الدولة لأبي القاسم بن عباد ، في وقت

تحتاج فيه الدولة الى ضبط وتمكين ، لا الى اضافة سبب جديد للاضطراب ، وانتكاث جبل الأمن ، بخلع ابن العميد وتولية الصاحب مكانه . وحين وزر ابن العميد لمؤيد الدولة وخشى على نفسه من قرب الصاحب الى قلب مؤيد الدولة ، كان أول ما عمله اثاره الجند على الصاحب ، وبعثهم على الشغب ، حتى هموا بقتله ، بقتل الصاحب بن عباد ، ليرى القوم أن الجند في يديه أو أن القوة في يديه ينفذ بها ما يريد ، ويشيرها على من يحاول أن يبعده أو يلحق به أذى ، وقد أراد بذلك أن يعرض قوته ويجرب عضلاته ليرهب الطامعين .

وأيا ما كان الأمر فقد أنفذ الصاحب ما أمر به أبو الفتح ، وسار الى حيث أراد له من البعد في مكان سحيق ..



ومما لا شك فيه أن مؤيد الدولة وان تظاهر بالرضا ، وان قال لابن العميد كلمته المستجيبة « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » قد فارق الصاحب على كره منه ، وأنه كان يخفى في قلبه شراً يبينه لابن العميد اذا استقر الأمر وهدأت الأحوال وانتظمت شئون الدولة ، ولقد أسر مؤيد الدولة الى الصاحب قبل رحيله بنواياه ، وكشف عن مكنون سره للصاحب بن عباد ، واتفق معه على علامات واشارات لا يطمئن الا اليها ، ولا يصدق سواها . ومن ذلك ما نقله الوزير أبو سعد : سمعت الصاحب كافي الكفاة رحمه الله يذكر أمره ، فقال في أثناء كلامه : ان مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى أصبهان : ان ورد عليك كتاب بخطي . أو جاءك

أجل حجّابى وثقائى للاستدعاء فلا تبرح من أصفهان ، ولا تفارقها الى أن يجيئك فلان الركابى ، فانه ان اتجهت لى حيلة على هذا الرجل — ابن العميد — وأمكنى الله من القبض عليه بادرت به اليك ، وهو العلامة بينى وبينك » !!

وهذا حديث معقول من غير شك ، لأنه يفسّر لنا ما خفى علينا من موافقته على تنحية صاحب تنحية مؤقتة يعود بعدها الى ما يطمح اليه من آمال المنصب والجاه ، والدنو ممن يحبه ويصطفيه ..

ويتشكك الوزير أبو سعد فى هذه القصة فيقول : استعظمت لحدائثة سنى وغرة الصبا وقلة التجربة ما حكاها الصاحب من قول مؤيد الدولة « ان اتجهت لى حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه ، وأردت الغض من أبى الفتح ، والتقرب بذلك الى الصاحب ، فقلت : وكان لأبى الفتح من القدر أن يصعب حبسه ، أو يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فانتهرنى الصاحب وقال : « يا فلان ، أنت صبى تحسب أن القبض على الوزراء سهل » ؟ . ففطنت أنه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم أمرها ! ..

فلما طمعت خراسان فى الدولة بعد موت ركن الدولة استشار مؤيد الدولة وزيره أبا الفتح فى تدبير الجند والأموال للقائهم ، فكان جواب أبى الفتح : « ليس الرأى الى ولا اليك ، ولا الهى على ولا عليك ، ها هنا من يقول لك : أنت خليفتى ، ويقول لى أنت كاتب خليفتى ، وهو الذى يدبر هذا الأمر بالمال والرجال ، وهو الملك عضد الدولة أخوك » .. فأمره مؤيد الدولة أن

يكتب لأخيه عضد الدولة بهذا الرأي ، ولم يرض عضد الدولة على ما كتب أبو الفتح ، وكان في رده عليه « ان هذا الأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا وله ابن لم يحمل اليه من ارثه شيء .. ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده قد كسبه بجهد ، وجبعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بشئله ، ولئن استفتى الفقهاء في هذا لم يكن عندهم منه الا التعجب والاستطراف ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين : أحدهما انه حرم ماله بحق الارث ، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه .. !

فلما سمع مؤيد الدولة هذا قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال : قد قلت ، وليس لى قول سواه ، وهذا الرجل — يعنى عضد الدولة — هو الملك والمدبر ، والمال كله ماله ، والبلاد بلاده والجند جنده ، والكل له والاسم والجلالة عنده ..

وطال بينهما الكلام ، وكانت الحاجة الى المال ماسة لتجهيز الجيش .. ورأى مؤيد الدولة أن ينتهز الفرصة للقضاء على أبى الفتح ، وعمل على افساد الأمر بين ابن العميد وبين أقوى الناس في منطقته مالا ورجالا ، ليصيد عصفورين بحجر واحد ، القضاء على أبى الفتح ، وفل حد أنصاره الأقوياء .. وكان ذلك الرجل هو على بن كامة الذى كان كما يقول فيه مؤيد الدولة : صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون ، وييده بلاد ، وقد جمع هذا كله في دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا .. وطلب مؤيد الدولة أن يطلب أبو الفتح هذه الأموال قرضا من ابن كامة ، فاعتذر أبو الفتح عن ذلك لأن بينه وبين ابن كامة عهدا ، وأن

القرض الذى يستطيع أن يقدمه لا ينهض بالمطلوب وهو خمسمائة ألف دينار ، فطلب اليه أن يكتب بهذا رأى الى عضد الدولة ليرى رأيه . فقال ابن العميد : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر ! قال له مؤيد الدولة : يا هذا ، فأنت كاتبى وصاحب سرى والزماد فى جميع أمري ، ولا سبيل الى اخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله ..

فقال أبو الفتح : أيها الأمير ، لا تسمى الخيانة ، فاني قد أعطيته عهدا ، ومع اليوم غدا ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! فقال مؤيد الدولة : انى لست أسومك أن تقبض عليه أو أن تسيء اليه ، أشرب بهذا المعنى الى الملك عضد الدولة ، فان رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وان ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأينا .. وانما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدي أن تكتب حرفين : « انه لا وجه لهذا المال الا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ، ولا مطالبته به وفاء له بالعهد ، وثباتا على اليمين ، وجريا على الواجب » ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه شيء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل .. واستجاب أبو الفتح لما رأى مؤيد الدولة فكتب ما أراد على أن ينفذه مؤيد الدولة الى أخيه عضد الدولة بفارس ، فلما كتب ما كتب ، وجن عليه الليل ، أحضر ابن كامه ، وقال له : أما عندك حديث هذا المخنث فيما أشار به على الملك فى شأنك ، وأورد عليه فى حقك وأمرك ، واطماعه فى مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك ؟! فتردد ابن كامه طويلا فى تصديق هذا

الحديث الى أن استوثق من خط كتابة ابن العميد وقال : ما ظننت بعد الإيمان المغلظة التي بيننا أنه يستجيز مثل هذا .

فقال الأمير مؤيد الدولة : أيها الرجل ، انما أطلعك الملك على سرّ هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هي أكبر ، فانه هو الذي حرّك من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخينا بهمدان — يفي فخر الدولة — أخبارنا ، وهو عين لبختيارها هنا ، وقد اعتقد أنه يعمل في تحصيل هذه البلاد ، ويكون وزيراً بالعراق ، فقد ذاق من بغداد ما لا يخرج من نفسه الا بنزع ضرره ..

فقال علي بن كامة : فما الرأي الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك في القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أننا هجمنا على ناصحنا ، ومربّب نعمتنا ، ونأشئ دولتنا ، فمهدنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الأمر !

قال ابن كامة : فأنا أكفيكموه ، ثم قبض عليه ، بعد أن جذبه بيده من مكانه ، وكان قد كمن له في الممر جماعة من خواص الديلم وثقات مؤيد الدولة ، فعاونوه على اخراجه من البيت وادخله الى حجرة هناك وتقييده ، وذلك في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٦ هـ ، ثم سمل عينه الواحدة ، وقطع أنفه ، ثم حمل ابن العميد الى قلعة أستوناوند وقتل فيها بعد أيام وورد رأسه الى مؤيد الدولة ، واتقلع بيت العميد على يده كما ظنه أبوه أبو الفضل ..

لم يكن للصاحب بن عباد دخل في شيء من هذه الأحداث

كما رأينا ، فهو مظلوم من هذه الجهة ، وإن كان مؤيد الدولة
يجب صاحب من أعماق نفسه .

ولكن مؤيد الدولة لم يكن كل شيء ، ولم يكن صاحب
الكلمة ، وإنما صاحبها هو الملك ، والملك هنا هو عضد الدولة ،
ذلك أن ركن الدولة أبا على الحسن بن بويه في مشهد من
أولاده وقواده وأجناده كان قد عهد قبل أن يموت إلى ولده
(عضد الدولة) بالملك بعده ، وجعل لولده (فخر الدولة) همذان
وأعمال الجبل ، ولولده (مؤيد الدولة) أصبهان وأعمالهما ، على
أن يكون فخر الدولة ومؤيد الدولة تحت حكم أخيهما (عضد
الدولة) وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف ،
كان ذلك في أصبهان ثم رجع إلى الري فأقام بها إلى أن مات
سنة ٣٦٦ (١) هـ .

(١) الكامل لابن الأثير ٢٢٢/٨ .

الفصل الثالث

الصاحبُ الوزير

الصاحب الوزير

ولقد أحسن الصاحب وأخلص في خدمة مؤيد الدولة ، وحصل له عنده بقدّم الخدمة قدّم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافي الكفاة ، وولاه أموره وحكسه في أمواله ، فأبلى فيها أحسن بلاء ، وأقام فيها مقاما محمودا ، يقود الجيوش ، ويجهز الجنود ، ويصد الأعداء ، ويفتح القلاع . ويرفع المؤيد الدولة ودولته أعلام المجد في السياسة والحرب ، وفي ميدان العلم والأدب ، حتى اجتمعت بأبوابه من الساسة والعلماء والشعراء والفقهاء وطالبي الحاجات ما لا يحصى عددهم الا الله .



وقد استطاع الصاحب بكياسته وحسن سياسته أن يدعم الأخوة ، ويشيع الثقة بين عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة ، فعاشا ما عاشا على وفاق واتفاق على الوسائل والغايات في الوقت الذي فسدت فيه العلائق وانقطعت الأواصر بين فخر الدولة وأخويه ، ومن أدلة ما بذل الصاحب في توثيق عرا المحبة بين الأخوين أن عضد الدولة بعد أن حارب أخاه فخر الدولة وطارده ضم ما كان تحت يديه الى ما تحت يد مؤيد الدولة ، فوسّع بذلك رقعة ملكه وارتفع شأن مؤيد الدولة بذلك وعظم في نظر

أخيه ونظر الناس ، ورأى الصاحب أن يشخص بنفسه بأمر مؤيد الدولة مولاه لاطهار الطاعة ، فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالح في اكرامه ، وجعل أكابر رجال دولته وأصحابه يبالغون في تعظيم الصاحب فكانوا يذهبون اليه في مقره ، ولا يجشمونه الوصول اليهم . وقد كتب الصاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف له فيها ما لقيه من عضد الدولة ورجاله يقول فيها « أما انعام مولانا على عبده وصنيع يده ، واستقباله بنفسه ، والدنيا تسير بسيره ، وخذود النجم مع سنايك خيله ، وتلقيه اياه بوزراء بابه ، وأمراء أجناده ، وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام ، ومتحفين في اللقاء والسلام ، ثم رتبتي به في دخولي الى الدار المعمورة بالغز وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغ بى الى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابه المأمول من أطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب ، واستجلاسى بحضرته التى يقف بها القمران على النواصى والهام ، الى ضروب من الانعام أستعظم والله وصفها ، وان كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها » . وكان غرض عضد الدولة بهذا الاكرام وتلك الحفاوة استمالة مؤيد الدولة وتأييس الصاحب ..

وأرسل مؤيد الدولة عدة كتب يستظيل فيها مقام الصاحب ، ويذكر اضطراب أموره بعده ، فاستأذن الصاحب فى العودة الى الرى ، فأذن له عضد الدولة بعد أن خلع عليه الخلع الجليلة ، وحمله على فرس بمركب ذهب ، وأقطعه ضياعا جليلة من نواحي فارس ، وحمل الى مؤيد الدولة فى صحبته أظافا كثيرة ، وضم

اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عددا ليقوموا بخدمة
مؤيد الدولة ..

وفي سنة ٣٧١ طلب عضد الدولة من قابوس بن وشمكير أن
يسلمه أخاه فخر الدولة الذي كان قد التجأ اليه ، فأبى أن يسلمه ،
فجهز اليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة ، فسار الى جرجان ومعه
وزيره صاحب بن عباد ، فانهزم قابوس وفخر الدولة والتجأ الى
السامانية بخراسان ، واستولى مؤيد الدولة على طبرستان
وجرجان . وحصل صاحب في هذه الواقعة على الفيل الذي كان
في عسكر العدو ، وأمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه ،
فوصفوه بعدد من القصائد الجميلة العذبة .

وفي شوال سنة ٣٧٢ هـ توفي عضد الدولة ، واجتمع القواد
بعد وفاته على بيعته ابنه أبى كاليجار المرزبان الملقب (صمصام
الدولة) ، وكان بفارس اذ ذاك أخوه شيرزيل الملقب (شرف
الدولة) وبجرجان عمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه ..

وقد تآقت نفس مؤيد الدولة الى الاستيلاء على بغداد وضم
مملكة عضد الدولة الى ولايته وأعماله ، لولا ما أصابه من العلة
واشتداد وطأة المرض عليه في سنة ٣٧٣ هـ عليه وهو في جرجان ..
ولما أحسّ صاحب بدنو أجل مؤيد الدولة دخل عليه وقال
له : « لو عهد أمير الأمراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند
الى أن يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان
ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه » ..

فقال له مؤيد الدولة : « أنا في شغل عن هذا ، وما للملك

قدر مع انتهاء الانسان الى مثل ما أنا فيه ، فافعلوا ما بدا لكم حتى
أشفي » !

فقال له الصاحب : « تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ
من هذه الأموال التي لست على ثقة من طيبتها ، وحصولها من
حلها . واعتقد متى أقامك الله وعافاك صرفها في وجوهها ، ورد
كل ظلامة تعرفها وتقدر على ردها » ..

ففعل مؤيد الدولة ذلك ، وتلطف به ، حتى أدركته منيته في
شعبان سنة ٣٧٣ هـ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة .

الصاحب وفخر الدولة

ولما توفي (مؤيد الدولة) أبو منصور بويه بن ركن الدولة
بجرجان ، أقيم العزاء في كل النواحي والأعمال التي تتولاها
الأسرة البويهية ، وفي قاعدة الخلافة في بغداد جلس صمصام الدولة
(أبو كاليبجار المرزبان بن عضد الدولة) ابن أخى مؤيد الدولة ،
وكان يحكم العراق ، (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) ، جلس ببغداد للعزاء ،
وتوافد عليه أعيان الدولة وقوادها معزين ، وفي مقدمتهم الخليفة
العباسي (الطائع لله) .

* * *

ولما مات مؤيد الدولة تشاور أكابر دولته فيمن يقوم مقامه ،
فأشار الصاحب اسماعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة الى مملكته ،

اذ هو كبير البيت ، ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ، ولما فيه من آيات الامارة والملك .

فكتب اليه صاحب واستدعاه وهو بنيسابور ، وأرسل اليه صاحب واستخلفه ، وصرف الأمور أحسن تصريف ، فقد أقام خسرو فيروز بن ركن الدولة مقامه ، حتى تهدأ الأحوال ، ويسكن الناس الى أن يقدم فخر الدولة .

فلما وصلت الأخبار الى فخر الدولة سار الى جرجان ، فلقية العسكر بالطاعة ، وتسلم زمام الملك في رمضان سنة ٣٧٣ هـ بغير منة لأحد .

ولما عاد فخر الدولة الى مملكته تقدم اليه صاحب بن عباد قائلاً : « يا مولانا ، قد بلغتك الله ، وبلغني فيك ما أمّلته ، ومن حقوق خدمتي لك اجابتي الى ترك الجندية ، وملازمة دارى ، والتوفر على أمر الله » ..

فقال فخر الدولة : « لا تقل هذا ، فما أريد الملك الا لك ، ولا يستقيم لى أمر الا بك ، واذا كرهت ملابسة الأمور كرهتها أنا أيضا وانصرفت » !

فقبل صاحب الأرض بين يديه ، وقال : « الأمر لك » . فاستوزره فخر الدولة وأكرمه وعظمه ، وصدر عن رأيه في جليل الأمور وصغيرها .

وفي الوقت نفسه عمل صاحب على التقريب بين حكام بغداد وفخر الدولة ، فسيرت الخلع من الخليفة الى فخر الدولة والعهد ،

واتفق فخر الدولة وابن أخيه صمصام الدولة فصارا يداً واحدة (١) ..

وقد سطع نجم صاحب في أيام فخر الدولة ، فقد استوثقت بينهما حبال المودة والتقدير ، وأحسن كل منهما أن الآخر مكمل له ، متمم لمجده ، هذا في الإمارة ، وذلك في الوزارة ، وكان صاحب ينتهز المناسبات لإبراز عواطفه نحو فخر الدولة ، ومن ذلك أنه أهدي إلى فخر الدولة يوم أول المحرم ٣٧٨ هـ ديناراً وزنه ألف مثقال ، وكان مكتوباً على أحد جانبيه من شعر صاحب :

وأحمر يحكى الشمس شكلاً وصورة
فأوصافه مشتقة من صفاته
فإن قيل دينار فقد صدق اسمه
وإن قيل ألف كان بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله
ولا ضربت أضرابه لسمراته
فقد أبرزته دولة فلكية (٢)
أقام بها الأقبال صدر قناته
وصار إلى شاهانشاه انتسابه
على أنه مستصغر لعفاته

(١) الكامل لابن الأثير ٩/٩٠

(٢) يعنى بقوله « دولة فلكية » أن فخر الدولة كان يلقب « فلك الأمة » .

يخبر أن يبقى سـسـنين كوزنه
لتستبشر الدنيا بطول حياته
تأنق فيه عبده وابن عبده
وغرس أياديه وكافى كفـساته

وكان مكتوباً على الجانب الآخر سورة الاخلاص ، ولقب
الخليفة الطائع لله ، ولقب فخر الدولة ، واسم جرجان ، لأنه
ضرب بها .

وكان على فخر الدولة أن يعرف دائماً فضل الصاحب عليه ،
ويتذكر ما أسدى اليه الصاحب بما مهد له من الملك ، وما وطأ له
من الأمور . اذا ذكرنا موقف فخر الدولة قبل ذلك ، وموقف
أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة من مطاردته وأخذ ما كان
بيديه ، فقد عهد ركن الدولة — كما أشرنا من قبل — قبل وفاته
بالمملك بعده الى ولده عضد الدولة فناخسرو ، وجعل لولده
« فخر الدولة أبى الحسن على » همدان وأعمال الجبل ، ولولده
مؤيد الدولة أصبهان والرى وأعمالهما . ولكن فخر الدولة كان
مداجياً لأخويه ، وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ، ودعاه
الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك ، فعلم عضد
الدولة به ، فحاربه واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ هـ ، وأضافها الى
أخيه مؤيد الدولة صاحب أصبهان والرى وأعمالهما ، فهرب
فخر الدولة الى جرجان ، والتجأ الى شمس المعالى قابوس بن
وشمكير فأمنه وآواه .

ولذلك كان حرص فخر الدولة على الصاحب وابقاؤه في

الوزارة هو الجزاء الواجب ، والمكافأة الطبيعية على صنيعه فيه ، وكان على صاحب ألا يفرض نفسه على المنصب بحجة أنه صاحبه وأن له يداً في تعيين صاحب الرأي فيه ، فنصرف كما تمليه اللباقة ، وما يوجبه الأدب العالي الذي كان جديراً به ، فأظهر رغبته في التنحي ليتأكد من منزلته عند صاحبه ، ويقول يا قوت ان صاحب أراد اختبار فخر الدولة ، هل في نفسه عليه شيء مما كان في أيام مؤيد الدولة مما أوجب هرب فخر الدولة ، فاستعفاه صاحب من الخدمة والوزارة ، فقال له فخر الدولة : « لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة ، فسيل كل منا أن يحتفظ بحقه » ! ، ولم يعفه .

ولم يزل على أمره معه الى أن مات صاحب ، والأمور تصدر عن أمره ، والملك يدبر برأيه ، وكان اذا قال فخر الدولة قولاً وقال صاحب قولاً امثله قول صاحب ، وترك قول فخر الدولة (١) .

الصاحب في بغداد

زار الصاحب بغداد في سنة ٣٤٧ هـ ، فقد ورد اليها الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة ، ليخطب لنفسه ابنة عمه معز الدولة ، وكان مع أبي منصور في هذه الرحلة الى قاعدة الخلافة وزيره أبو علي بن أبي الفضل القاشاني ، وكاتبه أبو القاسم

(١) معجم الادباء ١٧٤/٦ .

اسماعيل بن عباد ، ويقول مسكويه في كتابه « تجارب الأمم » انه لما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٣٤٧ هـ زفت بنت معز الدولة الى أبى منصور بويه ، ثم حملها الى أصبهان ..

وقد جن جنون الصاحب بدار السلام ، والحياة العلمية والأدبية المزدهرة فيها ، حتى أنه لما رجع عنها دخل على أستاذه أبى الفضل بن العميد ، فسأله : كيف وجدت بغداد ؟ فكان جواب الصاحب : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، وأنشد :

أفاضل الدنيا وان برزوا لم يبلغوا غاية أستاذها
أما ترى أمصارها جمة ولا ترى مصر كبغدادها
ففى هذه الزيارة لقي الوزير المهلبى وسمى معه ووصف مجالسه كما مر لأبى الفضل بن العميد ، ومما حدث له فى هذه الزيارة فى بغداد من الطرائف ، وما يدل على اعتداد الصاحب بنفسه ، وحرصه على توفيقه حقه من الاعظام والتقدير ، أنه لما دخل بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه ، فتناقل أبو السائب فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ الصاحب بضبعه (١) وأقامه ، وقال : « نعين القاضى على قضاء حقوق اخوانه » ! فخجل أبو السائب ، واعتذر اليه ..

وزار فى هذه الزورة أبا سعيد السيرافى الذى كان كما يقول الصاحب : شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر

(١) الضبع العضد .

الحظ من علوم الأوائل ، وقد جرت بينهما محاورات علمية تدل على علم الصاحب وحذقه ، ورآه بعد ذلك غزيرا فاضلا متوسعا علما ، فعلق عليه ، وأخذ عنه ، وحصل تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأ صدرا عنه . ورأى الصاحب هناك أبا بكر بن مقسم الذى ليس فى أصحاب ثعلب أكثر دراية ولا أصح رواية منه ، وسمع الصاحب مجالسه وما فيها من غرائب ونكت ومحاسن وطرف من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة ، وتفسير بيت مشكل ، وحل معقد معضل . وكذلك رأى الصاحب فى بغداد القاضى أبا بكر ابن كامل الذى وصفه بأنه بقية الدنيا فى علوم شتى يعرف الفقه والشروط والحديث ، ويتوسع فى النحو توسعا مستحسنا ، وله فى حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفى جودة التصنيف قوة تامة . وكان الصاحب يحب أن يسمع كلام أهل النظر ^(١) بالعراق لما تتابع فى حقهم من الأوصاف ، وذكر أبا زكريا يحيى بن عدى وغيره ..

وكل هذا يدل على علو همة الصاحب ، فهو قد دخل بغداد لحاجة فى صحبة الأمير ، فلم يكتف حتى حضر مجالس مشاهير العلماء وأخذ عنهم ، وأفادهم واستفاد منهم ، وزار الوزراء والقضاة ، وحضر مجالس أهل النظر ، ومجالس الصوفية .. ولما عاد الصاحب من بغداد أخذ معه أبا الحسن البديهي الى

(١) يعنى به الفلاسفة وعلماء الكلام .

أصبهان . وكان من جملة العلماء الذين استدعاهم الى الري قاضي
القضاة عبد الجبار الباقلاني المعتزلي (١) .

ثم غادر صاحب بغداد وفي قلبه حنين عجيب اليها ، وكأنه
كان يرى أن موضعه الطبيعي هناك في موطن الخلافة ، رأسا
لدواوينها ، وواسطة عقد أعلامها من علماء الأرض وشعرائها
وأدبائها وفلاسفتها وحكمائها ..

بل لقد صرح صاحب بهذا الأمل الذي يراوده ، فقد روى
هلال بن المحسن أنه سمع محدثا يحدث أبا اسحاق أنه سمع
الصاحب يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى الا أن أملك
العراق ، وأتصدر (٢) ببغداد ، وأستكتب أبا اسحاق الصابى ،
ويكتب عنى ، وأغيّر عليه » (٣) ..

وقد التقى أمل الوزير صاحب بأمل أميره مؤيد الدولة بعد
وفاة عضد الدولة ، وقد عرف المتصلون بالصاحب أمله وما تتطلع
اليه نفسه من بلوغ بغداد حتى قال أبو القاسم الزعفرانى يردد
هذا الأمل فى قصيدة من مدحه للصاحب :

قسما لا مدحت بعد ابن عبا د منيل الشباب والتخليد
لا لقيت الزمان الا بوجه ماؤه لا يجول فى جلمود
ويد ما حسرت ردى عنها فهى سيف يسان عن تجريد

(١) أعيان الشيعة ٣٧٧/١١ .

(٢) يقال تصدر الرجل اذا تقدم غيره ، وجلس فى أرفع مكان
من المجلس .

(٣) معجم الادباء ٦/٦٠٣ .

أجمع الناس أنه أفضل الناس س اضطرارا أغنى عن التقليد
 فلهذا أعد قربي منه نعمة ليس فوقها من مزيد
 لا ذكرت العراق ما عشت إلا أن أراه يؤمه في الجنود
 ومن قول أبي عيسى المنجم يصف الدار التي بناها الصاحب
 في أصبهان ، ويذكر بغداد وسر من رأى ، وكأنه يسلى الصاحب
 عن آماله ، فيصور هذه وتلك وكأنهما تشتهيان أن تكونا مثل
 أصبهان ، تسعدان بوزيرها الصاحب بن عباد :

هي الدار قد عم الممالك نورها
 ولو قدرت (بغداد) كانت تزورها
 ولو خبرت دار الخلافة بادرت
 إليها وفيها تاجها وسريها
 ولو قد تبقت (سر من را) بحالها
 لساار إليها دورها وقصورها
 لتسعد فيها يوم حان حضورها
 وتشهد دنيا لا يخاف غرورها

وفي المناسبة نفسها يقول الشيخ أبو الحسن صاحب البريد ،
 وهو ابن عمه الصاحب ، ويفضله على وزراء الملك قاطبة بما فيهم
 وزراء بغداد (١) :

وهذه وزراء الأرض قاطبة يبادق ، لم تزل ما بيننا شaha
 فأنت أرفعها مجدا وأسعدها جدّا وأجودها كفاً وأكفاهها
 وأنت أدبها بل أنت أكتبها وأنت سيدها بل أنت مولاها

(١) راجع يتيمة الدهر ٢٠٣ من الجزء الثالث وما بعدها .

فقد كان الصاحب يرى أن تمام مجده أن يكون حيث يكون
رأسا ، وأن يكون كبيرا للوزراء واماما للكتاب في حاضرة الدولة ،
وكان يحن الى هذا الأمل ويغرى به الأمراء الذين يعمل لهم ،
أغرى به مؤيد الدولة بعد وفاة عضد الدولة ، وكاد مؤيد الدولة
يقود الجيوش لاستخلاص العراق ، وحكم سائر البلاد من بغداد ،
لولا أن بادره المرض وعاجلته منيته كما قدمنا ، فكان الصاحب
على طول الأيام يحب بغداد ، ويشتهي الرياسة فيها ، ويرصد
أوقات الفرصة لبلوغ ما يشتهي ، ثم زين الأمر من بعده لخلفه
فخر الدولة ، الذي شجعه على فتح العراق دون أن يظهر ميله الى
هذا الفتح أو يصرح به ، ولكنه جعل أمام فخر الدولة من يعظم
في عينيه العراق ، ويسهل عليه فتحها ، وظل الصاحب بعيدا عن
هذا الأمر ، وكأنه لا يعلم عنه شيئا ، أو كأن ذلك أمر لا يعنيه
من قريب أو بعيد ، لأنه كان يخشى الاخفاق وسوء العاقبة ،
ولم يعرف عنه فيما قبل الا الرأي الموفق والتدبير الصائب وما زال
أعوانه يوحون الى فخر الدولة بما أراد الى أن استشاره
فخر الدولة : ما الذى عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟

فقال الصاحب : الأمر لشاهنشاه « ملك الملوك » ، وما يذكر
من جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به ، وسعادته غالبية ، فاذا
هم بأمر خدمته فيه ، وبلغته أقصى مراميه !

فعزم فخر الدولة حينئذ على قصد العراق ، وسار الى
همدان ، واستقر العزم على أن يسير الصاحب ومعه بدر بن

حسنويه على طريق الجادة ، ويسير فخر الدولة ومعه بقية العسكر
على طريق الأهواز .

فلما سار صاحب قال قائل لفخر الدولة انه من الغلط أن
تفارق صاحب ، لأنك لا تأمن أن يتصل بأبناء عضد الدولة ، وأن
يستميلوه فيميل اليهم ..

وكان أن استدعاه من الطريق اليه ، وأمره أن يغير طريقه ،
ويذهب الى الأهواز ، فسمع صاحب وأطاع ، فسبقه اليها ،
وتم له الاستيلاء عليها ، ولحق به فخر الدولة بعد عشرين يوما ،
ولكنه أساء السيرة مع جندها ، وضيق عليهم النفقة ولم يبذل
المال ، فتخاذل الجند .. ولم يكن من صاحب الا أن أمسك
نفسه تأثرا بما قيل عن اتهامه ، والتوجس من استمالة أولاد
عضد الدولة .

فلما سمع بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة بوصول
فخر الدولة وجيشه الى الأهواز سائر اليهم عساكره ، والتقوا هم
وعساكر فخر الدولة ، وتصادف طغيان فيضان ماء نهر دجلة ،
حتى خاف جند فخر الدولة ، وظنوها مكيدة دبرت لهم ، وقال
بعضهم لبعض : « اما حملنا صاحب الى هذه البلاد طلبا
لهلاكنا » ، فانهزموا ، وخاف فخر الدولة على نفسه ، وخشى
أن يمتد التمرد الى جنود مملكته ، وكان مستبدا .. ولكنه اضطر
أن يرجع الى صاحب ليشير عليه بما يرى للخلاص من هذا
المأزق . فأشار صاحب ببذل المال واستصلاح الجند ، وقال له :
ان رأى في مثل هذه الأوقات اخراج المال ، وترك مضايقة الجند ،

فإن أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنة واحدة
فلم ينفذ فخر الدولة ما أشار عليه به وزيره صاحب ، فاختلف
عليه كثير من عسكر الأهواز ، واتسع الخرق عليه ، وضائق
الأمور ، فعاد الى الري مخذولا ، وعادت الأهواز الى صاحبها
بهاء الدولة بن عضد الدولة !

وهكذا لم تتحقق آمال صاحب في العراق ، واعتلاء كرسى
الوزارة في بغداد ، فعاد حزينا على ما فاتته ، وهاك قصيدة من
شعره الى أبى العلاء السروى يذكر فيها هذا الأمل الذى كان
يداعب جفنيه ، ثم ولى عنه هاربا ، ويذكر عزمه على زيارة
أصفهان :

أبا العلاء ألا أبشر بمقصدنا
فقد وردنا على المهرية القود (١)
هذا وكان بعيدا أن أراجعكم
على التعاقب بين البيض والستود
من بعد ما قربت بغداد تطلبنى
واستجرتنى بالأهواز موعودى
وراسملتني بأن بادر لتملكنى
ويجرى الماء ماء الجود فى العود

(١) المهرية : الأبل المنسوبة الى مهرة بن حيدان ، والقود الطويلة
الظهور والأعناق جمع أقود .

فقلت هيئات من «جى» (١) وساكنها
ولو رددت شبابى خير مردود
فان فيها أودائي ومعتسدى
وقربها خير مطلوب ومنشود
ألست أشهد اخوانى ورؤيتهم
تفى بملك سليمان بن داود

* * *

وكان الصاحب فى كل ما يصدر عنه أمينا على الدولة وفيما لأصحابها ، لا يعمل الا ما يرى فيه صلاحا لأحوالها ، وانتظاما لأمرها ، وكان فى الوقت نفسه يرعى حق ربّه ، ويرضى ضميره ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يبيع دنياه بأخرته ، وكان رفيقا بالناس يتحاشى ظلمهم ، ويعف عن أموالهم ، وبهذا عظم الصاحب فى نظر بنى بويه ، فهابوه وأجلّوه ، وصانوا كرامته طول حياته ، فلم يردوا له أمرا ، ولم يفسدوا عليه قولا ، بل كانوا يسرعون الى انفاذ ما يشير به . وقد رأينا ما نصح به لمؤيد الدولة قبل وفاته من تطهير أمواله ، وردّ المظالم حتى يلقي ربّه راضيا مرضيا . ومن ذلك ما رواه المافروخى فى كتابه « محاسن أصفهان » فى قوله : انتهى إلينا أنه رفع انسان الى فخر الدولة رقعة يتعهد فيها أنه يستوفى على المستغلات والأملك بأصفهان خارجا عن المعاملات والحقوق ٣٠٠٠٠٠ درهم يحصلها فى خزانة

(١) جى بالفتح ثم التشديد اسم مدينة أصفهان القديم ، وهى الآن منفردة كالخراب ، وتسمى عند العجم شهرستان .

فخر الدولة ، وكان فخر الدولة في ذلك الوقت محتاجا الى الأموال ، لأنه كان يريد النهوض لمحاربة عساكر خراسان وفتح جرجان ، فوقع ذلك في روعه ، فلما دخل عليه الصاحب فأوله القصة ، وقال : يا أبا القاسم تدبر أمر هذا الرجل وقرره ، فبنا الى مثل هذا المال مساس حاجة . فقال الصاحب : سمعا وطاعة لأمر شاهنشاه ، ثم انكفأ عن مجلسه الى غيره ، واستحضر الرجل ، وقال له : أنت صاحب هذه القصة والضامن استخراج هذا المال من الوجوه المذكورة ؟ قال الرجل : نعم ، أيّد الله الصاحب ! فسلمه الصاحب الى الحسين بن توراب أستاذ الدار ، وأمره بالاحتفاظ به الى الغد ؛ ليفصل في أمره . وأخذ خطوط المتفقهين والقضاة والمعدلين بانزال أشد العقاب بالساعى .

وركب من الغد الى مجلس فخر الدولة ، وقال له : على تحصيل هذا المال من وجهه من غير أن يتوجه الى الرعية فيه عنت ؛ أو ينالهم مكروه . وأتبع ذلك من المواعظ والنصائح بما استنزله عن رأيه ، وعاقب الساعى ، وطلب ذلك المال من عشرة رجال مياسير ، لم يؤثر فيهم تأثيرا كثيرا .

هذا هو الصاحب الوزير العف الرقيق بالرعية ، الذى لم يعرف عنه أكل حرام ، وإنما عاش حياته — كما كان يقول — يأكل من حين نشأ الى يومه من أموال أبيه وجده مما ورثه عنهم (١) ..

وآيات وفاء الصاحب لآل بويه أكثر من أن تحصى ، ولكنا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١ .

نذكر منها أن الملك نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان ، كان يتمنى أن يكون صاحب وزيراً له ، فأرسل إليه سرّاً يمينه ويستدعيه الى حضرته ، ويرغبه في خدمته ، وبذل البذل السنية ، فكان من جملة اعتذار صاحب قوله « كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى ؟ ثم كيف لى بحمل أموالى مع كثرة أثقالى ؟ وعندى من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمئة جمل أو أكثر ؟ » .

قال أبو الحسن البیهقي : بيت الكتب الذى بالرى دليل على ذلك (١) بعد ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فانى طالعت هذا البيت ، فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات ؛ فان السلطان محموداً لما ورد الى الرى قيل له ان هذه الكتب كنب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كل ما كان فى علم الكلام ، وأمر بحرقه (٢) .

لقد وزر ابن عباد لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدولة فبقى فى وزارتهما ثمانى عشرة سنة وشهوراً ، وفتح خمسين قلعة سلّمها الى فخر الدولة ، لم يجتمع عشر منها — كما يقول ياقوت — لأبيه ولا لأخيه (٣) ..

* * *

وقد عاش صاحب مع بنى بويه مبجلاً مقدّراً ، معترفاً له

(١) أى صحة قول صاحب ان كتب العلم عنده وحدها

(٢) معجم الأدباء ٦/ ٢٥٠ .

(٣) المصدر السابق : صفحة ٢٥١ .

بالفضل ، نافذ رأى ، صادق المشورة ، ولقد ارتفع به شأنهم ،
كما سطع نجمه في أيامهم ، حتى لتكاد شهرته تفوق شهرة أكثرهم ،
ولم يكن ذلك الا لما وهبه الله من جودة القريحة ، وصفاء السريرة ..
ولقد بذل لبنى بويه من عقله وأدبه ، كما بذل في سبيلهم من
أعصابه ودمه ، ولقد عوقته خدمته لهم ، وتقانيه في تثبيت ملكهم ،
عن متابعة لذته الكبرى في تحصيل العلم ، واقتطاف ثمار الأدب ،
بين جماعات العلماء الذين كان يحبهم ، والأدباء الذين كان
يجالسهم ، حتى شاخ قبل الألوان ، وها هو ذا يفضى بحاله الى
واحد من أصحاب ودّه القديم يذكر حسرته على أيامه الفائتة
ومجالسه العامرة الزاخرة ، وسمره الممتع في طاقته من أهل العلم ،
وأغصان دولة الأدب ، فيكتب الى أبى العلاء الأسدى عن شئونه
وشجونه :

يقر بعينى أن يلمّ رسولها
ببأبى ويهدى بالعشى سلامها
ويذكر لى دون الرجال حديثها
وينشر عندى نطقها وكلامها

« ورد يا شيخى — أطل الله بقاءك — رسولك بكتاب سبق
الأفكار والظنون ، وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين
بين قاصر ومقصر ، ومثل ليالينا بين اللوى ومحجر^(١) بكلام
كالورق النضير تتأوّه منه الفصون ، وكالنّور المنير أفنائه
فنون ، فصادفنى حليفا للشوق أو رهينا ، وحنينا على الحنين وساء

(١) اللوى ومحجر : مرضعان .

قرينا ، وكيف لا ، وقد ألفنا القرب حولا ، حولنا رياض الأدب
ترفّ ، ودوننا رواحل الفضل ترفّ ، نملك رقاب المنطق ، وتتنازع
أطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالى تناشدا وتذاكرا ، وتحادثا
وتسامرا الى أن يخلع الظلام ثيابه ، ويحدر ^(١) المصباح نقابه .

« هذا دأبنا كان الى أن جاوزنا الشباب مراحل ، ووردنا من
المشييب مناهل . ثم حان الفراق ، فنحن حتى اليوم منه فى جو كدر ،
ونجم منكدر ، يقبضنا عن الموارد العذاب ، ويعرضنا على
لواعج ^(٢) العذاب . والله نسأل اعادة هاتيك الأحوال ، وتلك
الأيام الخضراء الظلال . وان كان الله قد زادنا بعدك مناجح
ومنائح ^(٣) ، وأيادى غوادى وروائح ، حتى فتحننا الفتوح ،
وذللنا الصروح ، ورتقنا الفتوق ، ونسخنا القرون ، وأثرنا ^(٤)
الآثار ، ووطئنا الرقاب ، وطلبنا الثأر ، واصطنعنا الصنائع ، وجعلنا
ودائع النعم قطائع ، وعقدنا فى أعناق الأحرار مننا ، أحسبها من
سبل الاحسان سننا ، انا قد تحملنا مشاق مالت على القوة بالضعف
وتحاملت على الأشر ^(٥) بالوهن ، ودفعت الى معالجة خطوب ،
تعجب الدهر من صبرنا عليها فحار ، وجبن الزمان عند شجاعتنا
لها فخار .

(١) حدر الشيء حطه من أعلى الى أسفل ، والمراد يسدل .

(٢) لواعج ، مفردها لاعج ، أى محرق .

(٣) المنائج العطايا .

(٤) اثرنا الآثار : تركنا فيها اثرا .

(٥) الأشر المرح والبطر .

وها أنا أحوج ما كنت الى أن أرفّه ولا أستكره ، وقد رميت
يسهم الأربعين ، وأرميت (١) على شرف الخمسين ، مدفوع
الأشغال والأثقال ؛ الى متاعب ومصاعب لو منى بها ابن ثلاثين
قويا أزره (٢) ، طريا جرضه (٣) لقام عجزه وقعدت به نفسه ،
وأظننى قديما قلت :

وقائلة : لم عرتك الهموم

وأمرك ممثّل في الأمم

فقلت : دعيني وما قد عـرا

فان الهموم بقدر الهمم

وما أنا على الراحة آسف ، بل على ألا أكون مشغولا بأخرى
أمهد لها وأكدح ، وأدأب لنفسي وأنصح .

اللهم وفق وقدر ، وسهل ويسر ، انك على ما تشاء قدير .
وهذه الرسالة وان بدا فيها حب العمل والرغبة فيه ، ومواصلة
الكفاح في أمجاد يبنيا للدولة ، فهي تتضمن في الحقيقة مشاعر
جندي لا يستطيع أن يفرّ من ميدان القتال ، ولا سيما اذا كان
ذلك الجندي هو المسئول الأول عنها ، والقائد الذي فرضت عليه
الأقدار قيادتها ، وهو يشعر بثقل الحمل على كاهله ، ألا تراه
يقول « رميت بسهم الأربعين ، وأرميت على شرف الخمسين ،
مدفوع الأشغال والأثقال الى متاعب ومصاعب ، لو منى بها ابن

(١) أرميت : زدت .

(٢) الأزر القوة .

(٣) الجرض : الريق يبتلع بجهد ، ولكنه اذا كان طريا سهل .

ثلاثين قويا لقيام عجزه ، وقعدت به نفسه » ؟ ولكن الهموم
كما يقول على قدر الهمم ! . ثم ترك تلك الحسرة الظاهرة على
سعادته بالعلم والأدب والمناظرة والمحاورة التي فقدتها ارضاء
لملوكة « وكيف لا ، وقد ألفنا القرب حولا ، حولنا رياض الأدب
ترف ، ودوننا رواحل الفضل ترف ، نملك رقاب المنطق ،
وتتنازع أطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالي تناشدا وتذاكرا ،
وتحادثا وتسامرا ، الى أن يخلع الظلام ثيابه » ؟

ولكن بهذا الصبر والثبات استطاع صاحب أن يضم الى
فضل العلم والأدب فضل السيف والجهاد ، وكان بحق « كافي
الكفاة » الذي كان يصول بسيفه كما كان يصول بفكره وفنه !

الصاحب وحكام الزمان

وقد علت منزلة الصاحب في عيون الحكام وفي قلوبهم ،
وتوثقت صلته بمعاصريه من الأمراء والوزراء والكتاب في زمن
غلت فيه مراجل التحاسد والبغضاء ، وازدادت فيه الأطماع التي
أخذت تحطم أواصر الصلات ، وتهدم صروح الصداقات ، ولكن
ما طبع عليه الصاحب من الوقار واحترام النفس ، وما متع به
من حسن التدبير والتفوق العلمي والأدب ، جعل صلته بأولئك
الحكام والوزراء صلة ودية واكبار .

ولقد كسب الصاحب احترام رجال البيت البويهى وثقتهم
في سائر ممالكهم وأوطانهم وعلى الرغم مما كان بينهم من

التنافس ، وما كان يقع بين بعضهم من التقاطع ، وكان احترام البويهيين له احتراما موروثا ، فقد كان آباؤهم يحترمون أباه عبادا الذى كان يلقب «الأمين» والذى كان ديتنا خيرا مقدما فى صناعة الكتابة ، والذى تولى الوزارة لركن الدولة بن بويه ، والذى كان أستاذا للوزير أبى الفضل بن العميد . ثم احترام مكسوب كسبه صاحب بعقله وخلقه وحسن تديره .

أما الثلاثة من أبناء ركن الدولة عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، فقد عظم قدر صاحب فى نفوسهم الى درجة كبيرة ، وقد زار صاحب همدان وزار عضد الدولة سنة تسع وستين وثلثمائة ، فلقى منه كل ترحيب واجلال كما قدمنا ، وقد أشار صاحب الى أثر هذه الزيارة فى قوله « ولقد أودعت صدر عضد الدولة ما يطيل التفاته الىّ ، ويكثر حسرته علىّ ، ولقد رأى منى مالم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله الذى أوفدنى عليه على ما يسر الوليّ ، وأصدرنى عنه على ما يسوء العدو » وفى كتاب محاسن أصفهان لمحمد بن سعد المافروخى عند كلامه عن صاحب « كان والله الفاضل المميز ، والكامل المبرز ، ثالث الثلاثة الذين نافس عضد الدولة فيهم أخاه مؤيد الدولة ، وحسده عليهم ، وهو أن العضد كان كثيرا ما يقول قولا معناه : قد حببت بغايات الأمالى ، وأوتيت أقصى المبالغى ، فلا أحسد ملكا من الملوك على شىء غير أخى — مؤيد الدولة — على أبى القاسم الثلاثة : أبى القاسم اسماعيل بن عباد ، وأبى القاسم

فضل بن سهل ، وأبى القاسم بن جعفر المعروف باليزدى . وكان كل واحد منهم فى فنه نسيج وحده ، وقريع زمانه ، منيفا على أهل صناعته وأقرانه ، وقول البحترى :

ثلاثة جلة ان شووروا نصـحوا

أو استعينوا كفوا أو سلطوا عدلوا

يوهم أنه لم يمدح به غيرهم .

وفى هذه الأمنية أو فى هذا الحسد ما يشعر بمنزلة صاحب فى نفس عضد الدولة ، أما منزلته عند مخدميه مؤيد الدولة وفخر الدولة فكانت أقوى ، ولل كلام فيها بيان فى غير هذا الموضع . وقد تجاوز الاعتراف بالصاحب تلك الدائرة المحدودة دائرة أسرة بنى بويه الى الملوك والحكام المجاورين ، بل الى الذين كانوا ينقمون على بنى بويه كالسامانيين فى بخارى الذين كاتبوا الصاحب سرًا ليصل اليهم ويسلموه زمام الحكم فى بلادهم لما عرفوا فيه من الحكمة والفضل ، ولكنه أبى ، وقد أشرنا الى ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، وكانت كذلك صلته بحاجبه حسام الدولة أبى العباس تاش ، ودليل هذه الصلة القوية والثقة المتبادلة كتاب الصاحب اليه فى أمر العناية بالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ..

* * *

وكذلك قويت صلته بسائر الوزراء والكتاب ، وكأنه كان يحسن بما يدفعه اليه قلبه من البرّ بهم ، وتوثيق عرا الألفة بينهم ، لا تتسابهم الى فنه ، وكأنهم كانوا يحسون بزعامته لهم ،

ويجدون في قوته تمكينا لهم ، ومنهم أبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف الذي وصفه الثعالبي بأنه أحد صدور المشرق وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، الحسان الآثار والأخبار ، وأعيان الممدحين المقدمين في الآداب والكتابة ، والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه وأخص ندمائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده (١) ، وعلامة هذا الحب للصاحب ، والثقة المتبادلة بينهما كتابه اليه بعد مفارقتة حضرته « كتابي أدام الله عزّ مولانا وحالي — فيما أعاينه من تمثيل حضرته ، وتذكر خدمته ، والمواقف التي سعلت فيها برؤيته ، وأفدت من مشاهدته حظها ، ومقابلة نعم الله عليه ، وعلى الأدب وحزبه ، والكرم وأهله فيه — حال امرئ هبّ وقد أوردته الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلهف تذكرا ، ويتلذذ تحيرا ، ويناجي النفس تأملا ، ويراقب المنى تعللا . وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها ، وأسأله قرب الادالة (٢) ، والعقبى السارة » .. وينشئ قصيدة في الصاحب منها هذه الأبيات :

يجاذب نحو الصاحب الشوق مقودى
وقد جاذبتني عنه أيدي الشواذب (٣)
سقى الله ذاك العهد عهدا من الحيا
وتلك السجايا الغرّ غرّ السحائب

(١) يتيمة الدهر ٣١٢/٢ . (٢) الادالة : الغلبة والنصر .

(٣) الشواذب : المفرقات المبعدات عن الأوطان .

وقد لحظت عيناى من شخصك العلا
 ومن فرعك الفينان أعلى المناسب
 ومن لفظك الدر المصون ومن حيا
 محياك مالم تجسره كف خاطب
 وأخلاقك الغرّ التي لو تجسّمت
 لكنت نجوما للنجوم الثواقب
 ففاضت على خدى سوابق عبّرة
 كما أسلمت عقدا أنامل كاعب
 سلام على تلك المكارم والعلا
 تحية خيل عن جنابك غائب
 وما أنا بالناسى صنائعك التي
 كتبت على السرق ضربة لازب

* * *

وكان الشاعر أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي قد
 انتجع صاحب ولم يزل بين خير مستفيض وجاه عريض ، ونعم
 بيض الى أن آثر قصد حضرة عضد الدولة بشيراز ، فجهزه
 صاحب اليها ، وزوده كتابا بخطه الى أبى القاسم عبد العزيز
 ابن يوسف ، وفيه يقول : « قد علم مولاي أطال الله بقاءه أن باعة
 الشعر أكثر من عدد الشعر ، ومن يوثق بأن حليه التي يهديها من
 صوغ طبعه ، وحلله التي يؤديها من نسج فكره أقل من ذلك !
 وممن خبرته بالامتحان فأحمدته ، وفررته ^(١) بالاختبار فاخترته
 (١) فررته : اختبرته وجربته .

أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي أيده الله تعالى ، وله بديهة قوية توفى على الروية ، ومذهب في الاجادة يهش السمع لوعيه ، كما يرتاح الطرف لوعيه ، وقد امتطى أمله — وخير له — الى الحضرة الجليلة رجاء أن يحصل في سواد أمثاله ، ويظهر معهم بياض حاله ، فجهزت منه أمير الشعر في موكبه ، وحليت فرس البلاغة بمركبه . وكتابي هذا رائده الى القطر ، بل مشرعه الى البحر . فان رأى مولاي أن يراعى كلامي في بابيه ، ويجعل ذلك ذرائع ايجابه ، فعل ان شاء الله تعالى « فلما وردھا تكفل به أبو القاسم وأفضل عليه ، وأوصله الى عضد الدولة ..

* * *

وكذلك كانت صلته بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبى الذى كان من ارتفاع القدر واتساع الصدر ونبل الهمة وفيض الكف وكرم الشيمة على ما هو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة في وزارته لمعز الدولة وتديره أمور العراق ، وانبساط يده في الأموال ، مع كونه غاية في الأدب والمحبة للأهله (اليتيمة ٢٢٣/٢) . وقد وصف الصاحب في كتابه « الروزنامجه » من اهتمام المهلبى به ، حين زاره في بغداد ما يدل على اجلاله وحبّه ، ومن ذلك قوله : « وحضرت الأستاذ أبا محمد أيده الله تعالى في منظره له على دجلة تنفتح منها أبواب الى بساتين ، فعمل بيتين صنعا في الوقت ، وغنى بهما ، وهما :

لئن عرفت جريرا أو اعتمدت قطيعا (١)
 فلا ظفرت بعاص ولا أطعت المطيعا
 وأتخذ الأستاذ أبو محمد — أيده الله — ليلة وقد مضى
 الثلث منها فاستدعاني ، وعاد دابة نوبته كي لا أتأخر انتظارا
 لدابتي ، فمضيت وألفيته قد انتهى من بستانه الكبير الى مصبها
 من دجلة على ميادين ريحان نضرة ، فاستحسن الموضع ، وقعد
 فيه يشرب مع خدمه : أبى الكأس ، وسلاف ، وأبى المدام ،
 وشراب ، وخندريس ، وشمول ، وراح . وأمر فنصبت نحو مائة
 شمعة في أصول تلك الميادين صغيرة ، وقعدت ، فغننى سلاف :
 يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم
 فقال الأستاذ : بل غنّ :

يا شقيق النفس من خدمى لم ينم ليلى ولم أنم
 غننى من شعر ذى حكم يا شقيق النفس من حكم
 قال الصاحب : ولم نزل نشرب الراح الى أن باح الصبح
 بسره ، وقام كل منا يتعثّر فى سكره .

الصاحب والأدباء

ان صلة الصاحب بالأدباء والكتاب ، كانت دائما صلة الحب
 والابقاء على الود ، لأنهم يمثلون دولة الأدب التى كان الصاحب
 ينتسب اليها ، بل كان من زعمائها ، ورافعى ألويتها ، فكان

(١) المراد بالجرير الجريرة والذنب ، والمراد بالقطيع هنا
 القطيعة — وهو تفسير الصاحب .

يقدرهم في مناصبهم ، ويبرّتهم اذا أبعدوا عنها ، لا يضع له
ودّ ، ولا يخيس له معهم عهد ، ومن مثل ذلك ما كان بينه وبين
أبى اسحاق الصابى الذى كان أوحى العراق فى البلاغة ، ومن به
تشنى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من
البراعة والصناعة ، وكان قد خنق التسعين فى خدمة الخلفاء ،
وخلافة الوزراء ، وتقلد الأعمال الجلّائل مع ديوان الرسائل ،
وحلب الدهر أشطره ، وذاق حلوه ومرّه ، ولا بس خيره ، ومارس
شره (اليتيمة ٢/ ٢٤١) .

وكان صاحب يتمنى انحياز الصابى اليه ، وقدمه الى
حضرتة ، ويضمن له الرغائب على ذلك ، اما تشوقا أو تفوقا
— كما يقول الثعالبى — وكان أبو اسحاق يحتمل الخلّة وسوء
أثر العطلّة ، ولا يتواضع للاتصال بجملة الصاحب بعد كونه من
نظرائه وتحليه بالرياسة فى أيامه . وكان الصاحب كثيرا ما يقول :
كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم
عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت
الرابع ، يعنى نفسه !

وأيا ما كان القول فى المفاضلة بين الرجلين : الصاحب ،
والصابى ، فان الصاحب كان يضم الودّ للصابى ويظهره ،
وكان استدعاؤه له فى أيام شدته ومحنته ثمرة لهذا الودّ الأكيد ،
وبرّا به ، واعترافا بسابقتة فى الفضل والفن ، فهو ودّ خالص
لوجه الأدب ، وبرّ خالص لوجه الله ، لا يريد الصاحب به جاها

ولا منزلة ، لأنه كان اذ ذاك صاحب الجاه والمنزلة . وكان الصابي يقدر ودّ الصاحب ، وهذا شيء من أحد كتبه اليه « كتبت — أطال الله بقاء الصاحب — هذا الكتاب ، وأنا أودّ أن سواد عيني مداده ، ويباضها طرسه ، شوقا الى لألاء غرته ، وقرما^(١) الى تقبيل أنامله ، وظمأ الى ارتشاف بساطه .. وما عسيت أن أبلغ في شكر سيدنا وحمده ، على ما أهلنى له من برّ ورفده ، وجهدى يقصر عن غفوه ، واسهابى يعجز عن وصفه ، وهل أنا في ذلك لو فعلته الا كمن جارى الحصان بالأتان ، وواجه الغزالة^(٢) بالذبالة ، وقارع الحسام بالعصا ، وبارى الدرّ بالحصي^(٣) .

وحدث هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي قال : وكان الصاحب أبو القاسم يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ، وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الكتاب والزهاد والفقهاء ، بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار ، والى ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب ، فأذكر وقد راسله بعد وفاة عضد الدولة بالاستدعاء الى حضرته بالرى ، وبذل له النفقة الواسعة ، والمعونة الشاسعة عند شخوصه ، والارغاب والاكثار عند حضوره ، فكانت عثقله بالذيل الطويل والظهر

(١) القرم — بفتحتين — شدة شهوة اللحم :

(٢) الغزالة الشمس والذبالة الفتية .

(٣) يتيمة الدهر ٢/٢٥٦ .

الثقيل تمنعه من ترك موضعه ومفارقة موطنه ، فمما كتبه اليه
بالاعتذار عن التأخير :

نكصت على أعقابهن مطالبي وتبلدت منى القريحة بعد ما
وبكيت شرخ شبييتي فدفنتها
ومنها :

فلو ان لى ذاك الجناح لطار بى وأعيش فى سقيا سحائبه التى
وأراجع العادات حول قبابه وأعدّ من جلساء حضرته التى
فيقول من ذا سائل عنى له أترى أروم بهمتى ما فوق ذا
ومنها يعتذر عن عدم قدرته على الشخصوص اليه :

كثرت عوائقى إلتى تعتاقنى ولد لهم ولد وبطن ثالث
والسن تسع بعدها خمسون قد فالجسم يضعف عن تجشهم راجل
وعلىّ للسلطان طاعة مالك وتعطلى مع شهرتى كتصرفى
وهى قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسن : فلما كانت سنة أربع وثمانين التى توفى

فيها جدّي أحسنّ بانقضاء مدته ، وحضور منيته ، فكتب الى
الصاحب كتابا يسأله فيه اقرار هذا الرسم المذكور على ولده ،
واجراءه لهم من بعده ، وقرن الكتاب بقصيدة أولها :

تحذر منك النائبات فتحذر
وتذكر للخطب الجسيم فيصغر
وتكسى بك الدنيا ثياب جمالها
فيرجوك معروف ويخشاك منكر
يقول فيها :

أسيدنا ان المنية أعذرت (١)
الىّ بآيات تروع وتذعر
لها نذر قد آذنتني بهجمة
على مورد ما عنه للمرء مصدر
وانى لأستحلى مرارة طعمه
اذا كنت بالتقديم لى تتأخر
وحق لنفس كان منك معاشها
اذا غمضت عينا وعينك تنظر
ومن ورث الأولاد بعد وفاته
حضانك طابت نفسه حين يقبر
تمرد منك الجود حتى تمردت
مطالبنا والمآجد الحسرى يصبر

(١) يقال أعذر الرجل أى أبدى عذرا .

أأطلب منك الرغد عمري كله
وأطلبه والجنب مني مغفـر
وليست بأولى بدعة لك في الندي
لها موقف فيه لك الحمد ينشر
وهي أيضا قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسن : وأمرني بأن أنفذ ذلك فأنفذته ، وكتبت
عن نفسي كتابا في معناه ، ووصل ونفذ من يحمل الرسم على العادة .
ثم اتفق أن توفي صاحب في أول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ،
فوقف ، وكانت بين وفاتهما شهور (١) ..

* * *

وهكذا كانت صلات الصاحب بسائر الحكام والوزراء
والكتاب صلات حب واحترام ، يعرف لهم حقهم ، ولا يقصّر في
إكرامهم ، وهم يعرفون له فضله ، ولا يبغسونه حقه . ولهذا عاش
ما عاش معظما مكرما من الصغير والكبير ، ومن القريب والبعيد ،
وبذلك استقام الملك ، وانتظم جبل الأمر ؛ حتى انتهى أجله فانتشر
ذلك العقد المنظوم بالحلم والعلم ، والنهي والأدب ، وأخذت
الدولة في الضعف والتفتت ، ودب فيها الضعف بعد شـباب
مزدهر ، وقوة دافعة في وجه الأحداث والخطوب ، وقد تنبأ بهذا
بعض بنى المنجم بعد وفاة الصاحب ، واسناد الوزارة الى أبي
العباس الضبي ، الذي لقب بالرئيس ، كما لقب بالجليل ، فقال :

(١) معجم الأدباء ٦/٣٠٦ .

والله والله لا أفلحتم أبدا

بعد الوزير ابن عباس

ان جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى

أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسي

وأنشد أبو العباس العلوي الهمداني في مراثيته للصاحب :

مات الموالى والمحِب لأهل بيت أبى تراب

قد كان كالجبل المنيع لهم فصار مع التراب

* * *

وانتقلت الوزارة بعد موت صاحب الى أبى العباس أحمد بن

ابراهيم الضبى ، الذى وصف بأنه جذوة من نار صاحب أبى القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب منابه فى حياته ، القائم

مقامه بعد وفاته ، وكان صاحب استصحبه منذ الصبا ، وأدبه بأدابه ، وقدمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه (١) ،

وقال ياقوت : انتقلت الوزارة عنه الى أبى العباس أحمد بن

ابراهيم الضبى ، وأبى على الحسن بن أحمد بن حمولة ، والسياسة

التى قد سنها صاحب باقية ، وحشمة الوزارة ثابتة ، والأمور

على ما عهد فى أيامه جارية ، وكان لهما من الحشم والحاشية

والتجمل والزينة مثل ما كان له ، بل كانا فوقه فى الغنى والثروة ،

وان لم يلحقاه فى الفضل والمكرمة (٢) .

(١) يتيمة الدهر ٢٨٧/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٢٤٩/٦ .

عسرونه صاحب

لم يعرف من آباء الصاحب وأجداده الا خمسة هم : عباد ، والعباس ، وعباد ، وأحمد ، وادريس — وفي بيتي السلامي الشاعر ، اللذين هجا بهما الصاحب ، نرى أن جد أبيه هو « عبد الله » لا « عباد » — ثم ينقطع نسبه بعد ادريس وأيا ما كان الأمر فان أسماء هؤلاء الآباء الخمسة كلها أسماء عربية من الأعلام التي تتردد كثيرا في أسماء العرب ، وليس من بينها اسم أعجمي واحد .

وعرف كذلك أن الصاحب قد ولد في « الطالقان » وهو اسم لمدينتين احدهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوين ، وأن الصاحب من طالقان قزوين ، لا طالقان خراسان . وفي هذا الاقليم كانت تسكن جماعات الديلم والجيل ، وقيل في نسبة الصاحب انه « ديلمى » والديلم التي نسب اليها الصاحبى ، كما نسب اليها بنو بويه ، مختلف فيها ، ف قيل هم جنس من الأجnas ، واختلف في أصل هذا الجنس ، فقال فريق انهم ينحدرون من الفرس ، وذهب جماعة الى القول بأنهم من أصل عربى ، وقيل انهم جنس مستقل لهم صفاتهم الخاصة التي جعلت لهم شخصية مستقلة عن سائر الأجnas . في حين أن بعض الكتابين لم ينعوا بأنساب هؤلاء الديلم ، كما فعل يا قوت اذ قال ان الديلم جيل سَمُوا بأرضهم ، وهم في جبال قرب جيلان ، وذكر أن الديلم أيضا ماء لبنى عبس ، وقيل بأرض اليمامة .

وقد ذكر (الديلم) القلقشندي في أنساب العجم ، وهم من عدا العرب من الفرس والترك والروم وغيرهم — وقال ان الديلم هم الذين كان منهم ملوك بنى بويه الخارجين على خلفاء بنى العباس ببغداد . قال في العبر : هم من بنى ماداي ، بن يافث ، ابن نوح . وقال ابن سعيد : من بنى باسل ، بن آشور ، بن سام ، ابن نوح . وقيل هم من العرب . وضعفه أبو عبيد (١) .

والذين ينسبونهم الى العرب يرفعونهم الى باسل بن ضبة ابن أد ، هذا ما يقال في الديلميين جميعا ، وهذا ما يقال في صاحب بن عباد ، وان كانت أسماء أولئك الأجداد الخمسة ، وهي أسماء أعلام عربية خالصة ، تختلف عن أكثر الأسماء الديلمية التي حملها أكثر الأسماء التي عرفها التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي — أقول ان في هذه الأسماء العربية الخالصة ما يدعو الى الميل الى ترجيح عربيته ، وهو ترجيح على أى حال لا يصل الى درجة اليقين الذي لا يكون الا بنص ثابت يوثق به ويطمأن اليه . ذلك من ناحية الأنساب التي لا يعلم حقائقها الا الله .

* * *

ولكن الحقيقة التي تستعصى على التردد هي أن صاحب كان عربيا بحسه ومشاعره ، وكان عربيا بعقله وتفكيره ، وكان عربيا بفنه وأدبه ، وكان عربيا بدينه وعقيدته ، وقد سبق أن قلنا (٢) ان العروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها

(١) صبح الأعشى في صناعة الانشا ١/٣٦٧ .

(٢) انظر مقدمة هذا الكتاب .

المتألقة وأمجادها السامقة في تاريخها المجيد أن تصهر أفذاذا من
أبناء الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزا
ومنعة وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من
عقولهم وقلوبهم وغيرتهم ما يعزّ على الاحصاء ، وما يستعصى على
النسيان ، فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة
أبنائها ، وصهرت من تلك العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية
متألقة ، وجوهرة فريدة في جبين الزمان ، فأنسأهم ذلك الاعزاز
منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا في بناء نهضة وحضارة
تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها في وجه الأحداث والعواصف
والمحن .

وتتجلى عروبة صاحب في كل ناحية من النواحي التي تكونت
بها شخصيته ، وقام عليها مجده ، ولذلك وجدناه دائما متعصبا
للعرب مدافعا عنهم ، متصديا لكل شعوبى يحاول انتقاصهم
أو النيل من أمجادهم ، وكان يقول انه لا يرى رجلا متعصبا
على العرب الا وفيه عرق من المجوسية !

ومما يذكر دليلا على تعلق صاحب بعروبه ، وعلى بغضه
الشديد للشعوبية ما ذكره أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمداني
في قوله : كنت عند صاحب كافي الكفاة أبي القاسم اسماعيل
ابن عباد يوما اذ دخل عليه شاعر من العجم ، فأشده قصيدة
يفضل بها قومه على العرب ، وفيها يقول :

غنينا بالطبول عن الطلول

وعن عنس عذافرة ذمول

فليست بتارك ايوان كسـمـرى
 لتوضح أو لحومل فالدّخول
 وضب في الفلاسـاع وذئب
 بها يعوى وليث وسط غيـل
 يسلّون السيوف لرأس ضب
 حراشاً بالغداة وبالأصيل
 اذا ذبحوا فذلك يوم عيـد
 وان نحروا ففى عرس حليل
 بأية رتبة قدمتموها
 على ذى الفضل والرأى الأصيل ؟
 أما لو لم يكن للفـرس الـا
 نجار الصاحب القرم الجليل
 لكان لهم بذلك خير فخر
 وجيـلهم بذلك خير جيل

فقد حاول ذلك الشاعر الشعبوى أن يتملق الصاحب بهذا
 الشعر فينسبه الى الفرس ، مقدرا أنه سيففر هذه الشعوبية اذا
 اتصلت بمدحه ، ولكن الصاحب حين رآه قد وصل الى هذا
 الموضوع مع انشاده هاج وغضب ، وقال له : قدك (١) ! ، واشرب
 ينظر الى مجلسه وزواياه يبحث عن أبى الفضل بديع الزمان .
 قال بديع الزمان : وكنت جالسا فى زاوية فلم يرنى ، فقال :
 أين أبو الفضل ؟ فقلت واقفا وقبلت الأرض ، وقلت : أمرك !

(١) قدك : حسبك .

فقال : أجب عن ثلاثتك ! فقلت : ما هي ؟ قال : أدبك ونسبك
ومذهبك ! فأقبلت على الشاعر ، وقلت : لا فسحة للقول ،
ولا راحة للطبع الا سردا كما تسمع ، وأنشدت :

أراك على شفا خطر مهـول
بما أودعت رأسك من فضول
تريد على مكارمنا دليـلا
متى احتاج النهار الى دليل ؟

ألسنا الضارين جزى عليكم
وكان الجزى أولى بالذليل ؟

متى قرع المنابر فارسي ؟
متى عرف الأغمر من الحجول

متى علقت وأنت بهـا زعيم
أكف الفرس أعراف الخيول

فخرت بملء ما ضعيتك فخرا
على قحطان والبيت الأصـيل

وحققك أن تفاخرنا بكسرى
فما ثور ككسرى في الرعيـل

فخرت بأن ملبوسـا وأكـلا
وذلك فخر ربـات الحجـول

تفاخرهن في خد أسـيـل
وشعر في مفارقها رسيـل

وأنجد من أييك اذا أثرنا

عراة كالليوث على الخيول

قال بديع الزمان : فلما أتممت انشادي التفت الصاحب فقال
له : كيف رأيت ؟ فقال : لو سمعت به ما صدقت ! قال : فاذن
جائزتك جوازك ، ان رأيتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك !
ثم قال : لا أرى أحدا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق
من المجوسية !

وقد سمع الصاحب أن رجلا يتعصب للعجم على العرب ،
وينسب الى العرب أكل الحيات ، ويعيبها بذلك ، فردّ عليه
الصاحب هذا الردّ الموجه :

يا عائب الأعراب من جهله

لأكلها الحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم

تسباب في الأخت وفي الأم

تلك بعض مظاهر اعتزاز الصاحب بالعروبة وبغضه للشعوبية

ودعاتها ، ولكن عروبتة الكبرى في علمه وأدبه ، كما سيأتى :

الفصل الرابع

أخلاق الصاحب

أخلاق الصاحب

لعل أوضح أخلاق الصاحب وأبرزها ذلك الخلق الذي أجمع عليه الذين عاشروه والذين اتصلوا به ، والذين رووا أخباره ، وهو خلق الترفع والاعتداد بالنفس ، وجدير بمن كان مثله في كرم المنبت والتربية والمنشأ ، ومن كان مثله في المنصب والجاه وتحصيل الثقافة الواسعة والتفرع في الفن والأدب أن يزدان بهذا الخلق ، وألا يستصغر نفسه إذا كان عالي الهمة ، فقد كان رفيعا في بيته ، رفيعا في علمه وأدبه ، رفيعا في جاهه ومنصبه ، فكان أبوه « الأمين » عالما ووزيرا ، ودرج الصاحب على بساط النعمة ، وما بالك بمن كانت تعطيه أمه كل يوم وهو ذاهب لتحصيل العلم دينارا ودرهما هذا للنفقة وذاك للصدقة على أول فقير يلقاه ، فكان كما قال عن نفسه :

لست أستغنم الكثير فطبعي

قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات»!

وما بالك بمن يصفه أستاذه أبو الفضل بن العميد بأنه « سيد » ويخاطبه بقوله « مولاي » وان تعددت معاني « المولى » فانه يذكرها في مقام التعظيم والتقدير ؟ !

وما بالك بمن يصّر على الاعتذار أمام اصرار ركن الدولة على أن يكون مؤدب ولده ، ومدربا له على شئون السياسة والتدبير ؟

وما بالك بمن يقال له انه لن يعترض على أى اقتراح يقترحه ،
أو أى شرط يشترطه من الأمير الكبير أو من وزيره الخطير ؟
لم يكن شئ من ذلك الا لما عرف عن صاحب من الترفع
والاباء ، مع ما وهب من سائر الأسباب التى تدعو الى اثاره
والحرص عليه .

ومن ثم عاش صاحب مبعجلاً معترفا بفضله وعلمه وأدبه ،
مشهورة أمجاده وصنائه ، لأنه كان كما قال أبو سعيد الرستمي :

الصاحب العالى الصنائع صاحبه

فى النائبات وعدتى وعتادى

ورث الوزارة كابراً عن كابر

موصولة الاسناد بالاسناد

يروى عن العباس عباد وزا

رته واسماعيل عن عباد

شرف كعقد الدر واصل بعضه

بعضاً كأنبوب القنا المنسآد

واذ قد عرف ذلك الخلق فيه ، وكان له أهلاً ، وبه جديراً ،
فان ذلك الخلق لم يزعج أحداً من سادته ومواليه ، بل كانوا يرون
مظاهر استعلائه ، فلا يرون فى ذلك غضاظة ، ولم يسمع عن واحد
منهم أنه كان ينكر على الصاحب ما يراه فيه من كبرياء واعتداد
بالنفس ، فلم يكن الأمر أمر منصب يتولاه ، ويتولّى غيره منصباً
أرقى منه ، أو منصباً دونه ، فيتصاغر أمام من هو أعلى منه ويتضاءل ،
ثم يحلّ عقده النفسية أمام من يصغرونه فى المنصب والوظيفة ،

كما هى شيمة شاغلى المناصب والوظائف ، الذين يقدر كل واحد على حسب درجته من الوظيفة والمنصب ، وينظر كل واحد منهم الى من هم فوقه والى من هم دونه على هذا الأساس ، وقيسهم على حسب هذا القياس .

ولكن صاحب لم يكن كذلك ، بل كان هذا الاعتداد خلقا فيه ، وطبعا أصيلا من طبائعه المتميزة ، فهو كبير مع الصغار ، وكبير أيضا مع الكبار ، ولكنها الكبرياء المترفعة لا الكبرياء البفيضة المتعجرفة ، بل أننا لنراه فى كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه ، ويكبر من شأنهم ، ويعلى من نفوسهم ، واستطاع صاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة ، وللأدباء مقاما ودولة .

* * *

ومن آيات هذا الاعتداد ما ذكر الوزير أبو سعد منصور بن الحسين الآبى فى تاريخه من جلالة قدر صاحب ، وعظم قدره فى النفوس أنه لما توفيت أم كافى الكفاة—الصاحب—بأصبهان ، وورد عليه الخبر ، فجلس للتغزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته فخر الدولة بن ركن الدولة معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزّيه ويسكّن منه ، وبسط الكلام معه بالعربية ، وكان يفصح بها ، فسمعه يقول حين أراد القيام : « أيها صاحب ، هذا جرح لا يندمل » !

فأما سائر الأمراء والقواد ، مثل منوچهر بن قابوس ملك الجبل ، وفولاذ بن مانادر أحد ملوك الديلم ، وأبى العباس

الفيروزان بن خالد فخر الدولة ، وغيرهم من الأكابر والأمائل ، فانهم كانوا يحضرون حفاة حسراً .

وكان كل واحد منهم اذا وقعت عينه على الصاحب قبّل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك الى أن يقرب منه ، ويأمره بالجلوس فيجلس ، وما كان الصاحب يتحرك ولا يستوفز ^(١) لأحد ، بل كان جالسا على عادته في غير أيام التعزية .

فلما أراد القيام من المعزى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدم اليه اللكاء ^(٢) منوجهر بن قابوس ، فانه قال : يحمل الى أبى منصور ما يلبسه ، فقدم اليه ، ومنع الخروج من الدار حافيا . ثم قدّم الحجاب والحاشية اللكاوات الى الجماعة ، فعتب فولاذ ابن مانادر والفولاذ دريدية عليه ذلك ، وقالوا ميّز منوجهر من بين الجماعة ، فاحتج الصاحب ببيته العظيم ، ورياسته القديمة ^(٣) .. وخطب كافى الكفاة ابنة أبى الفضل الداعى لسبطه ^(٤) عباد ابن الحسين ، ووقع الاملاك ^(٥) فى داره يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكان يوما عظيما احتفل فيه كافى الكفاة ، ونثر من الدنانير والدراهم شيئا كثيرا ، ولذلك أنفذ له فخر الدولة على يدى حجّابه الكبار

(١) استوفز فى قعدته اذا قعد قعودا منتصبيا غير مطمئن .

(٢) اللكاء جلد مصبوغ سمي به الخف .

(٣) معجم الأدباء ٢٣٩/٦ .

(٤) السبط واحد الأسباط ، وهم ولد الولد ، وعباد ابن بنت

الصاحب .

(٥) الأملاك : التزويج .

الى هناك من النّشار (١) ما زاد على مائة طبق عينا وورقا (٢) ،
وحضر الفولاذ دريدية بأسرهم ، فان الابنة المزوجة كانت ابنة
ديكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة ، وكان القوم
أخوالها ..

وقد أضافهم الصاحب ، ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله
يزيد على خمسين ذراعا ، وكانت بطول البيت ، وأجلس عليه ستة
أنفس . وكان فولاذ بن مانادر وكبات بن بلقسم في الصدر ،
وبجنب فولاذ أبو جعفر بن الثائر العلوي ، وبجنبه الآخر أبو القاسم
ابن القاضي العلوي ، ودون أحد العلويين كاكى بن يشكرزاد ،
ودون الآخر مرداويج الكلارى . ووقف أبو العباس الفيروزان
وعبد الملك بن ماكان للخدمة . ووقف كافى الكفاة أيضا ساعة ،
ووقف جميع أكابر الكتاب والحجاب مثل الرئيس أبى العباس
أحمد بن ابراهيم الضبى ، وأبى الحسين العارض ، وأخيه أبى على
وابنه أبى الفضل ، وأبى عمران الحاجب ، وغيرهم ، الى أن فرغ
القوم من الأكل ، ثم أكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة .
وأما قاضى القضاة والأشراف والعدول فانهم أطعموا على مائدة
أخرى في بيت آخر .

* * *

وقد كان يحضر الى دار الصاحب أعيان الدولة وأبناء الملوك
والأمراء والقواد ، وسائر من ساواهم من الزعماء والكبار ، مثل

(١) النشار بالكسر اسم لما ينشر ، وهو هنا الدنانير والدراهم .

(٢) العين الدينار ، أو المال . والورق الدراهم المضروبة .

أولاد مؤيد الدولة ، وابن عز الدولة ، ومنوهر بن قابوس بن
وشمكير ، وأبي الحجاج بن ظهير الدولة ، وأسفهد بن أسفار ،
وحسن بن وشمكير ، وفولاذ بن مانادر ، ونصر بن الحسن بن
الفيروزان ، وأبي العباس الفيروزان بن الحسن الفيروزان ، وكبات
ابن بلقسم بن الفيروزان ، وحيدر بن وهسودان ، وكيخسرو بن
المرزبان بن السلار ، وجستان بن نوح بن وهسودان ، وشيرزيل
ابن سلار بن شيرزيل ، وكان في يد كل واحد من هؤلاء من
الاقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها الى عشرين
ألف دينار ، ومن أكابر القواد ما يطول تعدادهم .. كانوا يحضرون
باب داره ، فيقفون على دوابهم مطرقين ، لا يتكلم واحد منهم
هيبة واعظاما لموضعه ، الى أن يخرج أحد خلفاء حجابه ، فيأذن
لبعض أكابرهم ، ويصرفهم جملة ، فكان من يؤذن له في الدخول
يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحا ومسرّة
وشرفا وتعظيما ! .

فاذا حصل في الدار ، وأذن له في الدخول الى مجلسه قبل
الأرض عند وقوع بصره على الصاحب ثلاث مرّات أو أربعاً ،
الى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى أن يقضى
كل واحد منهم وطره من خدمته ، ثم ينصرف بعد أن يقبّل
الأرض أيضا مرارا ..

ولم يكن الصاحب يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير الى القيام ،
ولا يطمع منه أحد في ذلك (١) .

(١) معجم الأدباء ٦/٢٤٦ .

وبلغت هيبة الصاحب في الصدور ، ومخافته في القلوب ، وحشمته عند الصغير والكبير ، والبعيد والقريب ، الى درجة أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريد به بسببه ، ويمسك عما تشره اليه نفسه لمكانه . وقد ظهر ذلك للناس بعد موت الصاحب ، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته ، فعلم أنه كان يزم نفسه (١) لحشمته .. ثم كان يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطب بالصاحب شفاها وكتابا ..

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم اذا رأى أحد حجابيه ، بل أحد الأصاغر من حاشيته فان فرائضه (٢) كانت ترتعد ، وجوانحه كانت تصطفق (٣) ، الى أن يعلم ما يريد منه ، ويخاطبه به ...

وقد تظلمت الى الصاحب امرأة من أحد أصحاب فولاذ بن مانادر ، وذكرت أله ينازعها في حق لها ، فما زاد الصاحب على أن التفت الى فولاذ ، وكان في موكبه يسير خلفه ، فبهت وتحيّر ، وارتعد ووقف ، ولم يبرح الى أن سار كافي الكفاة ، ثم أرسل الى المرأة من أرضها ، وأزال ظلامتها ، ومثل هذا كثير يطول الكتاب ببعضه ، فكيف يتسع لعله (٤) ؟

وروى ياقوت عن أبي نصر بن خواشادة أنه قال : ما غبطت

(١) أي يمنع نفسه من الانبساط ، يقال زم البعير أي خطمه .

(٢) الفرائض جمع فريضة ، وهي لحمة بين الجنب والكتف ،

أو عصب الرقبة وعروقها ، لأنها هي التي تثور في الغضب .

(٣) اصطفتت جوانحه اهتزت واضطربت .

(٤) معجم الادباء ٢٤٨/٦ .

أحدا على منزلة كما غبطت الصاحب أبا القاسم بن عباد ، فانا كنا
مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية ،
فدخل الصاحب الى داره في البلد آخر نهار يوم لحضور المجلس
الذى يعقده لأهل العلم ، وتحت دابة رهواء (١) ، وقد أرسل
عنايه ، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمراء يعدون
بين يديه ، كما تعدو الركابية (٢) . وكان عضد الدولة اذا خاطب
الصاحب في مجلس يحضره غيره لا يشرك مع الصاحب فيه أحدا (٣) .
وكان الصاحب لا يستأذن على فخر الدولة وهو في مجلس
الأنس والانبساط الا انتقل الى مجلس الحشمة ، فيأذن له فيه .
قال الصاحب : ما أذكر أنه — فخر الدولة — تبذل بين يدي
وما زحني قط الا مرة واحدة ، فانه قال لى فى شجون الحديث :
بلغنى أنك تقول : « المذهب الاعتزال ، و الرجال » (٤) !
فأظهرت الكراهة لانبساطه ، وقلت : بنا من الجد ما لا نفرغ معه
للهزل ، ونهضت كالمغاضب ، فما زال يعتذر الى مراسله ، حتى
عاودت مجلسه ، ولم يعد بعدها لما يجرى مجرى الهزل (٥) ..

مع العلماء والزهاد

تلك هى شخصية الصاحب المتماسكة ، وخلقه المحكم أمام
الأقوياء الذين قد يتناولون بمناصبهم ، أو يشسخون بأنوفهم ،

(١) دابة رهواء : تسير سيرا على مهل .

(٢) أى السائرون فى الركب . (٣) معجم الأدباء ٦/ ٢٨٠ .

(٤) موضع النقط كلمتان نابيتان .

(٥) يتيمة الدهر ٣/ ١٩٩ .

أو يتيهون بأبائهم وأجدادهم أو أعراقهم الموروثة ، ولكن
الصاحب كان غير ذلك ، أو بعبارة أخرى كان انسانا آخر مع غير
هذه الطبقة من طبقات المجتمع ، انك تراه انسانا وديعا متواضعا
مع أهل العلم والأدب ، يحوطهم بلطفه ، ويرعاهم ببرّه ، وكان
هذه الطبقة هي طبقة الأصلية ، ومعدنه الجيد الذي يعتز
بالانتساب اليه ، ويرى أنه اذ يكرمهم انما يكرم نفسه ، لأنه
يكرم علمه وثقافته وأصله الذي ينتمى اليه ، ويستمد منه القوة
والحياة ..

أو لعل الصاحب كان حريصا على أن تكون صورته صورة
الرجل المتجمل المتفضل ، لا صورة الطالب المتوسل ، فهو يتواضع
مختارا ، ويتيه ويشمخ بأنفه اذا أراد . قال الثعالبي ان الصاحب
لم يكن يقوم لأحد ، ولا يشير الى القيام ، ولم يكن يطمع منه
أحد في ذلك كائنا من كان !

ولكن الصاحب كان يعرف متى يقوم ولمن يقوم ، انه يقوم
للفقراء والزهاد الذين يعرف صلتهم بالله ، كما روى أنه نزل
بالصيمرة ^(١) عند عودة من الأهواز ، فدخل عليه شيخ من زهاد
المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحاق ، فقام له ، فلما خرج التفت
كافي الكفاة الى من حوله ، ثم قال : « ما قمت لأحد مثل هذا
القيام منذ عشرين سنة » . وانما فعل ذلك به لزهده ، فانه كان

(١) الصيمرة - بفتح فسكون - بلدة بين ديار الجبل وديار
خوزستان (الأهواز) .

أحد أبدال (١) دهره .. لمثل هذا الرجل من الفقراء الزهاد ،
لا يستتكف صاحب عن القيام ، اجلالا له واكبارا ..

ولكن قصة صاحب مع أبى أحمد العسكرى تشرح لنا
موقفه من العلماء ، واكباره اياهم ، فقد كان أبو أحمد الحسن
ابن عبد الله بن سعيد العسكرى من رجال اللغة الأعلام ، ومن
الأئمة المذكورين بالتصرف فى أنواع الفنون ، ومن المشهورين
بجودة التأليف وحسن التصنيف ، ومن جملة تأليفه : كتاب
صناعة الشعر ، وكتاب الحكم والأمثال ، وكتاب راحة الأرواح ،
وكتاب الزواجر والمواعظ ، وكتاب تصحيح الوجوه والنظائر .
وكان قد سمع ببغداد والبصرة وأصبهان وغيرها من شيوخه
الكبار ، وعاش حتى علا به السن ، واشتهر فى الآفاق بالدراية
والإتقان ، وانتهت اليه رياسة التحديث والاملاء للآداب بقطر
خوزستان ، ورحل اليه الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه ..

وكان صاحب بن عباد يئتمنى لقاء أبى أحمد العسكرى ،
ويكاتبه على ممر الأوقات ، ويستميل قلبه ، فيعتل عليه بالشيخوخة
والكبر ، اذ عرف أنه يعرض بالقصد اليه ، والوفود عليه .

فلما يئس صاحب من شخوص أبى أحمد اليه احتال فى
جذب السلطان الى ذلك الصوب بأن قال له ان «عسكر مكرم» (٢)

(١) الأبدال : الصالحون والأولياء ، سموا بذلك كما يقال لأنه
كلما مات منهم واحد أبدل به آخر ، يعتقد هذا طائفة من المتصوفة .
(٢) بلد باقليم خوزستان الذى يسميه العرب الأهواز ، واليه
ينسب أبو أحمد هذا ، وكذلك الأديب الكبير أبو هلال العسكرى
صاحب كتاب «الصناعتين» وكانت بينهما قرابة .

قد اختلت أحوالها وأحتاج إلى كشفها بنفسى ، فلما قرب صاحب
من عسكر مكرم كتب إلى أبى أحمد كتابا يتضمن نظما ونثرا .
وكان مما ضمنه من المنظوم قوله :

ولما أبيتكم أن تزوروا وقسستم

ضعفنا فما تقوى على الوخدان (١)

أتيناكم من بعد أرض نزوركم

وكم منزل بكر لنا وعوان (٢)

نسألكم : هل من قرى لنزيلكم ؟

بملء جفون لا بملء جفان

فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أقعد تلميذا له فأملى عليه الجواب

عن النثر نثرا ، وعن النظم نظما ، وبعث به إليه فى الحال . وكان
فى آخر جواب أبياته :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتى

تعود أعضائى من الرجفان

فضممت بيت ابن الشريد (٣) كأنما

تعمد تشبیهى به وعناني

(١) الوخدان السرعة فى السير ، أو سعة الخطو .

(٢) يريد صاحب أنه على كثرة ماله من المنازل التى يجلبها

قديمها وجديدها أينما سار أثر زيارة العسكرى من أرض بعيدة .

(٣) هو صخر بن عمرو من بنى الشريد بطن من سايم ، وهو

أخو الخنساء ، والبيت الثالث من أبيات قالها صخر فى زوجه وقد
ملت منه لطول مرضه .

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه

وقد حيل بين العير والنزوان (١)

وقد استحسنه صاحب ووقع منه موقعا عظيما ، وقال :
لو عرفت أن هذا المصراع يقع في هذه القافية لم أتعرض لها ،
وكنت قد ذهلت عنه ، وذهب على .

ثم ان أبا أحمد قصده وقت حلوله بعسكر مكرم بلده ، ومعه
أعيان أصحابه وتلامذته في ساعة لا يمكن الوصول اليه فيها
الا لمثله . وأقبل عليه صاحب بعد أن أقعده في أرفع موضع من
مجلسه ، وتفاوضا في مسائل من العلم ، فزادت منزلته عنده ،
وأخذ أبو أحمد من صاحب بالخط الأوفر ، وأدرّ صاحب على
المتصلين بأبي أحمد ادرازا كانوا يأخذونه الى أن توفي ، وبعد
وفاته أيضا ..

ولما مات أبو أحمد ، ونعى الى صاحب أنشد فيه :

قالوا : مضى الشيخ أبو أحمد

وقد رثوه بضروب الثدب

فقلت : ما من فقد شيخ مضى

لكنه فقد فنون الأدب (٢)

وقد روى هذه القصة شاهد عيان هو أبو الحسن على

(١) العير : الحمار الوحشي والأهلى أيضا ، والنزوان : مصدر

نزائزو ، أى وثب ..

(٢) يريد أنهم ما ندبوه لأنه مات ، ولكن لأن فنون الأدب ماتت

بموته . وانظر معجم الأدباء ٢٥١/٨ .

ابن المظفر البنديجي (١) قال : كنت أقرأ بالبصرة على الشيوخ ، فلما دخلت سنة تسع وسبعين وثلثمائة الى الأهواز ، بلغنى حال أبى أحمد العسكرى ، فقصدته وقرأت عليه ، فوصل فخر الدولة والصاحب بن عباد ، فبينما نحن جلوس نقرأ عليه وصل اليه ركبى ومعه رقعة ففضها وقرأها وكتب على ظهرها جوابها ، فقلت : أيها الشيخ ؛ ما هذه الرقعة ؟ فقال : رقعة الصاحب ، كتب الى : ولما أبيتم أن تزوروا وقلتم ضعفتا فما تقوى على الوخدان الأبيات الثلاثة المتقدمة .. قلت : فما كتبت اليه فى الجواب ؟ قال : قلت : « أروم نهوضا .. » الأبيات الثلاثة المتقدمة ..

قال : ثم نهض أبو أحمد وقال : لا بد من الحمل على النفس (٢) ، فان الصاحب لا يقنعه هذا ، وركب بغلة وقصده ، فلم يتمكن من الوصول الى الصاحب لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة (٣) ، ورفع صوته بقول أبى تمام :

مالى أرى القبة الفيحاء (٤) مقفلة

دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها

كأنها جنة الفردوس معرضة

وليس لى عمل زاك فأدخلها

قال : فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة

(١) نسبة الى « البنديجين » وهى بلدة فى أطراف النهر وان من ناحية الجبل كانت من أعمال بغداد .

(٢) يريد تكليف نفسه مشقة السعى اليه مع ضعفه فكانه حمل نفسه مالا طاقة لها به .

(٣) التلعة : القطعة المرتفعة من الأرض .

(٤) الفيحاء : الواسعة .

الأولى . فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه . فسأله
عن مسألة فقال أبو أحمد : « الخير صادفت » فقال صاحب :
يا أبا أحمد ، تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ؟ فقال :
تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا ، وانما كلام العرب
« سقطت » (١) ..

وتلك إحدى صور اكبار العلم وتقدير رجاله ، وهى صورة
رفيعة بعيدة المنال ، لا ينهض بها الا العارفون الذين يقدرون
أصحاب الشرف الحقيقي ، شرف الانتساب الى المعرفة . وكان
الصاحب أراد أن يضرب المثل فيما ينبغى أن يعامل به أهل العلم ،
أو ما يجب أهل العلم أن يكون لهم من التقدير بما يبذلون في
سبيل الوصول الى أقصى غايات الانسان الفاضل ، وهى المعرفة ،
أو لعلّه قرأ أبيات صديقه القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني
تلك الأبيات الخالدة التى تنكر على بعض من ينتسبون الى العلم
اذلال أنفسهم ، وامتهان عقولهم في سبيل الزلفى الى الحكام
لينالوا بها غرضا من أغراض الدنيا وأعراضها الزائلة ، وفى هذه
الأبيات يقول القاضى الجرجاني (٢) :

يقولون لى فيك انقباض وانما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
وما زلت منحازا بعرضى جانبيا
من الذم أعتدّ الصيانة مغنما

(١) معجم الادباء ٢٥٥/٨ .

(٢) يتيمة الدهر ٢٣/٤ وياقوت ١٨ / ١٤ .

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى
ولا كل أهل الأرض أرضاه منعا
ولم أقض حق العلم ان كان كلما
بدا طمع صيرته لى سلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟
اذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

فأراد الصاحب أن يكرم فى العلماء علمهم ، وأن يقضى هو
عنهم حق العلم ، ولم يدعهم يهينون أنفسهم بالسعى اليه ، ولكنه
كلف السعى اليهم ، مع كثرة أعماله ووفرة شواغله ، وأراهم
أن شقاءهم فى تحصيل العلم ليست تتيجه الذلة ، وأن « اتباع
الجهل » أو « ابتياع الجهل » ليس هو الأحزم !

* * *

ومن الدلائل على ذلك أن الصاحب كان يغضى بسبب العلم
واكرام العلماء عن كثير مما لا يرضى ، أن قاضى القضاة « عبد الجبار
ابن أحمد الأسد أباذى » وكان الصاحب قد فوض اليه قضاء
همدان والجبـال ، ذلك القاضى عبد الجبار استقبل الصاحب
يوما ، وكان راكبا دابته فلم ينزل عنها ، ولم يترجل للصاحب ،

واعتذر عن ذلك بقوله « أيها الصاحب ، أريد أن أترجل للخدمة ، ولكن العلم يأبى ذلك » ! ولم يغضب الصاحب من قاضيه ، وغفر له ، بل غفر للعلم ما لم يكن يرضاه من أحد ، وهو الذي كان أبناء الأمراء يسعون بين يديه ، ويفسحون لدابته الطريق ..

ومما يتصل بالقاضي عبد الجبار أنه كان يكتب في عنوان كتبه التي يرسلها الى الصاحب : « الى الصاحب : داعيه ، عبد الجبار بن أحمد » ثم كان يكتب بعد ذلك « وليه عبد الجبار ابن أحمد » ثم كتب بعد ذلك « عبد الجبار بن أحمد » ..

ولكن الصاحب بدقة فهمه وقوة ملاحظته لتدرج القاضي في الاستعلاء يرسلها طرفة ممتعة في تهكم رائع ، وفي ايجاز يبلغ في التعليق على هذا التدرج في الاستعلاء ، وذلك في قوله : أظنه يئول أمره الى أن يكتب « الجبار » !!

وأبو حيان التوحيدي مع كراهته للصاحب وحقده عليه يقول ان ابن عباد كان يقول للانسان من أهل العلم اذا قدم عليه : « يا أخى ، تكلم واستأنس ، واقترح وانبسط .. ولا يرعك ما ترى من الحشم والخدم .. فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف ، والاتحاف والاطراف » .. وان كان هدف أبي حيان هو النيل من الصاحب ووصفه بأنه كان يتكلف السجع ، فكان هذا الثناء الذي لم يكن يقصده « والفضل ما شهدت به الأعداء » !

وفاء الصاحب

ومن أخلاق الصاحب الممتازة وفضائله المذكورة خلق الوفاء لكل من منحه ثقته واطمأن اليه ، وقد رأينا فيما مضى صوراً رفيعة لهذا الوفاء النادر الذي كان إحدى الفضائل النادرة في عصر كثر فيه الغدر بالأولياء ، والخيانة لأرباب الثقة ..

ومن هذه الصور وفاؤه لأستاذه أبي الفضل بن العميد من لزوم طاعته وامتنال أمره ، حتى فيما كان يأباه ، فكان الصاحب يصّر على الاعتذار من عدم قيامه بخدمة مؤيد الدولة أمام الأمير ركن الدولة ، ولكنه لم يستطع وفاء لأستاذه أبي الفضل وقياماً بحق أساتذته أن يصّر على اعتذاره واستغفائه ..

ومن هذه الصور وفاؤه لمؤيد الدولة الذي كان عهده بفضل الصاحب عهد الأمن واستقرار الملك وتوطيد أركان الدولة ، ثم وفاؤه لأخيه فخر الدولة حتى آخر أنفاسه ، وكان وفاؤه لآل بويه بالعمل الدائب ، والخدمة المتصلة ، وكأنه المنسوط برفع رأيتهم ، وتثبيت أمجادهم ..

ويتخذ هذا الوفاء مظهراً آخر ، هو النصح الخالص لهم الذي لا يسديه الإنسان إلا إلى أخص خاصته الذين ينشد لهم مجد الدنيا وفوز الآخرة ، فقد رأينا نصحه لمؤيد الدولة قبيل وفاته بأن يرد المظالم ، ويعيد الأموال التي يشك في حلّها إلى أصحابها ، أن كان يعرفهم أو يوزعها في الفقراء ، ثم نصحه لفخر الدولة في وقعة الأهواز الذي لم يأخذ به ، فخسر المعركة وتبدّد أمله في الوصول إلى بغداد .

ثم يبدو هذا الوفاء لآل بويه ، ويبلغ ذروته حينما أُنْفذ إليه أبو العباس تاش الحاجب رقعة في السرّ بخط صاحبه نوح بن منصور الساماني ملك خراسان ، يريد به فيها الى الانحياز الى حضرته ، ليلقى اليه مقاليد مملكته ، ويعتمده في وزارته ، ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به من تركه امتثال أمره والصد عن رأيه « كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى .. » ؟

أرأيت مثل هذا حفاظا على العهد ، واعترافا بالجميل ؟ ولا يقتصر وفاء صاحب على أولياء نعمته من آل بويه ، بل انه ليتجاوز به الى كل من أخلص له الودّ وأصفى له الوفاء كالقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني الذي تعهده صاحب بعد أن عرف ما عنده من العلم والأدب ومكارم الأخلاق ، فان صاحب كان يوفر له من أسباب الأمن والراحة ما يستطيع ، ومن أمثلة ذلك أن يكتب صاحب الى حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب ليوفر أسباب الأمن والرعاية الكريمة للقاضي حينما حنّ الى زيارة بلده جرجان ، وفي رسالته يقول « قد تقدم وصفي للقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز — أدام الله تعالى عزّه — فيما سبق الى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش — أدام الله تعالى علوّه — من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحق ، وان كنت دلّته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب والعلم . فأما موقعه منى فالموقع الذى تخطبه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ،

وعادته معى ألا يفارقنى مقيما وظاعنا ، ومسافرا وقاتنا . واحتاج
الآن الى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالامام ،
فطالبنى مكاتبتى بتعريف الأمير مصدره ومورده ، فان عنّ لى
ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف اسعافه ما هو المعتاد ليستعجل
انكفائه الىّ بما يرسم — أدام الله أيامه — من مظاهرتة على
ما يقدم الرحيل ويفسح السبيل من بدرقة^(١) ان احتاج اليها والى
الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف النجع
فيها . فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد
القاضى أبى الحسن بما يعجل ردّه ، فانى ما غاب كالمضل الناشد ،
واذا عاد كالغائم الواجد ، فعل ان شاء الله تعالى .

تلك بعض الصور التى تنم عما طبع عليه الصاحب من فضيلة
الوفاء لمن هم فوقه ولمن هم دونه ، من الذين وثق بكفائتهم
ومودّتهم .. وهى صور قليلة أوردناها على سبيل التمثيل
والاستشهاد ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ..

ولم يكن الصاحب وفيّا للرجال الذين توجب عليه أفضالهم
الوفاء لهم فحسب ، ولكنه كان وفيّا أكثر من ذلك لعمله وواجبه ،
وهو فى هذا المقام الخطير يدبر سياسة دولة ، فقد كان يتخلى عنه
أحيانا ما طبع عليه من الرفق والمسامحة فى سبيل دعم سلطان
الدولة وتثبيت دعائمها ، فكان لا يلين للمخارجين عليها ، ولا يرقّ
قلبه لهم مهما تضرّعوا له ، وكأنه كان يرى فى نصرتهم فى أحوال

(١) البدرقة : الخفارة او الجماعة تتقدم القافلة لحراستها .
والمبدرق : الخفير .

ضعفهم تشجيعا للثائرين اذا أمكنتهم الفرصة .. فقد كان نصر بن الحسن بن الفيروزان ، وهو خال فخر الدولة ، قليل المبالاة ، قد استعصى على فخر الدولة ، واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها ، واحتال على جماعة من عساكره ، فقتلهم بأنواع القتل ، الى أن تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرتة ، وشتتت جموعه ، وهرب نحو خراسان ، حتى صار الى أسفرايين ، ثم بدا له أن سلك طريق المفازة فيها ، حتى ورد الري ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنة ٣٨٤ هـ ، وقصد في الليل باب كافى الكفاة مستجيرا به ، ومستعظا له ، فلم يرق له ، ورد الى دار بعض حجاب فخر الدولة ، فحبس فيها .

ونقل ياقوت عن الوزير أبى سعد قوله : وكنت فى هذه الليلة بحضرة كافى الكفاة ، فأتاه الحاجب ، وقد مضى هزيع من الليل ، فأخبره بوقوف نصر بن الحسن بن الفيروزان على الباب خاشعا متضرعا . فرأيته قد تحير فى الأمر ساعة ، ثم راسله بأن السلطان الأعظم « يعنى فخر الدولة » ساخط عليك ، ولا يجوز لى أن آذن لك فى دخول دارى الا بعد أن تترضاه ، وتستعطف قلبه ، فان عنا عنك ورجع لك فالدار بين يديك وأنا معين لك . فعاد الحاجب اليه بذلك ، ورجع فقال : انه امتنع من العود ، وقال « انما جئت الى الصاحب لاثذا به ، ومنقطعا اليه ، ولا أعرف غيره ، وأنا أحتاج أن يدبر أمرى ، ويجيرنى ويحامنى على ، ويذب عني » .

قال الوزير أبو سعد : فرأيت الصاحب وقد مال رأيه بين

أحدى خصلتين : اما أن يستمر على المنع ولا يأذن له ، واما أن يأذن له ويجعل داره بما فيها من الخزائن له ، وينتقل هو الى دار كانت لحاجبه الراوندى وكان قد أضافها بعد موت هذا الحاجب الى داره .

ثم قر رأيه على صرفه . واستمر نصر على الالاح في الخضوع والاجتهاد أن يأذن له في الدخول ، وانتقل من الباب الكبير الى باب الخاصة ، وسأل واجتهد الى أن جاءه من قبل فخر الدولة « علوسة الحاجب » وحبسه .

وكان هذا الفعل من الصاحب مستهجنًا ، يعجب الناس منه ، وتحدثوا به واستقبحوه ، مع ما أظهره نصر من الاستكانة والاستجارة به (١) !

ولست أرى في موقف الصاحب ما يدعو الى التعجب أو الاستهجان ، فالأمر هنا أكبر من أن يكون أمر استجارة أو استكانة تقبل أو ترفض ، ولكنها سياسة دولة مع الذين تحدثهم أنفسهم بالخروج عليها اذا وجدوا فرصة متاحة ، وهذا رجل لم يخرج فقط ، ولكنه حارب بالسلاح والجند ، وقتل الناس تقتيلا ، فكيف يجيره الصاحب ضد مولاة فخر الدولة ، لا بل ضد الدولة وهيبتها أمام قوم كلهم أهل ثورة وخروج وقتال . فكيف يؤوى الصاحب ، وهو حارس الدولة ، خارجا على هذه الدولة يقطع أرضها ، ويسفك دماء جنودها ؟

ولو كان الأمر أمر استعازة أو استجارة لكان هناك صاحب

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٤٤ .

الحق الأول ، وهو فخر الدولة ، وهو ابن أخت هذا الشاعر
العائد ، وأمام نصر من أهل الشفاعة والاجارة من هم أحق من
الصاحب بالاعادة والاجارة .

بل ان المسألة في نظري لا تدعو الى التعجب ولا الى
الاستهجان ، بل هي تدعو الى الاعجاب والاكبار بالصاحب ،
وحسب الصاحب أنه لم يقتله أو يجبسه ، وهو المستول الأول
عن تأمين الدولة ، وأنه رسم لنصر سبيل الأمن ، وهو اللجوء الى
ابن أخته فخر الدولة الذي سماه الصاحب « السلطان الأعظم » .
فهذا كما رأيت كان وفاء للدولة التي ألفت اليه مقادها ،
وللرجال الذين منحوه ثقتهم ، وكان الصاحب يستطيع أن يكتسب
مجدا رخيصا سريعا ، يعقبه فساد الحكم ، وانتقاض جبل الأمن ؛
فكان هذا من الصاحب وفاء ، وان بدا في نظر بعض الناس
خيانة وغدرا ..

وهكذا تمكن خلق الوفاء من قلب الصاحب لكل ما عرف
وألف ، حتى المواطن التي انتجعها ، وتركت في نفسه أثرا لا ينساه ،
كما روى أنه لما افتتح جرجان وشاهد طبرستان تذكر أصفهان
فأنشد هذه الأبيات :

يا أصفهان سقيت الغيث من كذب
فأنت مجمع أوطاري وأوطاني
والله والله لا أنسيت برك بي
ولو تمكنت من أقصى خراسان

سقيا لأيماننا والشمل مجتمع
والدهر ما خانتني في قرب اخواني
ذكرت ديمرت اذ طال الثواء بها
يا بعد ديمرت من أبواب جرجان (١)

* * *

ولقد نعت الصاحب أبو حيان التوحيدى بنعوت كثيرة تدل
على مبلغ حقه على الصاحب ، وعوامل هذا الحقد كثيرة سنعرض
لها ، وقد حاول فيها أن ينال من عظمة الصاحب ، فقال فيه كلاما
كثيرا لم يقله واحد غيره من الذين عرفوا الصاحب واتصلوا به
وعاشروه ؛ وكان مما قال عن الصاحب في كتابه « الامتاع
والمؤانسة » : انه « لا يرجع الى الرقة والرافة والرحمة ، والناس
كلهم محجمون عنه ، لجرأته وسلطته ، واقتداره وبسطته ، شديد
العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى
كثيرا قليلا — أعنى يعطى الكثير القليل ، مغلوب بحرارة الرأس ،
سريع الغضب ، بعيد الفيئة (٢) ، قريب الطيرة ، حسود حقود
حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار الى أهل
الكفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ،
وأما المنتجعون فيخافون جفوته . وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ،
ونفى أمة ، نخوة وتعنتا وتجبرا وزهوا .. »

(١) ديمرت — بكسر الدال وفتحها وفتح الميم — من نواحي
أصبهان .
(٢) أى بعيد الرجوع الى الرضا .

وهذا كلام حاقد حاسد جرّد فيه أبو حيان الصاحب من كل فضيلة ، وانتزع منه كل مكرمة . ولو كان الصاحب فيه ما قال أبو حيان أو بعض ما قال أبو حيان ، لكان جديرا أن تسودّ صفحة تاريخه ، وأن يذكره المؤرخون بالغضب واللعنة الى أبد الآبدين ، وأن يتجافاه الناس لحسده وحقده وسطوته التي تؤثر بها ذوى الكفاية ، ويخص بها أهل الفضل ، ولما كان له أتباع وكتاب وعمال ، وفسدت الأرض ، واختل صفو الحياة .. كيف وقد ذكره الثقات الذين يعتد بأخبارهم ، ويؤخذ بأقوالهم شاهدين له بالفضل يستبق الناس الى بابه ، ويرجون المقام في رحابه التي لم تضق يوما بأهل الفضل والكفاية .

كيف نصدق أبا حيان الحاقد الحاسد الكاذب فيما أكده الأمناء العارفون الذين يقولون ان الصاحب « قد احتفل به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعالي » .. ويقولون « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان .. ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق .. الخ ^(١) » ..

لقد صور أبو حيان الصاحب فيما صوّر جبارا عنيّدا ، بل وحشا ضاريا ، ولو صدّقناه في هذه الصورة فكيف نوفق بين هذه الصورة والصورة الأخرى التي رسمها للصاحب بعدها مباشرة في قوله « وهو مع هذا يخدعه الصبي » ، ويخلبه الغبي » ،

(١) يتيمة الدهر ٣/ ١٨٨ و ١٨٩

لأن المدخل عليه واسع ، والمأتمى اليه سهل ، وذلك بأن يقال :
« مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه ، ورسائل مشوره
ومنظومه ، فما جبت الأرض اليه من فرغانة الى غانة ومصر وتفليس
الا لأستفيد كلامه وأفصح به وأتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل
مولانا قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ، واحتجاجه من ابتدائها
الى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم في
واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص » .. فيلين عند ذلك
ويذوب ، ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ،
ويتقدم الى الخازن بأن يخرج اليه رسائله مع الورق والورق^(١) ،
ويسهل له الاذن عليه والوصول اليه ، والتمكن من مجلسه^(٢) ..
فنحن في الصورة الأولى أمام صاحب بطش وجبروت وقسوة
وصرامة مباعدة منفرة ، وفي الصورة الأخرى أمام طفل وديع ،
أو أمام رجل ساذج يخدعه الصبيان ، ويغرّه الأغبياء بمعسول
القول بكلمات ثناء مفتعلة ، يصلون بها الى ما يشتهون ؛ من
الأموال والأرزاق ، والرضا والتقريب ..

فكيف يمكن التوفيق بين الصورتين المتناقضتين اللتين رسمهما
أبو حيان بخياله السقيم ، وأوحى بهما قلبه المريض ؟
لقد اضطرنا أبو حيان بكاذبيه وتلفيقاته أن نخصه في هذا

(١) يريد بأحد الورقين الدراهم المضروبة وهو بفتح الراء وكسرهما .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٥٦/١ .

البحث ببيان ، يعرف به القارىء حقيقته والعوامل التى كانت تبعثه على ما افتراه فى حقّ الصاحب بن عباد .

* * *

ولقد كان الصاحب — على خلاف ما ذكر أبو حيان — انسانا دمث الخلق ، رقيق القلب ، لا يستحل قتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يستحل العقوبة بقطع الأرزاق قائلا « انها نذالة » وتجاوز الرفق والرحمة التى تمكنت من قلبه الناس الى الحيوان ، فلا يستبيح تعذيبه والتمثيل به .

* * *

رحمة الصاحب

وقد نفل ياقوت ما يؤكد الرحمة التى طبع عليها قلب الصاحب فى قوله : ومما وجدت فى بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب : أن الصاحب استدعى يوما شرابا من شراب السكر ، فجىء بقدر منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : « لا تشربه فانه مسموم » فقال له : « وما الشاهد على صحة ذلك » ؟ قال : « بأن تجرببه على من أعطاكه » ! قال : « لا أستجيز ذلك ولا أستحله » . قال : « فجربّه على دجاجة » ! قال الصاحب : « ان التمثيل بالحيوان لا يجوز » .

ثم أمر الصاحب بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عني ، ولا تدخل دارى بعدها . وأقرّ رزقه عليه ، وقال : « لا تدفع اليقين بالشك ، والعقوبة بقطع الرزق نذالة » ^(١) !

(١) معجم الأدباء ١٨٥/٦ .

ودخل على صاحب رجل لا يعرفه ، فقال له صاحب : أبو من ؟
فأنشد الرجل :

وتتفق الأسماء في اللفظ والكنى

كثيرا ولكن لا تلاقى الخلائق

فابتسم صاحب ، وقال له : اجلس يا أبا القاسم ! فقد فطن
الى كنيته من بيته ، وكان صاحب يقول لجلسائه اذا أراد أن
يسبّطهم ويؤنسهم : نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان (١) !

ومن أخباره أنه مرض مرة بالاسهال ، فكان كلما قام عن
المطهرة وضع عندها عشرة دنائير لئلا يتبرم به الفراشون ،
فكانوا يتمنون لو طالت علته . ولما عوفي أباح للفقراء نهب داره ،
وكان فيها ما يساوى نحو من خمسين ألف دينار من الذهب (٢) .
فأية رقة وراء هذه الرقة في معاملة الناس ، والرفق بهم ،
والتلطف معهم ؟ !

ثم اقرأ قول أبى حيان الذى يبرز صاحب فيه رجلا مغرورا
معجبا بنفسه مستبدا برأيه ، واعجب لهذه الصورة البيانية الرائعة
التي رسمتها ريشة أبى حيان بأسلوبه التهكمى اللاذع فى قوله :
« والذى غلطه فى نفسه وحمله على الاعجاب بفضله ، والاستبداد
برأيه ، أنه لم يجبه قط بتخطئة ، ولا قبول بتسوئة ، ولا قيل له
أخطأت أو قصرت أو لحت أو أخللت ، لأنه نشأ على أن يقال :
أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، والله درّه ، والله بلاؤه ، ما رأينا

(١) يتيمة الدهر ١٩٦/٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١ .

مثله ، ولا سمعنا من يقاربه ، من ابن عبد كان مضافا اليه ؟
ومن ابن ثوابة مقيسا عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى
اذا جمع بينهما ؟ من صريع الغواني ؟ من أشجع السلمى اذا
سلك طريقهما وفتح برشائهما وقدم بزندهما ؟ قد استدرك
مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى
اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ،
وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى
القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطوطاليس فى
المنطق ، وعلى الكندى فى الجزء ^(١) ، وعلى ابن سيرين فى
العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى
الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هارون فى
الفقر . وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن ربن ^(٢) فى الفردوس ،
وعلى عيسى بن دأب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى
النجار فى البذل ^(٣) ، وعلى ابن ثوابة فى التفقه ، وعلى السرى
السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزبد ^(٤) فى النوادر ،
وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعنى ، وعلى

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجواهر
الفرد .

(٢) هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه
« فردوس الحكمة » .

(٣) البذل اسم كتاب فى علم الكلام لأبى عبد الله الحسين
ابن محمد النجار .

(٤) هو أبو اسحاق مزبد المدنى ، اشتهر بنوادره المضحكة
وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى
سطيح فى الكهانة ، وعلى ابن المحيّا خالد بن سنان العبسى فى
دعواه (١) ، وهو والله أولى بقول أبى شريح أوس بن حجر التميمى
فى فضالة بن كلفة :

الألمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
هذا هو الكلام الذى يصل الى قلب الصاحب ، كما تخيله
أبو حيان ، وهذا الثناء والتفضيل اللذان كان يسمعهما من جلّاسه
ومخالطيه هما سرّ غرور الصاحب وكبريائه كما زعم أبو حيان ،
ان الظن ليسبق الى أن أبا حيان هو الذى كان يحاول أن يخدع
الصاحب بأمثال هذا الكلام ، لأنه أعرف الناس ، وهو أحذقهم
فى معرفة فحول الفكر والفن والسياسة والعلم !

ثم اقرأ كيف تصور أبو حيان موقع أمثال هذا الثناء من نفس
الصاحب ، وكيف صورّه فى قوله : « فتراه عند هذا الهذر
وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطيّر فرحا ويتقسم ويقول :
« ولا كذا (٢) ، ثمرة السبق لهم ، وقصّرنا أن نلحقهم ، أو تقفو
أثرهم ، ونشقّ غبارهم ، أو نرد غمارهم » ، وهو فى كل ذلك
يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ،

(١) خالد بن سنان زعموا أنه كان نبيا فى زمن الفترة بين
عيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان بأرض عبس . وأصحاب هذه
الأسماء التى ذكرها أبو حيان كان كل واحد منهم عالما لكل علم
وفن من العلوم والفنون التى أوردها الى جانب أسمائهم .

(٢) ولا كذا كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاص فى المدح ،
وباطنها كما يرى أبو حيان إلحاح على الاكثار منه .

ويأخذ كالمتمتع ، ويغضب في عرض الرضا ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ويتمايل ، ويحاكي المومسات ، ويخرج في أصحاب السماجات . ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على تقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، والذين فرغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج ما في الصدور ، واعتبار الأسباب ، وذلك أنه ليس بجيد العقل ، ولا خالص الحمق ..

قال : وقد أفسده أيضا ثقة صاحبه (١) به وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، فعذر بازدهاء المال والعلم والاقتدار والأمر والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلساء والعادة الغالبة ، وهو في الأصل مجدود (٢) لا جرم ، ليس يقله مكان دلالة وترفا ، وعجبا وتيها وصلفا ، واندراء (٣) على الناس ، وازدراء للصغار والكبار ، وجبها (٤) للصادر والوارد ، وفي الجملة آفاته كبيرة ، وذنوبه جمّة « ولكن الغنى رب غفور » .

وسئل أبو حيان : وكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها ؟ فقال : والله لو أن عجوزا بلهاء ، أو أمة ورهاء (٥) أقيمت مقامه ، لكانت الأمور على هذا السياق ! فقليل له : وكيف ذاك ؟ فقال : قد أمن أن يقال له : لم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ .

(١) يريد بصاحبه الملك الذي استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه ، فكلاهما استوزره .

(٢) المجدود : المحظوظ .

(٣) الاندراء : الاندفاع والتهجم .

(٤) أي جبههم عند ملاقاتهم بما يكرهون .

(٥) الورهاء : الحمقاء .

وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك إلا بجد سعيد (١) ..
 أُلست تجد في هذا حديثاً لذيذاً للسمر ، وتأليفاً طريفاً للمتعة ،
 أمتع به أبو حيان جلسيه الوزير ، وشفى به ما في نفسه وما في
 نفس وزيره ، ولكن على حساب الصاحب ، وعلى حساب النيل
 من عرضه ومروءته ، بل على حساب أعراض الناس ومروءاتهم ؟ !

* * *

بديهته وحضور جوابه

وعرف عن الصاحب أنه سريع النكتة ، حاضر الجواب ،
 كثير الفكاهة والدعابة وكان ذلك أثراً من آثار ثقافته الواسعة ،
 وعلمه المتبحر ، وتجاربه الكثيرة ، وتوقد ذهنه ، وحضور
 بديته . وقد رويت له في هذا السياق طرائف ممتعة ، منها عدا
 ما سذكركه في أدبه :

* ورد الى الصاحب رجل من أهل الشام ، فكان فيما
 استخبره عنه : رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن
 عبد كان (٢) . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي .. ثم غمز أحد
 جلسائه ليقول « ورسائل الصاحب » .. ورآه الصاحب يغمزه ،
 فقال : تغمز حماراً لا يحس ؟ !

* وأطال شاب عنده المكث ، ولم يقتد بغيره في المقام . فقال
 للفتى : من أين ؟ فقال : من قثم ، قال الصاحب : فاذا قم !

(١) الامتناع والمؤانسة ٦٠/١ ، ٦٩ .

(٢) « ابن عبد كان » هو محمد بن عبد كان ، كان كاتباً
 للدولة الطولونية . وكان بليفاً بترسلاً فصيحاً ، وله ديوان
 رسائل .

* كان المأموني الأبهريّ الشاعر قال في شاعر أبهري آخر

يهجوه :

كلانا الى آدم يعتزى وتجمعنا آصرات الرحم (١)
ولكن له الفضل في أنه يصل بقرن وأنى أجم (٢)

واتفق أن حضر مجلس صاحب ، فقال الخادم : المأموني
الأبهريّ الشاعر . فقال صاحب : الأقرن (٣) أم الأجم ؟ فاستجيا
ونجل !

* وحدث بديع الزمان الهمداني قال : لما أدخلني والدي
الى صاحب ، ووصلت الى مجلسه واصلت الخدمة بتقيل
الأرض ، فقال لى صاحب : يا بني اقعد ، كم تسجد ، كأنك
هدهد !

* ممن كان بباب صاحب قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد
الأسد أباذي ، وكان يكتب في عنوان كتابه الى صاحب « داعيه :
عبد الجبار بن أحمد » ثم صار يكتب « وليه : عبد الجبار بن
أحمد » ثم صار يكتب « عبد الجبار بن أحمد » ! فقال صاحب
لندمائيه : أظنه يئول أمره الى أن يكتب « الجبار » !

وكما كان صاحب متفردا بالقدرة على هذه الدعابات
الساخرة ، والفكاهات النادرة ، كان يعجبه أن يستمع الى الطرفة
والدعابة والسخرية وان كانت السخرية من شخصه ، وذكر

(١) الأصرة : الصلة والقرابة .

(٢) الأجم : الذي لا قرن له ، وفي البيت تعريض ظاهر .

(٣) الأقرن : ذو القرن .

الصاحب أن جماعة أخجلوه بدعاباتهم وحضور جوابهم ، قال :
منهم أبو الحسن البديهي ، فانه كان في نفر من جلسائي ، فقلت
له — وقد أكثر من أكل المشمش — لا تأكله فانه يلطخ المعدة !
فقال : ما يعجبني من يطبّ على مائدته !

قال : وأخجلني آخر اذ قال لي — وقد خرجت من دار
السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لي — : من أين أقبلت يا مولانا ؟
فقلت : من لعنة الله ، فقال : ردّ الله غربتك ! وأحسن علي
اساءته الأدب — فاستحسنتم مداعبته فقلت : لبتك تحتي ! فقال :
مع ثلاثة آخر — يعني في الجنازة — فأخجلني !

وحدث الصاحب يوما فقال : ما أظفعتني ^(١) الا شاب ورد علينا
أصبهان بغدادى ، فقصدنى ، فأذنت له ، وكان عليه مرقعة وفي
رجليه نعل طاق ^(٢) ، فنظرت الى حاجبى ، فقال له وهو يصعد الى :
اخلع نعلك ! فقال : ولم ؟ ولعلى أحتاج اليها بعد ساعة ! قال
الصاحب : فغلبنى الضحك ، وقلت : أتراه يريد أن يصفعنى ! ؟
ومثل هذه الأحاديث والطرائف لا تصدر عن جبار عنيد ،
ولا عن مستبد طائش ، وانما تصدر عن رجل أليف مألوف ،
يحب الناس ، ويحبه الناس ، كالصاحب الانسان الرقيق ، السمج
المهذب الرفيق .

(١) أظفعه الأمر : اشتدت شناعته ، وجاوز قدره ، واقطعه
الأمر : وجده قطيعا .

(٢) يقال : نعل طاق ، عطف ببعضه على بعض .

سماحة الصاحب

وسماحة الصاحب أشهر من أن يعترف بها ، ولقد أصبحت تلك السماحة مضرب الأمثال ، وحسبنا أن نذكر في هذا المجال قول أبي منصور الثعالبي في نعتة « ليست تحضرني عبارة أرضاها للأفصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفردة بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر .. وهو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا خرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق . وكالت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط حالهم ، وموسمهم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجده ، وقاضل يصطنعه (١) ..

* * *

والحقيقة أن هذه السماحة التي زينت مكارم الصاحب ، وجعلته مثالا فذا فيها لم تكن خلقا مكسوبا ، بل كانت طبعا فيه وجبلة ورثها عن أبويه اللذين رباها عليها ، وأخذاه بها ، وعلماء منذ حدائته أن يكون سمحا معطاء ، فقد كان منذ الصغر اذا أراد

(١) يتيمة الدهر ١٨٨/٣ .

المضى الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهما ،
وتقول له : تصدق بهذا على أول فقير تلقاه ، فكان هذا دأبه في
شبابه الى أن كبر ، وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت
المطرح ديناراً ودرهما لثلاثين . فبقى على هذا مدة ، ثم ان
الفراش نسي ليلة من الليالي أن يطرح له الدرهم والدينار ، فاتبه
وصلى ، وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدتهما ، فتطير
من ذلك ، وظن أنه لقرب أجله . فقال للفراشين خذوا كل ما هنا
من الفراش ، وأعطوه لأول فقير تلقونه ، حتى يكون كفارة لتأخير
هذا . فلقوا أعمى هاشمياً على يد امرأة ، فقالوا له : تقبل هذا ! فقال :
ما هو ؟ فقالوا : مطرح ديباج ومخاد ديباج ، فأغمى عليه ! فأعلموا
الصاحب بأمره ، فأحضره ورش عليه ماء ، فلما أفاق سأله ، فقال :
أسألوا هذه المرأة ان لم تصدقوني ، فقالوا له : اشرح ، فقال :
« أنا رجل شريف لى ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ،
ولى سنتان آخذ القدر الذى يفضل عن قوتنا أشتري لها به
جهازاً . فلما كان البارحة قالت أمها : اشتهيت مطرح ديباج
ومخاد ديباج ، فقلت من أين لى ذلك ؟ وجرى بينى وبينها خصومة
الى أن سألتها أن تأخذ بيدي وتخرجنى حتى أمضى على وجهى .
فلما قال لى هؤلاء هذا الكلام حق لى أن يغشى على » ! ..
فقال الصاحب : « لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ، ثم
اشترى له جهازاً يليق بذلك المطرخ » وأحضر زوج الصبية ودفع
اليه بضاعة سنية (١) ..

(١) بغية الوعاة ١٩٦ .

هكذا كان صاحب في سماحته ، وهكذا كان عطاؤه مع من لا يعرف من الناس ، انه ليعطى للعطاء ، ويهب للهبه ، ويجد في الهبة والعطاء متعة وفألا ، ويجد في المنع طيرة وشؤما . ومع ذلك تجد من أعدائه الذين لجؤا في خصومتهم محاولات لتشويه هذا الخلق المطبوع غيظا وحسدا حتى يقول بعضهم « عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة ، وما يبلغ الى الألف نادر ، وما يوفي على الألف بديع ا .

وحين تدمغهم الحقائق التي لا يستطيعون انكارها يقولون « بلى ! قد نال به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جدا ، وذلك بابتذال النفس وهتك الستر (١) » .

وهذا كلام مضطرب متناقض ، تطل منه الحقيقة السافرة على الرغم من الحسد والعداوة الظاهرة .

قال صاحب : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان ، وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا اذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم ، وقد حلّ الافطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي ، واستقبحت اغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت ألا أخلّ بما أخلّ به اذا قمت يوما مقامه ..

فكان صاحب لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار عنده . وكانت

(١) معجم الأدباء ٢٣٧/٦ .

داره لا تخلو في ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها .. وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة (١) وكان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البرّ والصدقات والمبرات ، وصلات الأشراف وأهل العلم ، والغرباء الزوار ، ومن يجرى مجرى ذلك ، مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار .

ونقل الثعالبي في اليتيمة ما رواه عون بن الحسين الهمداني التميمي في قوله : كنت يوما في خزانة الخلع للصاحب ، فرأيت في حسابات كاتبها ، وكان صديقي ، مبلغ عمائم الخز التي صارت تلك الشتوة في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين .

* * *

وكان يعجبه الخز ، ويأمر بالاستكثار منه في داره . فنظر أبو القاسم الزعفراني يوما الى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخروز الفاخرة الملونة ، فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئا . فسأل صاحب عنه ، فقيل انه في مجلس كذا يكتب ، فقال على به ، فاستبهم الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه ، فأعجله صاحب ، وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج ، فقام الزعفراني اليه ، وقال : أيّد الله صاحب :

اسمعه ممن قاله تزدد به

عجبا فحسن الورد في أغصانه

(١) يتيمة الدهر ٣/ ١٩٣ .

فقال الصاحب : هات يا أبا القاسم ، فأنشده أبياتا منها :

سوالك يعد الغنى ما اقتنى	ويأمره الحرص أن يخزنا
وأنت ابن عبياد المرتجى	تعدّ نوالك نيل المنى
وخيرك من باسط كفه	وممن ثناها قريب الجنى
غمرت الورى بصنوف الندى	فأصغر ما ملكوه الغنى
وغادرت أشعرهم مفحما	وأشكرهم عاجزا ألكنا
أيا من عطاياه تهدى الغنى	الى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين	كسا لم يخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون فى	ضروب من الخبز الا أنا
ولست أذكر لى جاريا	على العهد يحسن أن يحسنا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معن بن زائدة أن رجلا قال له « احملنى أيها الأمير » ! فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال له : لو كنت أعلم أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه !.. وقد أمرنا لك من الخبز^(١) بجبة وقميص ودراعة^(٢) وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف^(٣) ورداء وجورب ، ولو علمت لباسا آخر يتخذ من الخبز لأعطيناكه ، ثم أمر بادخاله الخزانة ، وصب تلك الخلع عليه ، وتسليم ما فضل عن لبسه فى الوقت الى غلامه^(٤) ..

(١) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم .

(٢) المطرف — بضم الميم وكسرهما — واحد (المطارف) وهى اردية من خز مربعة ولها اعلام .

(٣) يتيمة الدهر ١٩١/٣ .

كيف ينسب رجل مثل هذا الى الشح والتقتير ؟ أم كيف يجرؤ كاتب على التشكيك في سماحته ووفرة عطائه ؟ ولقد ذكر هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي — كما سبق — أن صاحب كان يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ، وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء ، بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم ، وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار والى ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب (١) ..

العدل في الرضا والسخط

ومن أخلاق صاحب البارزة وفضائله المميزة خلق الاعتدال ، وهو أساس الفضيلة وعنوان الكمال في الانسان الفاضل . ويبدو هذا الخلق واضحاً في نواح كثيرة من حياته العامة وحياته الخاصة على السواء ، كما تبدو في مبدئه وفي عقيدته ، فقد علمه الحكم وتحمل المسؤولية الترفع عن الخصام والتحلل من قيود العصبية ، ونسى نفسه وذاته وأهواءه وميوله ، حتى كان رجل الدولة أو رجل الجميع ، الذي يحمل قلباً واسعاً يتسع لأنصاره ، ولا يضيق عن خصومه ، يغفر الزلة ويتغاضى عن الهفوة ، ويتماسك عند الأحداث التي تزلزل الرجال .

فلم تقرأ في حياته العامة في السياسة والحكم شيئاً يدل على تهوّرهِ أو اندفاعه مع كبير أو صغير ، ولم تقرأ كذلك شيئاً يدل

(١) معجم الأدباء ٦/٣٠٠ .

على تهافته أو ضراسته واستصغار نفسه . وقد رأينا أنه حين أغار مع فخر الدولة على الأهواز ليصلا منها الى الأمل المرتقب في دار السلام ، دب السّعاة بينهما ، وخوّفوا فخر الدولة من أن يكون الصّاحب يعمل لنفسه حتى يتصل بحكام بغداد ، فلما استدعاه فخر الدولة من طريقه الى بغداد لبي ورجع اليه ، وشخص معه الى الأهواز كما أراد ، وحارب في الأهواز وانتصر حتى تدخل فخر الدولة وقد أساء الى جنده حتى اضطربوا عليه ولما أحسّ الصّاحب بتغيّر فخر الدولة عليه لم يزد عن الامساك والتزام الصمت ، وكان في استطاعته وقد رأى من مولاه ما رأى أن ينجو بنفسه ذاهبا الى بغداد ، ولن يعدم وسيلة يتوسّل بها الى الخليفة أو الى قلب السلطان ، أو أن يرجع الى الرّى مغاضبا ، ولكنه بقى حيث هو مع مولاه ، حتى اذا رجع اليه مستشيرا وجد عنده الرأى الذى يجمع شمل جنده ، ولو أن فخر الدولة لم يأخذ برأيه ، ولم يجد بماله . الا أن رأى الصّاحب كان الرأى الصائب ، وقد عرفت اصابته بعد تشتت جنده وخيبة حملته ، وتبدد الآمال .

ولعل الاعتدال وضبط النفس كان من أهم ما رفع الصّاحب في نفوس أمرائه ، ودعاهم الى استبقائه والحرص عليه ، ولهذا عمر في الوزارة تلك المدة الطويلة التى تزيد على ثمانية عشر عاما وهى مدة قلّ أن عمرها وزير في وزارة ، ولا سيما فى ذلك الزمان الشاثر المضطرب ، ولقد تعاقب عليه أميران ، أحدهما « فخر الدولة » الذى لم يحتمل أخويه ، ولم يحتملاه ، فثار عليهما ، وظل مقصيا ثائرا ، يحارب أخويه عضد الدولة ومؤيد

الدولة ويحاربانه ، حتى توفي مؤيد الدولة فاستدعاه صاحب
وسلم اليه السلطان ، واعتذر صاحب عن مشاركته في تحمل
مسئولية الحكم ، لولا أن ألح عليه ، فقبل المضي في طريقه
محتفظا بكرامته وترفعه .

ويبدو أثر الاعتدال في سياسته في ذلك الرضا الشامل الذي
أبدته الرعية طوال مدة وزارته ولم تقرأ في تاريخه شيئا عن عنف
أو عقوبة صارمة أنزلها بأحد مرءوسيه أو رعاياه جزاء عن مخالفة
أو محاولة للخروج .

ولقد كان صاحب يغضب اذا استغضب ، ولكنه كان سريع
الرجوع ، ومن شأن المتهورين الاندفاع وحدة الانفعال في الرضا
وفي السخط على السواء .

أما رحمة صاحب ورفقه بالناس ، وتواضعه للعلماء والشعراء
والأدباء ، ونادرتة اللطيفة ، وفكاهته الطريفة .. فان كل ذلك
لم يكن في حقيقته تصاعرا أو شعورا بالهوان ، بقدر ما كان مظهرا
من مظاهر الرغبة في تحطيم الكبرياء ، وكسر حدة المنصب وشهوة
السلطان التي يكثر أن تخدع كثيرا من رجال الحكم والسلطان ،
فلم يستسلم صاحب لتلك الشهوة التي تثير في نفوس أصحابها
الحرص على الاستعلاء ، حتى يركبوا مركب البطش والاستبداد .
ومن هنا كان التوسط والاعتدال ، فكان بين الحكام مثلا بعيد
المنال ، وكان في العلماء والأدباء عالما وأديبا يخلع رداء السلطان
الذي تنقبض له النفوس ، ثم يقول لجلسائه كلمته المذكورة :
« نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان » .. ويقول للقادم عليه

إذا كان من أهل العلم : « يا أخى تكلم واستأنس ، واقترح
وانبسط ، ولا ترع .. ان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ،
فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ،
فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف » ! ويقول لأبى واقد
الكرائيسى — وقد حضر مجلسه وهو لا يعرفه — يا أخ انبسط
واستأنس ، وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشراب مريء ،
ولن ترى الا البر !!

وذلك ان كان يدل على شيء فانما يدل على الطبع الأصيل
الذى يملك صاحبه زمام نفسه فلا يسرف بها متعاليا ، ولا ينحط
بها متداعيا ، ولكنها تتصرف فى كل موقف بما يتطلبه ، ومع كل
انسان بما يناسبه ، وهذا هو سر احترامه وهو أيضا سر محبته ،
ولقد مازحه مولاه فخر الدولة ذات مرة بكلمة رأى الصاحب
أنها نائية ، فما كان أسرع الى القول « بنا من الجد ما لا نفرغ
معه للهزل » وغادر مجلسه غاضبا ، وانكمش عنه ، حتى استرضاه
مقدرا ما ينبغى لمثله من التوقير والاحترام .

* * *

وهناك مظهر آخر لتمكن خلق الاعتدال من نفسه ، وتسلمته
على قوله وفعله وعقيدته ومذهبه ، فقد رأينا أنه كان يرى رأى
المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد الذين كانوا يقولون بخلق
القرآن ، كما سنعرض ذلك عند دراسة علم الصاحب ، وكان
يُنَاطِر لتأييد قوله بما يستطيع من الأدلة والبراهين ، ولكنه
لم يحاول مرة أن يكره أحدا على القول بما يقول ، ولا أن ينال

من مخالفى مذهبه أو رافضى قوله ، أو أن يفعل ما فعل خلفاء بنى العباس ووزرائهم من أخذ معارضيتهم للفكرة نفسها بالعسف والظلم والاستبداد ، وتنحييتهم عن وظائفهم ان كانوا من أصحاب المناصب والوظائف ، أو سجنهم وتعذيبهم ان كانوا من غير أصحاب الوظائف والمناصب ، وكأنهم كافرون بكل القيم منكرون لجميع العقائد من أجل خلاف فى رأى حول بدعة جديدة ، أو فتنة جديدة مزقت وحدة المسلمين ، وعذب بسببها كثير من أئمتهم وعلمائهم وفقهائهم وأفاضلهم .

أما الصحاب — وقد كان يقول بما يقول به خلفاء بنى العباس ووزرائهم — فانه لم يحاول أن يسلك مسلكهم ، أو أن يذهب مذهبهم فى التعصب لرأيه ، أو أخذ مخالفته بمثل تلك القسوة والصرامة ، بل كان يدلى بحجته ، ويدع لمخالفته أن يدلوا بحجته ، ولا يحاول أن يحملهم على اعتناق رأيه ، أو أن يصيبهم بسوء ، بل كان على العكس من ذلك يفتح لهم صدره ، ويوسع لهم فى مجلسه ، ويتيسّط معهم ، تاركاً لكل السان أن يقول بما يرى ، وأن يعتقد ما يرضى .

* * *

والمعروف عن الصحاب أنه كان شيعياً امامياً من الاثنى عشرية^(١) ، ولكن يبدو أن الشيعة كانت مذهبه الرسمى المعروف،

(١) لأن عدد الأئمة عندهم اثنا عشر يبدءون من الامام على كرم الله وجهه فابنه الحسن فابنه الحسين فعلى زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسى الكاظم فعلى الرضا فمحمد الجواد فعلى الهادى فالحسن العسكرى فمحمد المهدي المنتظر .

وان كان له شعر كثير يدلّ على حبه لأهل بيت رسول الله حباً
ملك عليه قلبه ، وظهر أثر هذا الحب الشديد في كثير من شعره ،
ملتصا بهم الشفاعة والزلفى الى الله كقوله مخاطباً آل رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

ان ابن عباد استجار بكم
فما يخاف الليوث في الخيس (١)
كونوا أيا سادتي وسائله
يفرح له الله في الفردائيس
كم مدحة فيكم يحبّـرـها
كأنها حلة الطواويس
وهذه كم يقول قارئها
قد ثر الدّر في القـراطيس
يملك رقّ القريض قائلها
ملك سليمان عرش بلقيس
بلغه الله ما يؤمـله

حتى يزور الامام في طوس (٢)
وقوله راجياً بحبهم الخلود في الجنان :

نبيّ والوصيّ وسيّدان وزين العابدين وبقران
وموسى والرضا والفاضلان بهم أرجو خلودى في الجنان

(١) الخيس بالكسر موضع الأسد .
(٢) طوس بالضم مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ،
تشمل على بلدين يقال لاحدهما (الطابران) والآخرى (نوفان) ،
بها قبر الرشيد ، وعلى بن موسى الرضا .

وقوله في ايثار بنى السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد قلت قولاً صادقاً بيننا وليست النفس به آثمـه
لكلّ شيء فاضل جوهر وجوهر الناس بنو فاطمه
الى أمثلة كثيرة من هذا الشعر الذى فاض به بحر الصاحب
في حبّ رسول الله وأولاده ؛ ولا يختلف مسلمان أيا كان مذهب
كل منهما ونحلته في حب رسول الله وآله والولاء لهم ولغيرهم
من ذوى السابقة والجهاد في سبيل الله من السابقين الأولين الذين
رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في
سبيل الله . فهذا قدر مشترك بين المسلمين جميعاً سواء أكانوا من
أهل السنة أم كانوا من أهل الشيعة .

ومع هذا الحب والولاء الذى يشارك الصاحب فيه المسلمون
جميعاً ، كان الصاحب معتزلياً ، وهنالك اختلافات كثيرة بين
الشيعة والمعتزلة ، والأدلة على كونه معتزلياً كثيرة ، منها تعصبه
للجاحظ الذى كان من أئمة المعتزلة كما هو معلوم ، وقد رد
الشريف المرتضى في كتابه « الانصاف » على الصاحب بن عباد
في تعصبه للجاحظ ، ونسب الشريف الصاحب الى الاعتزال ،
وقال فخر الدولة للصاحب « بلغنى أنك تقول : المذهب
الاعتزال .. » . وعدّه صاحب كتاب « فرج المهموم » من المعتزلة
ويظهر ذلك من رسالته المسماة بالابانة ، فان ظاهره فيها انكار
النص على أمير المؤمنين مع القول بأفضليته ، وهذا مذهب جماعة
من المعتزلة .. ويحكى عن صلاح الصفدى أنه قال : ومن المعتزلة

الصاحب بن عباد والزمخشري والفراء النحوي (١) وقال أبو حيان التوحيدي « والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابتة مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب » (٢) ..

ما لنا نذهب بعيدا في اثبات اعتزاله ، وهو القائل بما يقول به المعتزلة من الاختيار وانكار الجبر ، حتى قال فيه السلامي الشاعر يهجوهُ :

يا ابن عباد بن عبا س بن عبد الله حرها
تكر الجبر وأخرج ت من دينك كرها

وهو القائل بما يقول به المعتزلة من خلق القرآن ؟ وهو من المعتزلة الذين يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » ، كما قال هو عن نفسه :

العدل والتوحيد مذهبي الذي
يزهى به الايمان والاسلام
وولايتي لمحمد ولآله
ديني وحسن الدين ليس يسرام
فهناك جبل الله مضاف القسوى
وعليه من سر القضاء ختام

وكما كرر ذلك كثيرا في شعره . فلم تبق شبهة في اعتناقه آراء المعتزلة .

(١) راجع (أعيان الشيعة) ١١/٣٦٧ و ٣٦٨ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/٥٤ .

والى جانب هذا وذاك ، ذكر التوحيدى فى الامتاع أنه كان
« يتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية » (١) ..

ولا شك أن هذه الأقوال كلها تدعو الى العجب ، وتستثير
الدهش ، فكيف يكون صاحب جامعا لهذه المذاهب ؟ فيكون
من الشيعة الامامية الاثنى عشرية ، ومن الشيعة الزيدية ، ومن
المعتزلة حنفيا أو شافعيًا ؟ !

وليس من حقنا أن لنفى اعتناق صاحب بن عباد مذهباً من
هذه المذاهب أمام هذه الأخبار والنصوص المتواترة ، وأمام
كلام صاحب نفسه ، وكلام معاصريه ! وليس من حقنا كذلك
أمام هذه الأسباب أن نقول ان صاحب كان له مذهب واحد
بعينه يتمسك به ، وينكر ما عداه !

فهل معنى ذلك أن صاحب كان يجمع هذه المذاهب كلها
أو كانت تجتمع فيه مع ما قد يكون من أوجه الخلاف بينها ؟ !
ان رأى الذى أطمئن اليه أن ذلك ليس مستحيلاً كما يخیل
لبعض الأذهان التى تصرّ على أن هناك اختلافاً يستحيل معه
الاتفاق . ذلك أن الاختلاف بين هذه المذاهب مهما يكن مداه
ليس الا اختلافاً فى الفروع ، أما الأصول فانها واحدة ! كما قال
الله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

(١) المصدر السابق ٥٥/١ ؛ وياقوت ١٧٥/٦ . ونقل ياقوت
« ويتشيع بمذهب أبى حنيفة » بالباء موضع اللام . والزيدية
طائفة من الشيعة تقول بأمة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن
أبى طالب ، وقد خرج زيد على الدولة الأموية فى زمان هشام
ابن عبد الملك .

ولا تختلف هذه المذاهب الا بمقدار ما يختلف الأخ عن أخيه الشقيق في بعض الظواهر العرضية التي لا تنفى وحدة أصلهما ، وتلك الاختلافات العرضية اما جسمتها الأهواء والنزوات ، التي لا يمكن أن تمسّ جوهر العقيدة بحال من الأحوال ؛ وان كانت قد أحدثت على مر الزمان آلاما وجراحا وأفسدت بين الأشقاء ، ووسّعت الهوة ، ومزقت وشائج الوحدة وروابط الاخاء .

وقد استطاع صاحب بن عباد أن يكون كذلك ، لأن واجبه الأسمى كمشارك في تدبير الدولة وسياسة أمورها ، ورعاية رعاياها تقتضى أن يكون كذلك ؛ فهو شيعى في ولائه لآل رسول الله ، وهو معتزلى في تفكيره ، وهو يتشيع لمذهب أبى حنيفة أو لمذهب الشافعى السنين ، أو بعبارة أخرى « هو مسلم » يأخذ بأجود ما يرى أو ما يطمئن اليه عقله من هذا ومن ذاك فليس مقلدا لمذهب من المذاهب ، وانما هو آخذ بأسباب القوة كما يراها في كل مذهب من المذاهب ، ولا ضير في شرعة الانصاف أن يكون على هذا النحو من السلوك ، فان أمامه الأصول التي لا يتماهى فيها مسلمان من كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عقله يهديه ، وقلبه الذى يسير وراء عقله .

هذا ما أستطيع أن أطمئن اليه في تفسير هذه الأخبار وتعليل تلك النصوص .

وقد استطاع صاحب أن يضرب أروع الأمثلة الايجابية في ايمانه بما آمن ، وفي أخذه بما أخذ ، فنراه يؤلف كتابا يعد في طليعة ما يذكر من كتبه وآثاره ، وأعنى به كتابه الذى سماه

« كتاب الامامة » الذى يذكر فيه فضائل الامام على كرم الله وجهه ، ويثبت بأدلته وبراهينه صحة امامة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم أجمعين . وقد ذكر هذا الكتاب أعلام يعتدّ بهم ، وفى مقدمتهم محمد بن اسحاق النديم ، الذى عاصر صاحب نفسه ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها صاحب (سنة ٣٨٥ هـ) وقد قال فى الفهرست فى كتب صاحب « كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وثبتت امامة من تقدمه » (١) ، وكذلك القاضى أحمد الشهير بابن خلكان الذى ذكر فى كتب صاحب « وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ويثبت امامة من تقدمه » (٢) ، وكذلك ياقوت الذى ذكر أن هذا الكتاب « فى تفضيل على بن أبى طالب ، وتصحيح امامة من تقدمه » (٣) . وعلى هذا فليس هنالك شك فى صحة هذا الكتاب ، ولا خلاف فى موضوعه ، وهذا أكبر دليل على ما قررناه من سعة أفق الرجل ، وأخذه بما يراه وبما يقتنع به ، وينفى عنه رذيلة التعصب الذى يعمى عن الحق ، ويفتح للأهواء سبيلها الى الضلال . وقد كان هذا فى حقيقته مؤكدا لما قلناه من قبل عن

(١) الفهرست لمحمد بن اسحاق النديم ١٩٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

(٣) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ .

فضيلة الاعتدال التي كان يتميز بها صاحب بن عباد بين فضائله
الكثيرة ، ومواهبه المتألقة .

ويؤكد هذه الفضيلة أيضا موقفه من القاضي « عبد الجبار
ابن أحمد » وهو سنّي (١) معتزلي ، فقد أعجب بعلمه وفضله
حين رآه في بغداد ، فلما عاد صاحب الى الري ، استدعاه وكرّمه
وقدمه ، ثم ولّاه قضاء الري ، ثم أضاف اليه بعد ذلك قضاء
طبرستان وجرجان وما يليهما من الأعمال ، غير متعصب لرأى ،
ولا متشيع لمذهب ، ولا خاضع لهوى من الأهواء ، الا هوى
الحق ، ومنهج العدل .

* * *

وأخيرا فلعل فيما أبرزناه في هذا الفصل عن أخلاق صاحب
يلقى ضوءا على ما كان يتمتع به من الفضائل النفسية التي رفعت
وخلدت اسمه في سجل الخالدين ، ولعله يعين على تعرف العوامل
والمواهب التي تضافرت على تكوين شخصية فذة من أفذاذ
التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى .

(١) أردنا بالسنينة معناها العام ، لا معناها الذى يقابل
الاعتزال .

الفصل الخامس

الصاحبُ الأديبُ

الصاحب الأديب

كان الصاحب أحد أعيان الأدباء الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه ، وبه عرفوا وذاع صيتهم بين الناس ، وقد فاق في أدبه وفي تنوع فنونه أكثر أدباء عصره كتابة وشعرا .

ولن نظلم الحقيقة إذا قلنا ان ابن عباد كان آدب من عرفنا من الوزراء الذين سما بهم هذا الفن الرفيع الى أرفع مكان رسمي في الدولة بعد منصب الخلافة والملك ، وهو منصب الوزارة .

وقد شهد للصاحب بذلك الفضل أكثر الناس عداوة له ، وألدهم خصومة ، وأشدهم حقدأ عليه ، وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي الذي كتب بعد أن فرغ من الاعتذار من التصدي لثلبه أن أول ما يذكر من ذلك ما يدل به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ، وقوة جأشه ، وشدة منته (١) . .وقال أبو منصور الثعالبي في نعته : « همته في مجد يشيده ، وانعام يحدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطاردي في البلاغة ، وواسطة عقد الدهر في السماحة ، جلب اليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل خطاب جزل ، وقول فصل ، وصارت حضرته مشرعا

(١) المنة بضم الميم وتشديد النون القدره والقوة .

لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسته مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعدّ في السحر ، ويكاد يدخل في حد الإعجاز وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب (١) .. وقال فيه الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطى : « وهذا الصاحب ممن اشتركت الألسن في وصفه ، وسلم اليه أهل البلاغة ماعاناه من ثره ونظمه ، وحسن ترتيبه ووصفه (٢) .. ورثاه الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى النقيب بقصيدة طويلة من عيون المراثى قال فيها :

واها على الأقلام بعدك انها لم ترض بعد بنان كفك آلا
أفقدن منك شجاع كل بلاغة ان قال جلتى في المقال وجالا
من لو يشا طعن العدا برءوسها وأثار من جريانها قسطالا (٣)
ووصفه محمد بن اسحاق النديم بأنه « أوحده زمانه ، وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر (٤) » ..

* * *

ولقد كان الصاحب أدبيا برز في فنون الأدب ، فكان كاتباً من كبار الكتاب ، وشاعراً من فحول الشعراء ، وناقدا عارفاً بأصول الأدب . وقلما رأينا أدبيا اجتمع له من أسباب القدرة والتمكن

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/٣ .

(٢) أنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٠٢/١ .

(٣) القسطل والقسطال والقسطلان : الغبار .

(٤) القهرست : ص ١٩٤ .

من فنون القول كما رأينا صاحب الذى زاحم كل مختص فى
فنه حتى حاذاه وفاقه ..

ومرجع ذلك الطبع الموهوب، والأدب المكسوب ، والأساتذة
العارفون الذين جلس اليهم وتلقى عنهم أصول الفن ، مع رغبة
شديدة فى المعرفة ، وحرص على الاطلاع الواسع العميق على
غور الشعر وعيون النثر حتى بلغ من ذلك الغاية ..

وقد كان من أساتذته علماء يشار اليهم بالبنان فى تنوع
المعرفة ، ويعترف لهم بالتبحر فى الأدب وفى مقدمتهم أحمد بن
فارس الذى وصف بأنه من أعيان أهل العلم ، وأفراد الدهر ،
وأنه يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء ، وهو
صاحب الكتب البديعة والرسائل المفيدة والأشعار الجيدة ؛ ولعل
الصاحب بن عباد كان أشبه تلاميذه به فى العلم ، وان فاقه فى
فن الكتابة وفن الشعر .

الصاحب النائر

وفى طليعة أساتذته الذين أخذ عنهم أصول فن الكتابة
أبو الفضل محمد بن الحسين الذى اشتهر بابن العميد ، والذى
وصفه الثعالبي بأنه الأوحد فى العصر فى الكتابة ، وجميع أدوات
الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ،
والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، وكان يدعى الجاحظ
الأخير ، والأستاذ ، والرئيس ، يضرب به المثل فى البلاغة ،
وينتهى اليه فى الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل

وجزالة الألفاظ وسلاستها ، الى براعة المعاني وثفاستها .. وما أحسن ما قال له صاحب — وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها — : « بغداد في البلاد ، كالأستاذ في العباد » .. وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

وقد أجرى ذكر عبد الحميد وابن العميد معاً ، وجعلهما مثلاً ، أبو محمد عبدالله بن أحمد الخازن الأصبهاني في قصيدة فريدة مدح بها صاحب ، فلما انتهى الى بلاغته قال :

دعوا الأقاصيص والأنباء ناحية فما على ظهرها غير ابن عباد
والى بيان متى يطلق أعنته يدع لسان اباد رهن أقياد
ومورد كلمات عطلت زهرا على رياض ودرءا فوق أجياذ
وتارك أولاً عبد الحميد بها وابن العميد أخيراً فى أبى جاد

ويتمثل فى هذا العصر الذى أنجب أبا الفضل بن العميد وتلميذه صاحب بن عباد ازدهار الحضارة ، ووضوح أثرها فى فن الكتابة ، التى أخذ أسلوبها يميل الى الزخرف والتأنق والصنعة ، فامتازت كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع التفسير الفقرات لا سيما الرسائل السلطانية ، وباستعمال الجناس وبعض أنواع البديع ، وباستخدام معانى الشعر وألفاظه فيها بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى كادت الرسائل تكون شعراً منشوراً ، وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشأنهم ، والاقتباس من كلام البلغاء ، وتضمين الأفيذاذ من أبيات الشعراء . ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم

هذه الطريقة من الفرس ، وهم أميل الناس الى الحلية اللفظية ، والغلو في عبارات التمجيد والتعظيم .. ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه ، وحسن استعماله في مواضعه ، وجمال أسلوبه .

وكان من الممكن أن تكون هذه الطريقة غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ، ويسوء استعمالها بعد عصر الذين اتحلوها ، اذ لم يكن من بعدهم على مثل سنتهم في الاحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها ، فأخطئوا التقليد في اللفظ ، كما حرموا الاجادة في المعنى .

وكان ابن العميد أقلهم التزاما للمسجوع ، وأقربهم الى اتحال المطبوع . وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتاً منشورة ، ويلمح فيها الى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة ، فكان منها فصول سائرة ومعان نادرة^(١) . ثم يكون صاحب بن عباد ثانياً ابن العميد في حليته ، وأبلغ من سلك طريقته ، غير أنه أولع بالجناس والسجع ، وكان تياها شديد العجب بنفسه ..

والحقيقة أن صاحب أسرف في ولوعه بالسجع اسرافاً عجيباً ، حتى رنق هذا السجع المتتابع رونق كلامه وحسن نظامه . والتألق في الصياغة ، وتخير الألفاظ ، وجودة التأليف ، وحسن التنسيق والرصف ، كل ذلك مطلوب ، بل هو ضروري في الفن الأدبي ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ، للأستاذ أحمد الاسكندري ٢١٧ .

لأنه الذى يميز فنية الأديب صاحب القلم أو صاحب اللسان من غيره من الذين يصطنعون اللغة ويعبرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم . ففوة العبارة ومثانة سبكها وجودة رصفها وتخير ألفاظها دليل على تلك الفنية التى نشدها فى الأعمال الأدبية ، وفى الجنس والسجع والازدواج موسيقى تأنس بها النفس ، وتطرب لها الأذن ، ولكن تتابع النغم الرتيب ، يشعر بالتكلف ومجافاة الطبع ، لأن الفن جمال ، وليس جمال الفن الأدبى محصورا فى هذا الضرب من التثنيق والتنسيق حتى يفرغ الأديب ما فى كنيته فيه ، فيطغى على ما يتطلب فى العمل الأدبى من فخامة المعانى وروعة الخيال .

* * *

وقد نجد فى كلام صاحب ، بل فى كثير من كلامه ، ما شئنا من وفرة المعنى وروعة الخيال ، غير أن تلك الموسيقى المترادفة فى الأسلوب تطغى على ما تتضمنه العبارة من أسباب القوة فى المعانى وأصالتها إذا كانت ذات قوة وذات أصالة ، فليس الفن الأدبى موسيقى فقط ، وإن كانت الموسيقى مطلوبة فيه ، ولكنها الموسيقى المطبوعة التى لا تشعر بالتكلف والتعمل فى طلبها ، ولا تتغلب على سائر الخصائص المميزة لفن الأدب .

ومن هنا أساء سجع صاحب الى أدبه ، وشوهت صناعته محاسن فنه ، وكان فى هذه الإساءة والتشويه اماما للذين كانوا بعده فى عصور الظلمة والجهل ، والذين صار أدبهم كالطلاء على غير بناء ، وكالصدى الذى لا يرجع الى أصل . وهى على كل حال طبيعة العصر التى تؤثر فى كل شىء فيه .

ولقد وجد أعداء الصاحب وحسّاده في ذلك الغلوّ مجازاً
للنيل من أدبه ، والغض من طبعه ، فنسبوه الى التكلف ، ووصفوه
بعضهم بالرقاعة .

وأكبر الظن أن الذي دفع الصاحب الى هذا المنهج غير
ما ذكرنا من طبيعة عصره وأسلوب الذين سبقوه من أساتذته ادلاله
بثقافته اللغوية ، وتلك الصنعة تقتضى ثقافة لغوية واسعة ، ومعرفة
بالألفاظ المتسقة والمتجانسة والمتوازنة ، والقدرة البارعة على
تأليفها ، وذلك ما لا يحذقه كثير من أرباب الصناعة .



ولكن المزية التي توافرت للصاحب ولم تتوافر لغيره ، هي
تلك القدرة الفائقة على هذا التأليف المصنوع من غير روية
ولا تحضير ولا تحبير ، حتى أصبحت تلك الصنعة طبعاً فيه ،
وحتى أصبح غالب كلامه المرتجل يجرى هذا المجرى من الكلام
الأنيق المسجوع ، فتراه يقول لأحد رجاله الذين يتولون الكتابة
والحساب ، ولم يعجب الصاحب ما كتبوه وما حسبوه : « أهذا
حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟
أهذا تحصيل ؟ والله لولا أنى ريبتك فى دارى ، وشغلت بتخريجك
ليلى ونهارى ، ولك حرمة الصبا ، ويلزمنى رعاية الأبأ ، لأطعمتك
هذا الطومار^(١) ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدبت بك كل كاتب
وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، أمثلى يموءه عليه ؟
ويطمع فيما لديه ؟ وأنا خلقت الحساب والكتابة ! والله ما أنا م لينة

(١) الطومار : الصحيفة ، والجمع طوامير .

الا وأحصل في نفسى ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق . أغرك منى
أنى أجرت رسنك^(١) ، وأخفيت قبيحك ، وأبديت حسنك ؟
غير هذا الذى رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك
من الآخرة قد رجعت ، فزد فى صلاتك وصدقك ، ولا تعول
على قحتك وصلابة حدقتك ..

وجرى يوما فى مجلسه ذكر أبى سعيد الأبهري المتكلم ،
فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون ، جاءنى بوجه مكشح ،
وأنف مفلطح^(٢) ، ورأس مسطح ، ولسان مكبح^(٣) ، فكلمنى
فى مسألة الأصلح ، فقلت له : اعزب — عليك لعنة الله — لقيت
الأبرح^(٤) ، الذى يلزم ولا يبرح .

وكثيرا ما كان يدعوهُ تطلب السجع الى استعمال الغريب
الموحش ، المتنافر القبيح ، وقد شتم يوما رجلا فقال « لعن الله
هذا الأهوج الأعوج الأفلج الأفحج^(٥) ، الذى اذا قام تخلص^(٦) ،
واذا مشى تدحرج ، واذا عدا تفجفج^(٧) » .

(١) الرسن الجبل ، وهذا كقولهم « حبلك على غاربك » يريد
تركتك لنفسك^١

(٢) أى عريض مفرطح .

(٣) أى لا يقدر على الابانة ، أى أن لسانه كالدابة اذ كبحتها

باللجام ؛ يقال كبح الدابة واكبحها منعها من السير بشد اللجام .
(٤) دعا عليه بالشر والشدة .

(٥) الأفحج ذو الفحج ، وهو تدانى صدور القدمين وتباعده
العقبين .

(٦) أى اضطرب .

(٧) أى انفرج ما بين رجليه عند المشى ، وهو أقبح من الفحج .

ودخل يوما دار الامارة الفيرزان المجوسى ، فقال له فى شىء خاطبه فيه : « انما أنت مَحْشٌ » (١) مجش مخش ، لا تهش ولا تبش ولا تمتش . » (٢) ! فقال الفيرزان : « أيها الصاحب ، برئت من النار ان كنت أدري ما تقول ! ان كان رأيك أن تشتمنى فقل ما شئت بعد أن أعلم ، فان العرض لك ، والنفس لك فداء ، لست من الزنج ولا البربر ، كلمنا على العادة التى عليها العمل ، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ، ولا من أهل دينك من أهل السواد ، وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط » ! فقام الصاحب مغضبا .

وقال ابن عباد لشيخ من خراسان فى شىء جرى : « والله لولا شىء لقطعتك تقطيعا ، وبضعتك تبضيعا ، ووزعتك توزيعا ، ومزعتك تمزيعا ، وجزعتك تجزيعا ، وأدخلتك فى خزائنك — ثم وقف ساعة ، ثم قال : — جميعا » (٣) ..

قال أبو حيان فى وصف هذه الحكاية وهو راويها : وملح هذه الحكاية ينبتر فى الكتابة ، وطربها ينقص فى الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ ، وملاحة الشكل فى التحرك والتثنى ، والترنح

(١) المحش بكسر الميم الشجاع ، والمجش بكسر الميم والمجشة الرحي ، وأصل المعنى فى هذه المادة الخشونة والمخش بكسر الميم الجرى على العمل فى الليل ، والفرس الجسور .

(٢) أى لا ينال منك غرض .

(٣) يريد أنه أتم السجع بقوله « جميعا » بعد اذ وقف ، ولو أنها فضلة كلام تافهة ، ولكنه أغرم بالسجع ، فلما وقف جرت على لسانه فقَالَهَا .

والتهادى ، ومد اليد ، ولىّ العنق ، وهز الرأس والأكتاف ،
واستعمال الأعضاء والمفاصل .

* * *

وكان كثير من سجع صاحب يدعو الى العجب ، ويستوجب
الضحك حقا ، فقد قال يوما عن أبى الفضل ابن العميد انه كان
« سيدا لم يشق غبارنا ، ولا أدرك شوارنا ^(١) ، ولا مسح
عذارنا ^(٢) ، ولا عرف غرارنا ^(٣) ، لا فى علم الدين ، ولا فيما
يرجع الى نفس المسلمين . فأما ابنه — يعنى أبا الفتح — فقد
عرفتم قدره فى هذا وفى غيره ، طباش ، قلاش ^(٤) ، ليس عنده
الاقاش ^(٥) وقماش ، مثل ابن عياش ، والهروى الحواش ، وولدت
والشعرى فى طالعى ، ولولا دقيقة لأدركت النبوة ، وقد أدركت
النبوة اذ قمت بالذب عنها ، والنصرة لها ، فمن ذا يجاريننا ،
أو يبارينا ، ويغارينا ^(٦) أو يمارينا ويشارينا ^(٧) ؟

ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ، ومجاوزته الحدفيه

(١) يقال : للدابة شوار ، اذا عرضتها للبيع باجرائها أمام
المشتري .

(٢) العذار جانب اللحية اى الشعر الذى يحاذى الأذن ، يريد
انه ليس له شعر فى اللحية فيمسه .

(٣) الغرار المثال ، يريد انه لم يبلغ أن يكون مثالا يحتذى كالذى
نحن عليه .

(٤) الطباش الطائش ، والقلاش المحتال .

(٥) القاش اسم للقماش كأنه سمى باسم صوته .

(٦) يفاريننا من غاراه اذا لج معه فى الخصومة .

(٧) المشاركة المجادلة .

بالافراط قوله يوما « حدثني أن ناش ، وكان من سادة الناش »
 جعل السين شيئا ، ومر في هذا الحديث ، قال أبو حيان ان
 صاحب سئل عن هذا فقال : هذه لغة ! وكذب ، وكان كذوبا (١)
 قال : وكان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجهد والهزل
 يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيبي :
 أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذاك ، لو أنه
 رأى سجة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها جبل الدولة ،
 ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ،
 وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل
 يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبا بجميع ما وصفت من عاقبتها .

ثم يقول : بالله يا أصحابنا حدثوني : أهذا عقل رئيس ؟ أم
 بلاغة كاتب ؟ أم كلام متماسك ؟ لم تجنون به ؟ وتتهالكون عليه ؟
 وتغيظون أهل الفضل به ؟ . هل هناك الا الجهد الذي يرفع من
 هو أنذل منه ، ويوقع من هو أرفع منه . ولقد حدثت هذا الحديث
 أبا السكّم الشاعر ، فأنشدني الشاعر :

سبحان من أنزل الدنيا منازلها	وميز الناس مشنوءا وموموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه	وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
كأنه من خليج البحر مغترف	ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذي ترك الألباب حائرة	وصير العاقل النحرير زنديقا

* * *

والحقيقة أنه لو كان الذى رواه أبو حيان من كلام الصاحب من أمثال مامر صحيحا ، لكان الحكم الذى أصدره عليه صحيحا ، ولكانت الأوصاف القبيحة التى وصفه بها من الرقاعة والجنون وغيرهما صحيحة كذلك . أما أن يكون أبو حيان قد افتعل هذه الأمثال ليشوه تاريخ الرجل ويزرى بأدبه وفنه ، فعلم ذلك عند الله ، وحسابه عند الله ، لأننا لم نقرأ هذه المثل الا فى حكايات هو راويها ، وأمامنا من كتب عنه الفصول الطوال كأبى منصور الثعالبى الذى كتب فى الصاحب وفى أخباره ونوادره وفى مجالسه وشعره ونثره قدرا كبيرا^(١) ، لا نقرأ فيه مثل هذا الأدب الغث الذى رواه أبو حيان ، وكأن أبا حيان كان ولوعا بمثل تلك الطرائف يرويها أو يؤلفها بقلمه البارع ، وخياله الخصب ، ويتم رواياته برواية أخرى لا تقل عن أمثال ما مرّ طرافة ، فيذكر أنه بلغ من ركافة الصاحب أنه كان عنده أبو طالب العلوى ، فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه ويرويّه يبلق^(٢) عينيه ، وينشر منخريه ، ويثرى أنه قد لحقه غشى ، حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ وما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقنى ويؤنقنى^(٣) حتى

(١) استغرق الجزء الذى كتبه الثعالبى عن الصاحب فى «يتيمة الدهر» نحو مائة صفحة كبيرة (١٨٨ - ٢٨٦) من الجزء الثالث « مطبعة حجازى - بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد »

(٢) يقال بلق الباب وأبلقه اذا فتحه كله .

(٣) يؤنقنى : يعجبنى .

فارقتى لبتى ، وزايلنى عقلى ، وتراخت مفاصلى ، وتخاذلت عثرا
قلبى ، وذهل ذهنى ، وحيل بينى وبين رشدى !!

فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ، وينتفش ويضحك عجباً
وجهلاً ، ثم يأمر بالحباء والتكرمة ، ويقدمه على جميع بنى آية
وعمه ..

ثم يسوق أبو حيان بعد هذه المقدمات نتيجة يقره عليها كل
من يصدق كلامه ، وهى « من ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن
أشبه ، وبالصبيان الضعاف أمثل » (١) .. !

أم ترى أن ابن عباد كان يتفكه أو يتندر بمثل هذه الأقوال
فى مجالسه التى كانت تتسع لآيات الجد ، كما كانت لا تضيق
بفنون من الفكاهة والمجون ؟ ولم يكن يدرى أن هنالك حساداً
يحصون عليه كلماته ، ويجعلون من سيئاته حسنات ؟

كل ذلك تتسع له أبواب الافتراض ، وتنبسط أمامه وجوب
الاحتمال ! ولكن هل كان هذا التكلف البادى فى مثل ما سقناه
هو طبيعة أدب الصاحب ؟ أو أنه وحده يمثل خصائص أسلوبه فى
الكتابة ؟

* * *

ان بين أيدينا كثيراً من ثثر الصاحب فى رسائله ومقاماته ،
وهى ترقى به وبفنه الكتابى الى الذروة والسنام فى عالم الفن
الكتابى والكلامى . وهالك شيئاً من نمط كتابته ، لتقف بنفسك

(١) معجم الأدباء ٦/٢٣٨ .

على حظ الصاحب من الأدب ، وتنزله ما هو أهل له من رفيع المنزلة بين الأدباء وحملة الأقلام . وهو فصل من رسالة بعث بها الى ابن العميد جوابا عن كتابه اليه في وصف البحر :

« وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاین من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها ، والخوف برأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، اذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، واذا لاحت غرر المطالب الكثيرة حبس اليهم الغرر^(١) . وعرفت من تمنيه كونى عند ذلك بحضرته ، وحصولى على مساعدته . ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل ، وتتلطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر . ولا فضيلة عندى أعظم من اكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مفاخرة ، وأنفس في جواهره من وصف الأستاذ له ، فالى قرأت منه الماء السلسال لا الزلزال^(٢) ، والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفره سعة صدره ،

(١) الغرر بفتح الغين - الخطر .

(٢) يقال ماء سلسل وسلسال وسلاسل . سهل الدخول في الحلق

لعدوبته وصفائه .

قالو فعل ذلك لرأى البحر وشلا^(١) لا يفضل عن التبرض^(٢) ،
وثمدا^(٣) لا يكثر عن الترشف :

وكم من جبال جئت تشهد أنك الـ
جبال وبحر شاهد أنك البحر

وكتب في تنوير باكورة خلاف قد نور ؛ وأهدى قضيبا منورا
منه :

« لتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول أن
تستقصى ، منها أنه أول ثغر ييسم عنه الربيع ويضحك ، ودرء
يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله اذكّار بقدود الأحباب ،
وتهيج لسواكن الاطراب ، وحمل الى قضيب منه ورداته متعادلة ،
ولذاته متقابلة ، فأنفذته مع رقعتي هذه اليك ، وسألت الله أن
يعيده ألف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع	مستخص بأحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء إلينا	وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من أحب عرفا وظرفا	واهتزازا يثير ماء ضلوعى
رقعة ما نظمت نحو بديع الـ	مجد حاكى الربيع حسن صنيعى

-
- (١) الوشل الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره .
(٢) البرض العليل ، وبرض الماء خرج وهو قليل كابتراض ،
والتبرض أخذ القليل .
(٣) الثمد - بسكون الميم وفتحها - الماء القليل .

وكتب رقعة مع أقلام أهداها ؛ وأكبر الظن أنه أهداها الى
أستاذه أبى الفضل بن العميد : « قد خدمت دواة مولاي بأقلام
تتخفف بأنامله ، وتتحمل نفحات فواضله ، وتأنقت في بريها فأنت
كمناقير الحمام ، واعتدال السهام ، خمسة منها مصرية مقومة ،
عليها حلل مسهمة ، وعشرة منها بيض كأيديه ، وأيام مؤمليه ،
والله يديم له مواد نعمته ، ويوفقني لشرائط خدمته » .

وهذه رسالة كتبها الى أبى على الحسن بن أحمد في شأن أبى
عبد الله محمد بن حامد . قال الثعالبي : وسمعت الأمير أبا الفضل
عبيد الله بن أحمد يسردها ، فزادني جريها على لسانه ، وصدورها
عن فمه اعجابا بها^(١) ، وهى :

« كتابى هذا وقد أرخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله ،
ونحن على الرحيل غدا ان شاء الله اذا مدّ الصباح غرره ، قبل أن
يسبغ حجوله ، ولولا ذلك لأطلتته كوقوف الحجيج على المشاعر ،
ولم أقتصر منه على زاد المسافر ، فان المتحمل له وسيع الحقوق
لدى ، حقيق أن آتعب له خاطرى ويدي ، وهو أبو عبد الله
الحامدى أعزه الله تعالى ، كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهيد
أبى سعيد الشيبى السعيد ، رفع الله منازلهم ، وقتل قاتله ، يكتب
له ، فأنسنا بفضلهم ، وأنسنا الخير من عقله ، فلما فجع بتلك
الصعبة ، وبما كان له فيها من القربة ، لم يرض غير بابى مشرعا ،
وغير جنابى مرتعا ، وقطع الى الطريق الشاق ، مؤكدا حقا لا يشق

(١) يتيمة الدهر ٢٤٩/٣ .

غباره ، ولا ينسى على الزمان ذماره . وكنت على جناح النهضة
التي لم يستقر نواها ، ولم تبين حصباها ، ولم تلق عصاها ، فأمرج
الحرّ المبتدأ الأمر ، القريب العهد بوطاة الدهر ، حامل عليه
بالمركب الوعر .

« فرددته اليك يا سيدي لتسهل عليه حجابك ، وتمهد له
جناحك ، وتترصد له عملا خفيف الثقل ندىّ الظل ، فاذا اتفق
عرضته عليه ، ثم فوضته اليه . وهو الى أن يتفق ذاك ضيفي وعليك
قراه ، وعندك مربعه ومشتاه . ويريد اشتغالا بالعلم ليزيده في
الاستقلال ، الى أن يأتيه ان شاء الله خبرنا في الاستقرار ، ثم له
الخيار ، ان شاء أقام على ما وليته ، وان شاء لحق بنا ناشرا
ما أوليته . وقد وقعت له الى فلان بما يعينه على بعض الانتظار
الى أن تختار له — أيديك الله — كل الاختيار ، فأوعز الى
بتعجيله ، واكفني شغل القلب بهذا الحرّ الذي أفردني بتأمله ،
ان شاء الله تعالى » .

وهذه رقعة كتبها الى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد
الجرجاني عند وروده باب الريّ وافدا عليه :
تحدثت الركاب بسير أروى الى بلد حططت به خيامي
فكدت أطيّر من شوقي اليها بقادمة كقادمة الحمام
أفحق ما قيل أمر القادم ؟ أم ظن كأمانى الحالم ؟ لا والله ،
بل هو درك العيان ، وانه ونيل المنى سيّان ، فمرحبا أيها القاضي
براحلتك ورحلك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك . ويا سرعة ما فاح

نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريتاك ، فحث المطى
تزل غلتى بسقياك ، وتزح علتى بلكياك ، ونثص على يوم الوصول
لنجله عيداً مشرفاً ، وتتخذهُ موسماً ومعرفاً ، ورد الغلام أسرع
من رجوع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك
الصبا في عقل وأسر :

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوى يا زياد بن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أناها بلكياك قد زحزن حر الهواجر

* * *

وكتب رقعة الى صديق أهدى اليه مصحفا :

البرّ — أدام الله الشيخ — أنواع ، تطول به أبواع وتقصّر
عنه أبواع . فان يكن فيها ما هو أكرم منصبا ، وأشرف منسبا ،
فتحفة الشيخ اذ أهدى ما لا تشاكلة النعم ، ولا تعادله القيم ،
كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهدايه
وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع دون
معارضته على الشفاء ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه
الثقلان^(١) ، وبقي ما بقى الملوان^(٢) ، لائح سراجيه ، واضح
منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ،
ويذل كل جبار عنيد . وفضائل القرآن لا تحصى في ألف قران ،
فأصف الخط الذى بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة
الأقسام ، وزاد في نخوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره

(١) الثقلان : الانس والجن .

(٢) الملوان : الليل والنهار .

آثاره ، وعينه فراره ، وحقا أقول انى لا أحسب أحدا ما خلا
الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع فى استكتابها
ما ابتدعت ، وان هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الحجج
على العمرة .

أدب العهود :

كانت رسائل الدولة ذوات البال تصدر من ديوان الرسائل
واليه ترد ، ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة الا فحول
البلاغة ، وأهل العلم والأدب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم
الملوك . وكان النظر فى ديوان الرسائل غالبا للوزير ، اما مستقلا
به ، أو مستنيبا عنه ، لموضعه من ضبط أسرار الدولة ، وحفظ
كرامتها ، وتفخيم شأنها فى أعين الرعية والملوك ، فكان وزراء
الأمراء هم شيوخ الكتاب وأساتذتهم .

وقد تعددت موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة
والرسوم العديدة التى استحدثت فى الدولة ، من كتابة بيعة
لخليفة أو ولي عهد ، أو عهد لوال أو قاض ، أو منشور بإعلان
أمر سياسى أو دينى .. وبعض هذه الأمور ككتابة عهد الوالى
أو القاضى كان يكتب فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عصر بنى
أمية ، غير أنه كان يكتب موجزا ساذجا ، يقتصر فيه على نص
التولية وموجبها بإيجاز . أما فى عصر الدولة العباسية ، فقد كان
كل نوع من الأنواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب ، فالبيعة
كانت تشحن بالايان المحرجة التى تفنن الكتاب والفقهاء فى

اختراعها ، وكان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة ، وما يجب للأمة على الخليفة . وعهد الوالى أو القاضى يفصل فيه الصفات الحسنة التى رغبت الخليفة فى اختياره ، وعدد البلدان والنواحي التى يتولاها ونوع العمل الذى يعمله من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء ، والوصايا بالأمور التى يجب أن يأخذ بها الرعية ، وغير ذلك مما لم يكن له أصل ، أو كان له أصل غير مستوفى (١) .

ذاك هى الرسائل الديوانية التى برزت بين فنون الكتابة الانشائية ، بل ان هذه الرسائل الديوانية هى التى أبرزت عددا كبيرا من رجال القلم فى أدبنا العربى ، وعلى قدر خطورة هذه الرسائل وموضوعاتها كان خطر كتابها وعظم شأنهم فى الحياة العامة بين مدبرى شئون الدولة ومصرّفى أمورها ، وكذلك فى حياتهم الخاصة اذ ترتب على مزاولتهم هذا الفن بروز شخصياتهم وتقديمهم على أكثر طبقات المجتمع .

ولقد كان صاحب من أولئك الوزراء الكتاب الذين ارتقى بهم القلم الى درجة التدبير ، فلما وصلوا الى درجة التدبير والتصريف لم ينسوا ماضيهم الفنى فى صناعة القلم ، بل اتخذوا من هذه الصناعة ما يدعم الوظيفة والمنصب ، وهكذا خدم القلم الدولة فدبّر أمورها ، وحل مشاكلها ، وخدمت الدولة أصحاب القلم ، فبلخوا أقصى ما يتمناه أصحاب الصناعة الفنية .

* * *

(١) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى ، للأسكندرى :

وقد قرأنا بعض النماذج للرسائل الاخوانية التي دبجتها
يراعة الصاحب في الوفاء وفي الوصف وفي الشفاعة وفي الشكر
وفي بث الأشواق . وهى رسائل تفيض بشرح العواطف الانسانية،
وتعبّر عن المشاعر التي يجدها الكاتب نحو مظاهر الحياة ونحو
الأحياء .

وبقى أن نذكر شيئاً من رسائله الديوانية ، في ناحية واحدة،
ولكنها أهم نواحيها الكثيرة ودواعيها المتعددة ، وتلك هى
« العهود » التي كان يكتبها الصاحب عن الخليفة أو عن السلطان
في اسناد بعض أعمال الدولة الى بعض الرجال التي اجتمعت
فيهم الصفات التي ترشحهم لولاية تلك اعمال .

وسنرى الصاحب في كتابة هذه « العهود » كما عهدناه في
سائر كتاباته الاخوانية أو غيرها رجل الصنعة البليغ ، ولكن هذه
الصنعة التي أصبحت طبعاً عند الصاحب حتى في كلامه الجارى
وفي حديثه المرسل ، تنوارى هذه الصنعة ، وكأنه لم تكن صنعة ،
أمام فيض المعانى البارزة والأفكار الواضحة والتعاليم الرشيدة،
فلا يبدو أبداً أن فى هذه العهود عبارة مقسورة أو لفظاً مجتبأ ،
وانما هى العبارة الناصعة المتحملة لأجود المعانى وأوضحها . وقد
استجمعت تلك العهود سائر الخلال المستحبة ، والمثل المتمناة في
شاغلي تلك المناصب ، ومن تسند اليهم تلك الأعمال ، بحيث
يعزّ على الباحث أن يجد نقصاً اذا طلبه ، أو يشعر بخطأ فيما
ينبغي أن يكون كما تصوره الصاحب من المثل والفضائل والحقوق
وللتكاليف والآداب التي تتطلبها الانسانية ، وتقتضيها رعاية

العمل والنهوض به على أكمل وجه . وتلك ميزة كبرى للعهد
التي كتبها صاحب ، ففيها دليل عقله ، وحسن تقديره ، وفيها
أروع المثل لبناء الأمة الفاضلة ، والدولة الناهضة .

ونسرع بك الى نموذج من هذه « العهود » كتبه صاحب
الى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد ، حين عينه فى ولاية القضاء
فى جرجان وطبرستان ، وما يليهما من أعمال ، بالاضافة الى قضاء
الرى الذى كان يتولاه من قبل . وقد أشرنا الى فاتحة هذا العهد
عند كلامنا على مدى وفاء هذا القاضى لذكرى ولى نعمته صاحب
ابن عباد ، ونذكر بغيته فيما يأتى :

(١) تقوى الله :

« أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات
المردية ، الداعية من استشعرها لباساً ، وجعلها قاعدة وأساساً
الى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأرضى الأحوال ،
الكاسية من اطرحها وراء ظهره ، وصرفها عن سبيله وأمره ،
خسران الصفة ديناً ودنياً ، وانحلال الربة أولى وأخرى ، لا
تقبل منه حسناته ، ولا تكفر عنه سيئاته ، يوم تسود وجوه
المجرمين ، وتبيض وجوه المؤمنين » وينجى الله الذين اتقوا
بنفازتهم لايمسّهم السوء ولاهم يحزنون .

(٢) كتاب الله :

« وأمره بأن يجعل مصباحه فى ظلم الأمور ، واستنجاهه فى
الحكم بين الجمهور ، كتاب الله الذى أنزله ، وبيّنه وفصله ،

وأودعه ، ما قدم وما حدث ، وانصبه حجة على من ورث وورث ،
 لاتنزف بحاره ، ولا تبلغ أغواره ، ولا تكسف أضواؤه ، ولا
 تخلف أنوارؤه (١) ، ولا تلتبس مذاهبه ، ولا تنقضى عجائبه ،
 قاطعة أحكامه ، ساطعة أعلامه ، كاف الزامه ، اليه يرجع كل
 ذاهب ، وبه يقمع كل ناكب ، ليس عن محجته معدل ،
 ولا يستبدل . بحجته مستبدل « تنزيل من حكيم حميد » .

(٣) سنة رسول الله :

« وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم
 وعلى آله — تالية كتاب الله في الاقتداء ، وجارية مجراه في
 الاقتفاء ، اذ كانت العروة التي لاتنفصم ، والعمدة التي لا تنشلم ،
 والصراط الذي لا يميل ، والبرهان الذي لا يستحيل ، قد رتبها
 الله بيانا لما أشكل ، ولسانا لما أعضل ، وعيانا لمن غاب ، وإيقانا
 لمن ارتاب ، فالتمسك بها ناج يوم الخيفة ، راج للدرجات
 المنيفة ، والمخل بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه ، ومن يرد الله
 به خيراً يهيء له من أمره رشداً .

(٤) إجماع المسلمين :

« وأمره بأن يتلقى الاجماع بالاتباع ، ويحترس معه من
 الابتداع والاختراع ، فقد خص الله بفضيلته أمتنا دون الأمم

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب
 مع الفجر وطلوع رقيبته من المشرق ، يقابله من ساعته في كل ثلاثة
 عشر يوماً . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد
 الى الساقط منها ، وقيل الى الطالع منها ، لأنه في سلطانه .

الماضية ، وشرفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف في دين الله ممهود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يهتك حجابيه ، ولا تعمل الآراء مع وجوده ، ولا تسوغ العبرة^(١) بعد معقوده « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساعت مصيراً » .

(٥) القياس والاجتهاد :

« وأمره اذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصاً واسماعاً ، وان لم يفرض فيه تضميناً وايداعاً ، ولم تأت به السنة كشفاً وتنويهاً ، وان اشتملت عليه فحوى وتنبيهاً ، ولم يسبق فيه اتفاق ، ولا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يفهمه ، ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه ، فان الله اذا علم أن الحق بغيته ، والصالح نيته ، أدى به الى ما يريد ، ووقفه فلا يضل ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهيباً له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم ييهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه^(٢) .

« وأمره بأن يكون اختياره اذا اختار ، واشاره اذا اعتمد الايثار ، من أقوال السلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يعرج بالمذاهب الشاذة ، ولا يتقبلها ، ولا يترخص في الأقوال الشاردة ، ولا يتحملها ، ويصدر أحكامه

(١) العبرة : الاعتبار ، وفي مصطلح الفقهاء القياس .

(٢) يشير هنا الى الآية الكريمة « ولو رددوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

عن قول شهيد وبيان مستنير ، واستبصار واضح المنهاج ،
واعتبار متألّىء السراج « والله يهدى من يشاء الى
صراط مستقيم » .

(٦) الشورى :

« وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى
المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ،
وللإسلام حلية . فانه وان كان موصوفا بالاستقلال ، فما أحد
خلق للكمال . وقد جعل الله في وفور العدة مزية لم يجعلها
للوحدة ، وعرف في الاستمداد والاستكثار فضيلة لم يوجدوها
في الاستبداد والاستثثار . ثم له الامضاء اذا استشار ، والقضاء
اذا تخير واستخار ، فقد أفصح منطوق الذكر بقوله تعالى
« وشاورهم في الأمر » .

(٧) أخلاق القاضى ومسئوليته :

« وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب
عاداته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم ، فانه
أحمد ما اعتاد ، والصبر ، فانه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى في
حال قلق أو غلق^(١) ، أو غيظ أو حنق^(٢) ، أو ضجر أو ملال ،
أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدّ خصاصته^(٣) ،

(١) الغلق : الاشكال ، يقال كلام غلق - بكسر اللام - أى مشكل .

(٢) الحنق : الغيظ .

(٣) الخصاصة : الفقر .

وقضى عامة أربه وخاصته ، واستظهر بملك نفسه واربه (١) ،
وعرك المساخط والمغايند بجنبه ، ليؤدى فرض الله فى عظيم ماتطوقه
من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله فى جسيم ما اعتنقه من
حقوق الدهماء (٢) . فان الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويحشر
العباد عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره
« لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر
من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »

(٨) العدل بين الخصوم :

« وأمره بأن يعدل بين الخصوم فى مجالس قضاائه ، ويعممهم
بحسن استماعه واصغائه ، ولا يعجل بمن قد غشيته هيبة الحكم
فيحصر (٣) ويخرج ، ولا من ملكته روعة الخصم فيحصر (٤)
ويتلجلج ، ولا يقسم لواحد منهما فى لفظه اذا لفظ ، ولحظه اذا
لحظ ، الا مثل الذى يقسمه لصاحبه ، ويوجهه لمنازعه ومجاذبه ،
لئلا يطمع قوى فى انظلام ضعيف ، أو يجزع مشروف من
اهتضام شريف (٥) . فالحق أكبر من كل ذى محل وثروة ، والدين

(١) الارب - بكسر فسكون - هنا العقل .

(٢) الدهماء عامة الناس .

(٣) الحصر : العى والعجز عن الكلام .

(٤) يحصر : يعجز .

(٥) مأخوذ من رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى
فى القضاء من قوله « آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجاسك ،
حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يئس ضعيف من عدلك » .

أعظم من كل ذي منزلة وحظوة . والله على كل قاض فيما يخفيه
فيبطنه ، أو يديه فيعمله ، رقيب لا تلحقه غفلة ، وحسيب لا تفوته
خصلة « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

(٩) اختيار الأعوان :

« وأمره أن يتخير كهاته وخلفاءه ، وكتابه وأمناءه ، فمن
نصح وعفّ وصلح وكفّ أقره ، وفسح له ممره ، ومن صدف عن
التورع والظلف ^(١) ، وانحرف الى الجشع والنطف ^(٢) قدّم عزله ،
وحسم عن المسلمين كلكه ^(٣) ، فالمرء مسئول عن بطائنه ، كما هو
مسئول عن أمانته « يوم توفي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

(١٠) الفحص عن الشهود :

« وأمره بأن يتصفح الشهود تصفح من عدالة المسلمين أثر
اليه من الجرح ، وسلامتهم في الدين أوقع لديه من القدح ،
فالمسلمون بظواهرهم عدول ، إلا من ثبت منه فسوق أو غلول ^(٤) ،
وأن يخبر أحوالهم بعد ألا يقبل ظنيينا ^(٥) ولا عبدا ، ولا من أقام
عليه القذف حدا ، ويستشفهم فيما يصدرون ويوردون ، ويتحملون
ويؤدون ، لئلا يقدم أحدهم في شهادته على لبس ، أو يهجم به

(١) الظلف : الخشونة ، والمراد : الزهد .

(٢) النطف : الشر والفساد والعيب .

(٣) الكل - بالفتح - المصيبة .

(٤) الغلول : الخيانة .

(٥) الظنين : المتهم .

ضعف درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يؤتى من سوء السريرة ، وانما يؤتون من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فضل من فضله علمه ، وقدم من قدمه فهمه « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

(١١) أهوال اليتامى :

« وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعول في حفظه الا على الأمين السديد ، ويوكل به عينا من ملاحظته ، ويبدأ من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمأكول ، ولينفق منه عليه انفاقا وسطا في التقدير بين التبذير والتقتير ، الى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله في يديه ، ويشهد به عليه ، « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تاكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا . »

(١٢) الموارث :

« وأمره بأن يضع الموارث اذا دفعت اليه مواضعها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها الى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمى وأسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يجرى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور

الأئمة من ايجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن في ذلك الا حراسة التراث عن معارضة عمال المعاون^(١) والأحداث لوجب تغليب من هذه قتياء ، والحق فيها غرضه وممرماه . فكيف وقد تلى في نص كلام الله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

(١٣) الرجوع الى الحق :

« وأمره ألا ينسخ حكم القضاة قبله اذا كان مما يسوغ الرأي مثله ، فلو نقض الاجتهاد بالاجتهاد لما استقرت أحكام قضاة البلاد . وان هو وجد من ذلك ما خالف اجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة أتى فيه ما يلزمه تلافيه ، فالباطل أولى بأن يدفع ، والحق أحق أن يتبع »

(١٤) تزويج الأيامي :

« وأمره بتزويج الأيامي^(٢) اللاتي ولايتهن اليه ، وعقدتهن بيديه ، متخيرا الأكفاء ، وطالبا في الصدقات^(٣) الوفاء ، عالما بأن تقديم ذلك أدعى الى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب الى العدل ، وأبعد من العضل^(٤) ، وقد قال الحكيم الرحيم في

(١) المعاون : الشرطة .

(٢) الأيامي : الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهما (أيم) سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج . والمرأة أيم بكراً كانت أو ثيباً .

(٣) الصدقات ، جمع صدقة - بفتح فضم - والصدقات - بفتح الصاد وكسرهما - مهر المرأة .

(٤) العضل : المنع من التزويج .

القرآن المبين » وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم
وأماكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

(١٥) رعاية الأوقاف :

« وأمره بأن ينصب الموقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ،
ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضيااع ،
أو تفوت حقوقها باقتطاع ، ولتجرى أقسامها على ذللها ، وتصرف
في وجوهها وسبلها ، وتحمى عن مكائده من يسعى في نقضها برأى
من آراء المجتهدين ، ويتأنى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين
» فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه .

(١٦) انظار العسرين :

« وأمره اذا ثبت عنده الاعسار أن ينظر ويمهل ، ويؤخر
ويؤجل ، فان الله فرق بين ذى المتربة^(١) والمقدرة ، فقال « وان
كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » .

(١٧) ضرب السكك (العملة) :

« وأمره بأن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء
يحرصون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يطبع
على الامام^(٢) المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد

(١) المتربة : المسكنة والفاقة ، ومسكين ذو متربة أى لاصق
بالتراب .

(٢) المقصود بالامام المعلوم النموذج الذى يضرب النقود على
مثاله .

دغلا^(١) أن يوقع خلا ، فتجرى المعاملات على السداد ، وتحفظ النقود عن الفساد ، « والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

(١٨) درء الحدود بالشبهات :

« وأمره اذا رفع اليه ما يوجب حدا أو قطعا أو قتلا أو جلدا أن يأخذ بأبعد المذاهب من اباحة ظهر المسلم فانه الحمى ، وارقة دمه فانه الحرمة العظمى ، وابانة أعضائه فالأصل الحظر ، ولا اطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البيّنات ، ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات ، فان وضع له ما يوجب اقامة الحد أنهاء وتنفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رأفة في دين الله .

هذا عهدنا اليك ، وعهد الله به عليك لم نألك فيه تذكيرا ، وان كنت به بصيرا ، ولم ندخر عنك بيانا ، وان كنت تقتله علما وابقانا . فاستخر الله المقيت يلقك سدا ، ويؤتلك ما بقيت رشدا ، اليه تفويضنا فيما نبديء ونعيد ، وعليه تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

* * *

تلك صورة تخيرناها من العهود المستفيضة التي كتبها صاحب ، واذا صرفنا النظر عن صياغتها الفائقة وأسلوبها الممتاز ، فانا نجد فيها دقة واحكاما لما تضمنته من الأوامر والتوجيهات والأحكام التي تتصل بمصالح الرعية ، وتدل على معرفة صاحب وفقهه ،

(١) الدغل - بفتح الحاء - الفساد مثل الدخل .

فقد ذكر فيها أصول التشريع ومصادر الأحكام ، وهى : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع المسلمين ، والاجتهاد والقياس فيما لا نص عليه من كتاب أو سنة أو اجماع على مثله مما له نص من الكتاب والسنة والاجماع . كما ذكر ضرورة الشورى فيما يحتاج اليها ، وحذر من الاستبداد واطاعة الهوى ، ونبه القاضى الى رياضة نفسه وتهذيبها ، والعدل بين الخصوم ، والعناية بتخير أعوانه وأمنائه ، والفحص عن الشهود والاستيثاق من عدالتهم ، ورعاية اليتامى واتباع أحكام المواريث ، وعدم نقض الأحكام الا اذا ثبت خطؤها ، وتزويج الأيامى ، ورعاية الأوقاف ، والتخفيف على المعسرين ، ودرء الحدود بالشبهات . وكلها تتصل بأعمال القاضى وما ينظر فيه .

وهذا العهد كما رأينا طابعه الإيجاز ، وان بدا طويلا فلكثرة ما عرض له من الواجبات ، كما رأينا استشهاده فى أكثر مسائله بآيات من كتاب الله يدعم بها أوامره ، ويؤيد بها نصيحته ، وما أجدر الأدباء بهذه الثقافة التى تعرفهم مناهج الحق ، وما أجدر من يتولون الفصل بين الناس بتدبر أمثال هذا العهد الفريد .

والك لتقرأ كثيرا من أمثال هذا الأدب العالى والنمط الفريد فى مجموع رسائله التى كتبها فى أغراض مختلفة ، وكلها تشهد بالأصالة والقدرة على الابداع (١) .

* * *

(١) طبعت هذه الرسائل فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٤٧) وصححها وقدم لها المرحوم الدكتور =

وللصاحب غرر من فقر ألفاظ تجرى مجرى الأمثال ، منها ما
أخرج الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد في كتابه الذي سماه
« ملح الخواطر ، وسيح الجواهر » ومنها مما أخرجه الثعالبي :
من استباح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب
من طالت يده بالمواهب امتدت إليه ألسنة المطالب
من كفر النعمة استوجب النقمة
من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام
من غرته أيام السلامة حدثته ألسن الندامة
ربّ لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال
الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما أودعه
الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذل ثم يورق
العلم بالتذاكر ، والجهل بالتناكر
الضمائر الصراح أبلغ من الألسنة الفصاح
الآمال ممدودة ، والعواري مردودة

== عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف . وقد نسقت في عشرين
باباً يشتمل كل باب منها على عشر رسائل ، علنا الباب التاسع
والعاشر والخامس عشر فإن كل باب منها يشتمل على إحدى عشرة
رسالة ، والباب السابع عشر فإنه يشتمل على أربع رسائل .
وليست هذه الرسائل مع كثرتها وغزارتها كل ما كتب صاحب .
وفي يتيمة الثعالبي منها كثير .

متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية ألين ، وناها
أخشن .

بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة
قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر
ربما كان الاقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور
ربما كان الامساك عن الاطالة أوضح في الابانة والدلالة
تلقى الاحسان بالجحود تعريض النعم للشرود
ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم مزن يسقاه
ان الأحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث
من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ، ومن استمرت به الغرة
طال حزنه

* * *

وللصاحب من التوقيعات — وهى التعليقات الموجزة الحكيمة
التي اشتهر بها بعض الخلفاء والوزراء والكتاب — التي كان
يكتبها عضو الخاطر ، تعليقا على بعض ما كان يرفع اليه ما يشهد
على علو كعبه في البلاغة ، وبعضها كان يقتبسه من كتاب الله ،
ومنها :

(١) كتب انسان رقعة ، وقد أغار فيها على رسائله ، وسرق
جملة من ألفاظه ، فوقع الصاحب فيها « هذه بضاعتنا ردت إلينا ! »
(٢) ووقع في رقعة استحسناها « أفسح هذا أم أتم
لا تبصرون ؟ »

(٣) ووقع في رقعة أبي محمد الخازن ، وكان ذهب مغاضبا ،

كتب اليه يستأذنه في معاودة حضرته « ألم نربك فينا وليدا
ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت » ؟

(٤) وكتب بعض العمال رقعة الى صاحب في التماس شغل ،
وفي الرقعة « ان رأى مولانا أن يأمر بأشغالي ببعض أشغاله »
فوقع صاحب تحتها : « من كتب اشغالي لا يصلح لأشغالي » !

(٥) ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى صاحب في
ظلامه لهم مترجمة بالضرايين ، فوقع تحتها « في حديد بارد » !

(٦) ووقع على رقعة لأبى الحسن الشقيقى البلخى : « من نظر
لدينه نظرنا لدنياء ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك
الفضل والتمهيد ، وان أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر » !

(٧) ورفع اليه بعض منهى الأخبار أن رجلا ممن ينطوى له
على غير الجميل يدخل داره في الناس ، ثم يتلوم على استراق
السمع ، فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفي ومن خان » !
غير الجميل يدخل داره في الناس ، ثم يتلوم على استراق السمع ،
فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفي ومن خان » !

(٨) وكان مكىّ المنشد قد اتاب صاحب بجرجان ، وكان
قديم الخدمة له ، فأساء أدبه غير مرة ، فأمر صاحب بحبس
فحبس في دار الضرب ، وهى بجواره بجرجان ، فاتفق أنه صعد
يوما سطح داره لحاجة في نفسه وأشرف على دار الضرب ، فلما
رآه مكىّ نادى بأعلى صوته « فاطم فرآه في سواء الجحيم »
فضحك صاحب وقال « اخسثوا فيها ولا تكلمون » ! ثم أمر

باطلاقه . وهذا الخبر وان لم يكن من التوقيعات المكتوبة الا أن له
ما للتوقيع المكتوب من حضور الذهن وسرعة الجواب !

ما عد من سرقاته :

وقد نالت الثقافة الأدبية الواسعة التي حصلها صاحب ،
وأفادها من أساتذته وجلسائه وقراءاته ، ذات أثر واضح في
أسلوبه الكتابي الذي يبدو فيه تأثره بالمعاني والأفكار التي علق
بذهنه مما قرأ وحفظ من كتاب الله تعالى ، ومن حديث الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وكلام فصحاء العرب وشعرائهم على مر
العصور ؛ ولم تكن هذه الافادة معدودة من عيوب الكاتب أو من
عيوب كتابته ؛ بل كان بعضهم يرى أن هذه الافادة ضرورية لتدل على
مبلغ حفظه واطلاعه على عيون الأدب وفنون القول ، وهي ثقافة
لازمة للأديب بعامة ، ولأولئك الأدباء الكتاب الكثيرين بخاصة ،
حتى عقد ضياء الدين بن الأثير فصلا في « الطريق الى تعلم الكتابة »
وقال انه وجد الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على
أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه
أدنى الطبقات .

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من
زيادة حسنة ، اما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معان ، وهذه
هي الطبقة الوسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

الثالثة : ألا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شيء فيها ،

بل يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الاجادة فى المعانى والألفاظ . ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعنى القرآن ، والأخبار النبوية ، والأشعار . فيقوم ويقع ، ويسخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريقة أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد اماما فى فن الكتابة ، كما يعد الشافعى وأبو حنيفة ومالك — رضى الله عنهم — وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه ، الا أنها مستوعرة جدا ، ولا يستطيعها الا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما ، وخاطرا رقاما .

ثم قال ابن الأثير : وقد سهلت لك صعايبها ، وذلك محاجها ، وكنت أشح باظهار ذلك لما عاينت فى نيله من العناء ، فانى سلكت اليه كل طريق حتى بلغته آخرها ، وانما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ، ومشقة وصولها .. ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، اذ لم يظفر غيرى بأحجارها ، فما وجدت أعون الأشياء عليها الا "حل" آيات القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية.. ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر ، بحيث أنه لا ينشئ كتابا الا من ذلك ، بل أريد أنه اذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن

ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش عن دوائنه ، وقلبه ظهراً
لبطن ، عرف من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ،
واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية (١) ..

والسبب في ذلك ما قدمنا من حاجة الكتاب المكثرين الذين
يكتبون الرسائل الطوال في كل يوم في شئون مختلفة ،
ولا يقتصرون على ما يؤدي الغرض المقصود في كلمات موجزة ،
وعبارات قصيرة ، تقتصر على الخبر أو تقف عند حدود الأوامر
والنواهي ، والا تساوت الرسائل ، وتعاذل الكتاب ، ولم يظهر
بينهم من الفروق ما يمكن أن يقال معه : هذا فاضل وذاك مفضول ،
أو هذا أفضل ، بل ان الصناعة وما تقتضي من التأني هي التي تميز
كاتباً من كاتب ، فكان في هذا التحصيل مدد كبير ، وعون أي
عون على بلوغ ما كانوا ينتظرون اليه من الاجادة والتميز ..

وقد أورد أبو منصور الثعالبي بعض الأمثلة من حل صاحب
ابن عباد أبياتا لأبي الطيب المتنبي ، وأدخلها في كلامه ، بعد أن
قال : « واتخذ الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقعة ، ويتبع
عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف
الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالاً إياها ، وتمثلاً
بها في محاضراته ومكاتباته ، وكان مثله معه كما قال الشاعر :

شتمت من يشتمني مغالطاً لأصرف العاذل عن لجاجته
فقال : لما وقع البزاز في الثوب علمنا أنه من حاجته

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/١٢٩ .

وكما قال الآخر :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها ولم أر كالدينا تدم وتحلب

وكما قال الآخر :

نبئت أنى إذا ما غبت تشتمنى قلما بدالك فالمحبوب مسبوب

ومما مثل به الثعالبي من حلّ صاحب نظم المتنبي .

(١) قول صاحب في فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها

عضد الدولة « وأما قلعة ... فقد كانت بقية الدهر المديد والأمد
البعيد تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامع على
الخطبة ، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع ،
وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله للدنيا ابن
بجدة^(١) ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون^(٢) ما بين البحور
والأنهار ، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا
معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق
ومجرّ العوالى^(٣) ، ومجرى السوابق » .. وإنما ألم فيه بالفاظ
بيتين لأبى الطيب ، أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدةها فشكا إليه السهل والجبل

(١) بجدة الشيء : أصله وباطنه ، وابن بجدةها : يقال للعالم

بالشيء ، وللدليل الهادى .

(٢) البون : الفضل والمزية .

(٣) العوالى : الرماح ، جمع عالية وهى فى الأصل أعلى الفئاة

أو رأسه أو النصف الذى يلى السنان .

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق
(٢) قول صاحب في فصل له : « لئن كان الفتح جليل
الخطر ، عظيم الأثر ، فإن سعادة مولانا لتبشر بشوافع له ، يعلم منها
أن الله أسراراً في علاه لا يزال يبدئها ، ويصل أوائلها بتواليها »
وهو من قول أبي الطيب :

ولله سرّ في علاك وانما كلام العدا ضرب من الهذيان
(٣) وقول صاحب : « ولو كان ما أحسنه شظية في قلم
كاتب لما غير خطه ، أو قذى في عين نائم لما اتبته جفنه » . وهو من
قول أبي الطيب :

ولو قلم ألقيت في شق رأسه
من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقول نصر :

ضنيت حتى صرت لوزج بى في ناظر النائم لم ينتبه
ومنه أخذ ابن العميد قوله :

فلو ان ما أبقيت في جسدى قذى

في العين لم يمنع من الاغفاء

(٤) وقول صاحب في فصل من كتاب في التعزية « اذا كان
الشيخ القدوة في العلم وما يقتضيه ، والأسوة في الدين وما يجب
فيه ، لزم أن يتأدب في حالات الصبر والشكر بأدبه ، ويؤخذ في
تارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته عند حادث رزيته ،

الا اذا رويناه له بعض ما أخذناه عنه ، وأعدنا اليه طائفة مما
استفدناه منه ؟ » وانما هو حلّ من قول أبي الطيب :

أنت يا فوق أن يعزّي عن الأحـ
باب فوق الذى يعزّيك عقلا
وبالفاظك اهتدى فاذا عزا

لُ قال الذى قلت قبلا
(٥) ومن فصل للصاحب « وقد أثنى عليه ثناء لسان الزهر
على راحة المطر » .. وهو من قول أبي الطيب :
وذكىّ رائحة الرياض كلامها

تبغى الثناء على الحيا فيفوح^(١)
والأصل فيه قول ابن الرومى :
شكرتْ نعمة الولئى على الوسـ

مى ثم العهد بعد العهد^(٢)
فهى تشئى على السماء ثناء
طيب النشر شائعا فى البلاد
من نسيم كأن مسراه فى الأرـ

واح مسرى الأرواح فى الأجساد
(٦) ومما أورده الصاحب من أبيات أبي الطيب كما هى قوله

(١) الحيا المطر . شبه رائحة أزهار الرياض بالكلام ، ثم بين
أن الرياض أرادت أن تتحدث عن صنائع المطر ، فأرسلت عبير
أزهارها تحدث عنه .

(٢) الولئى المطر بعد مطر ، والوسمى مطر الربيع ، والعهد -
بكسر العين - أول المطر ، وفاعل شكرت ضمير يعود الى الرياض .

في كتاب أجاب به ابن العميد عن كتابه الصادر اليه عن شاطيء
البحر في وصف مراكبه وعجائبه « وقد علمت أن سيدنا كتب
وما أخطر بفكره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلالا
يفضل عن التبرّض^(١) ، وثمر لا يكثر عن الترشف^(٢) :
وكم من جبال جبت تشهد أننى الـ

جبال وبحر شاهد أننى البحر^(٣)

(٧) وللصاحب من رسالة في التهئة بنت أولها : « أهلا
بعقيلة النساء ، وكريمة الآباء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ،
والأولاد الأطهار ... ثم يقول فيها :
ولو كان النساء كمثلى هذى

لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التذكير فخر للهِلال

وهما لأبى الطيب من قصيدة في مرثية والده سيف الدولة ،
الا أنه يقول : * ولو كان النساء كمن فقدنا * .

(٨) وللصاحب من كتاب تعزية : « وقلنا قد أخذنا الزمان من
أخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد أسلم

(١) الوشل - بفتح الواو والشين - القليل من الماء ،
والتبرّض الاكتفاء والتبليغ بالقليل ، لا يفضل عنه ولا يزيد على
قدره .

(٢) الشمد - بفتح الحاء - الماء القليل ، والترشف أخذ الماء
جرعة بعد جرعة .

(٣) جبت : قطعت ، جاب الأرض : قطعها .

الشمس للطفل ^(١) ، ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع
الكسوف الى الخسوف ، فأبى حكم الملوك ^(٢) وقد غبنك اذ
قاسمك الأخوين ، الا أن يعود فيلحق الباقي بالفاني ، والغابر
بالماضى :

وعاد فى طلب المتروك تاركه
انا لنفعل والأيام فى الطلب
ما كان أقصر وقتا كان بينهما

كأنه الوقت بين الورد والقرب
أقول : هذا كعادة المصدور فى النفث ، وشكوى الحزن
والبث ، والا فما يعجب السفر من تقدم بعض وكل بين الراحلة
والرحل ، لا يترك الموت ساعيا على وجه الأرض ، حتى ينقله الى
بطن التراب :

نحن بنو الموتى فما بالناس نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من ترابه
قال الثعالبي : وهذا غيظ من فيض ما اغترفه الصاحب من
بحر المتنبي ، وتمثل به من شعره .. ثم اعتذر عن الصاحب بأن
ذلك شأن الأدباء الكتاب « وليس هو بأوحد فى الاقتباس من
كلامه ، هذا أبو اسحاق الصابى رسيه فى ذلك وزميله ^(٣)

* * *

(١) الطفل - بفتحتين - الوقت عند غروب الشمس

(٢) الملوك الليل والنهار ، الواحد ملا .

(٣) يتيمة الدهر ١٢٦/١

واذا تدبرنا هذه المأخذ ألفيناها نوعين :

أولهما : الأبيات الشعرية التى وشى بها صاحب كتبه ورسائله ، وقد نقلها نقلا آمينا . لم يحور فيها شيئا ، الا فى قوله « ولو كان النساء كمثل هذى » بديلا من قول المتنبى « ولو كان النساء كمن فقدنا » وذلك لاختلاف الغرض ، فان قصيدة أبى الطيب فى الرثاء ، ورسالة أبى القاسم فى التهنية بالولادة ، ولا عيب فيما فعل صاحب فى هذا الاقتباس ، فتلك سنة مطروقة سلكها الأدباء ، وان أخذ على صاحب أنه لم يشر الى صاحب الأبيات فليس هذا عيبا ، ولا يعد من السرقة فى شيء لأن تلك الأبيات التى نقلها مشهورة متداولة ، يعرفها الناس ويعرفون صاحبها الذى ملأ شعره الأرض ودوى فى سائر البقاع ، ومنها البقاع التى كان يعيش فيها صاحب ، والتى انتجعها المتنبى وزارها ، وشاع فيها شعره ، وذاع له ذكره ، واشتعلت نار المعارك الحامية بينه وبين حساده ، أو بين حساده وأنصاره والنوع الآخر : الأبيات الشعرية التى حلها ثم سبكها فى كلامه المنشور ، وفى بعض ما ذكر شيء من الصواب لاتحاد المعنى أو قربه فى الشعر والكلام المنشور ، وقد قدمنا أثر الثقافة والاطلاع والتحصيل فى ذلك ، وهذا عند بعض النقاد معدود من محاسن الكتابة ، وضرورة من ضروراتها ، ولا يعاب المستفيد الا اذا نقل المعنى بالفاظه ، وهذا أدنى درجات الأخذ مرتبة ، قال ابن الأثير ان هذا — أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فيشره بلفظه من غير زيادة — عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عقدا قد أقرن نظمته

وأحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده ، وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا الى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضا فانه اذا تثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة ، فيقال هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء (١) .. ولم يظهر فيما كتب صاحب أنه نقل نقلا حرفيا ، وانما كل ما فعله — على فرض التسليم المطلق بذلك — أنه أخذ بعض المعاني فأعاد تأليفها وصياغتها ، وزاد عليها ، وهذا أعلى الأقسام في نظر ضياء الدين (٢) وغيره ، وهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، وثم يتبين حذق الصانع في صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته ، فان استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول . وقال أبو هلال « من أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب » وقال : « وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب الا اذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأفسده ، وقصر فيه عن تقديمه .

فهل كان ذلك ما فعله صاحب ؟ ، أو ما كان يفعله في جل كتاباته ؟ ليس ذلك صحيحا وانما هي تنف من متخير المعاني أوردها بعبارته الممتازة ، وبين معانيه الرائعة . وقد قيل للعتابي : بم قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام : وقال بعضهم :

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٢٩/١ .

(٢) المصدر السابق ١٣٢/١ .

الكتابة نقض الشعر .. وعند أبي هلال أن الحاذق هو الذى يخفى
ديبجه الى المعنى يأخذه فى سترة ، فيحكم له بالسبق اليه أكثر من
ير به ، وأحد أسباب اخفاء السرق أن يأخذ المعنى من النظم
فيورده فى النثر ، أو من النثر فيورده فى النظم ، أو ينقل المعنى
المستعمل فى غرض الى غرض آخر ، الا أن هذا لا يكمل
الا للمبرّز ، والكامل المقدم (١) ..

وقد كان الصاحب مقدما مبرزاً، صناعاً فى كتابته وشعره، حتى
ليخفى على كثير أثر هذه الافادة .. ويبقى الفضل لصاحب المعنى
الأصلى الذى ابتكره ، وعرف له من دون الناس .

الصاحب الشاعر

أما فن الشعر فان الصاحب يسمو بالمأثور منه الى درجة عالية
يطاول فيها النحول ، ولو كان الصاحب قد خلى بينه وبين هذا
الفن لارتقى الى أسمى الدرجات فيه ، ولفاق الفحول المشهود لهم
على مرّ العصور ، ولكانت منزلته فى فن المنظوم فوق منزلته فى
فن المنثور .

ولكن أعمال الصاحب فى تصريف شئون الدولة ، وفى مجالسه
التي كانت تزدهر بالعلماء والشعراء وأسفاره التي يقوم بها وحده
أو يصحب فيها مليكه لتفقد أحوال البلاد ، كانت تستنفد منه

(١) كتاب الصناعتين ١٩٧ ، ١٩٨

كثيراً من الوقت والجهد ، وما أحوج الشاعر الى سعة في الزمان ،
وفراغ في البال ، يسعفه هذا أو ذاك على الاطالة والافتنان والاتقان
وكان الصاحب بطبعه شاعراً ، ونقرأ معالم الشاعرية واضحة فيما
حفظ من شعره ، وفيما روت الأخبار من قدرته على ارتجال
الشعر الجيد المطبوع ، وقد كان على حظ عظيم من المعرفة بروائع
الفن الشعري ، التي كان يحفظ الكثير منها ، وكانت له دراية
عميقة بأسباب جودته .

* * *

وقد فضل أبو منصور الثعالبي شعراء عرب الشام على شعراء
سائر البلدان في قوله أن شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر
من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام ،
ويرجع السبب في تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في
الشعر الى قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم
عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل
العراق ، لمجاورة الفرس والنبط ، ومداخلتهم اياهم ، ولما جمع
شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة..
وبعد هذا التفضيل لشعراء الشام يذكر الثعالبي أن جماعة من
أصحاب أبي القاسم اسماعيل بن عباد أخبروه أنه كان يعجب
بطريقتهم المثلى التي هي طريقة البحترى في الجزالة والعدوبة
والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ،
ويستملئ الطارئین عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك

البدائع واللطائف ، حتى كثر دفتر (١) ضخيم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ، ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، حتى صار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفي سن قلمه ، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحلّه أو يورده كما هو في رسائله (٢) .. ووصفه أبو حيان التوحيدى — مع عداوته له وحقده عليه — بأنه كان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان .. وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ... وفي بديهته غزارة (٣) ..

ويروى أبو حيان في أخباره من الأعاجيب ما يحير العقول في حضور جوابه ، وغزارة بديهته . وإن كان يعرض ما يعرض في صورة الحقد المسموم ، والغضب المحموم ، وذلك بأن يزعم أن كثيرا من الشعر الذى قاضت به قرائح الشعراء فى مديح الصاحب هو من تأليف الصاحب نفسه ، وأنه ينحلهم إياه ، ويدعوهم الى انشاده بين يديه بين حشد من الأدباء والشعراء الذين ينتجعون بابه ، ليقوا بين يديه ما قصدوه به طمعا فى وافر العطاء ، ثم يخرج أولئك الشعراء بتفضيل الشعر الذى صاغه بنفسه وألفه بصناعته على سائر ما سمع منهم ، ثم يخص بعطاءه الذين ينشدون كلامه ، كلام الصاحب !

- (١) كسرت الكتاب على عدة أبواب — بتشديد السين — اذا كنت قد جعلته فى عدة أبواب .
(٢) يتيمة الدهر ١٣/١ .
(٣) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١ .

ومن ذلك ما ادعاه أبو حيان في قوله : ان الصاحب كان يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعرا ، ويدفعه الى أبي عيسى المنجم ، ويقول له : قد نعلتلك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكم^(١) ، قد شاخ على الخدائع وتحنك — وينشد ، فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ، ووصفه بلسانه : زره يا أبا عيسى والله ! قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي .. مجالسنا تخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن^(٢) عتيقا ، والمحمر^(٣) جوادا .. ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية ، وعطية هنية ، ويغيب الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضاً ..

وقف هنا لنسأل أبا حيان : أكنت معهما حين دبّرا هذه الحيلة ؟ أم باح لك الصاحب بهذا السر الدفين ليفضح نفسه ؟ أم أسرة اليك أبو عيسى المنجم ليذيع سرّ صفيّه وأثيره ؟ وإذا كان الافتراض وادعاء الامكان لا ينفي شيئا من هذا ، فاننا لنقف مرة أخرى عند قول أبي حيان ان أبا عيسى « لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضاً .. » !

(١) المحكم : المجرب المدرب .

(٢) الكودن : الفرس الهجين ، والعتيق عكبه .

(٣) المحمر : الفرس الهجين .

لقد أراد أبو حيان أن يظلم الصاحب، فظلم صاحبه أبا عيسى
المنجم ، وبنو المنجم معروفون بالأدب والشعر والعلم ، وقد عقد
الثعالبي فصلاً في يتيمة عن بنى المنجم قال فيه « قد تقدم ذكر
بعضهم في أهل العراق ، وهذا مكان من يحضرني شعره منهم »
ووصفهم بأنهم ما منهم إلا أغر نجيب ، ولهم ورأثة قديمة في منادمة
الملوك والرؤساء ، واختصاص شديد بالصاحب ، وفيهم يقول :
لبنى المنجم فطنه لهيئته ومحاسن عجيبة عريضة
ما زلت أمدحهم وأنشر فضلهم حتى اتهمت بشدة العصية
وروى الثعالبي لأبي عيسى المنجم :
آخ من شئت ثم رم منه شيئاً

تلف من دون ما تروم الثريا
قال : وسمعت أبا الفتح على بن محمد البستي يقول : أنشدت
لأبي عيسى :

رغيف أبي على حل خوفاً من الأسنان ميدان السماك
إذا كسروا رغيف أبي على بكى يبكى بكاءً فهو ياك

ولأبي عيسى (١) :

لوم النديم منغص طيب المجالس والندام
وسماحة الحر الكريه م تزيد في طيب المدام
فاذا شربت الراح فاشربها مع النفر الكرام
وتنكبن ما استطعت أخلاق اللثام بنى اللثام

ومن الطرائف التي تذكر لأبي عيسى بن المنجم أنه تلقى له

(١) . يتيمة الدهر ٣/ ٣٩٠ .

برذون كان أصداً (١) قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له :
فقال أبو عيسى في ذلك قصيدة طويلة مطلعها :

لقد عظمت مني المصيبة في الأصدا

وأبدت لى اللذات من بعده صدا

وأهدى الى قلبى المصاب بفقده

من الحزن ما لو نال يذبل لانهدا

وأوعز الصاحب الى ندمائه أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصداه

فقال كل منهم قصيدة فريدة ، منهم أبو القاسم الزعفرانى ،

وأبو الحسن بن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو القاسم بن أبى العلاء ،

وأبو الحسن السلامى ، وأبو محمد الخازن ، وأبو سعيد الرستمي ،

وأبو دلف الخزر جى ، وأبو العباس الضبى ، وأبو محمد

محمود .. وكلها قصائد تتنافس فى الجودة والعذوبة (٢) ..

ولم يكن أبو عيسى — أحمد بن على بن يحيى — أديبا

شاعرا فحسب ، بل كان عالما مؤرخا ، ذكر النديم (٣) أن له من

الكتب كتاب « تاريخ سنى العالم » . ووصفه ياقوت (٤) بأنه كان

نيلا فاضلا ..

وفى هذه الاشارات ما يلقى بعض الضوء على أبى حيان، ومدى

(١) الصداة — بضم فسكون — شقرة الى السواد ، يقال

صدىء الفرس فهو أصدا .

(٢) راجع اليتيمة ٢١٤ - ٢٢١ من الجزء الثالث .

(٣) الفهرست ٢٠٧ .

(٤) معجم الأدباء ٢٤٤/٣ .

الثقة في أخباره ، وما يؤكد أنه لم يخدم الحقيقة فيها بقدر ما أطاع
شهوته في النيل من صاحب ومن صحابته .

* * *

ومن تلك الطرائف التي ساقها أبوحيان، وتتصل بهذا السياق
ما ذكره من أن صاحب قال يوما : من في الدار ؟ فقيل له :
أبو القاسم الكاتب وابن ثابت ، فعمل في الحال بيتين ، وقال لانسان
بين يديه : اذا أذنت لهذين الرجلين فادخل بعدهما بساعة ، وقل ،
« قد قلت بيتين ، فان رست لى انشادهما أنشدت » وازعم أنك
بدمت بهما ، ولا تجزع من تأففى بك ، ولا تفزع من نكرى عليك !!
ثم دفع البيتين اليه ، وأمره بالخروج الى الصحن ، وأذن
للرجلين حتى وصلا ، فلما جلسا وأنسا دخل الآخر على تفيئتهما (١) ،
ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمظ يرى أنه يقرض شعرا ، ثم قال :
« يا مولانا ، قد حضرني بيتان ، فان أنت أذنت لى أنشدت » !
قال صاحب : « أنت انسان أخرق سخي ، لا تقول شيئا
فيه خير ، اكفى أمرك وشعرك » !

قال : « يا مولانا ، هى بديهتى ، فان نكرتنى ظلمتنى ، وعلى
كل حال فاسمع ، فان كانا بارعين ، والا فعاملنى بما تحب » !
قال : « أنت لجوج ! هات » فأنشد :
يا أيها صاحب تاج العلا لا تجعلنى نهزة الشامت

(١) أى دخل على امرهما .

بملحد يكنى أبا قاسم ومجبر ^(١) يعزى الى ثابت

قال : قاتلك الله ! لقد أحسنت وأنت مسيء !!

ثم يذكر أبو حيان أن أبا القاسم قال له : كدت أتفقاً غيظاً ،
لأنى علمت أنه من فعلاته المعروفة . وكان ذلك الجاهل لا يقرض
بيتاً ، ثم حدثنى الخادم الحديث بنصه ^(٢) ..

وهذه كما ترى صورة رائعة لخيال بارع رسمها أبو حيان لبعض
ما كان يصنع الصاحب في زعمه ، وإن كان صادقاً فهي شهادة بقوة
الصاحب ، وسرعة خاطره ، وحضور بديهته ، وغزارة أدبه .

* * *

والتأمل فيما أثر للصاحب في فن الشعر يهذى الى أن السمة
المميزة له والغالبة عليه هي سمة الترف ، وترى هذه السمة واضحة
في الفنون والموضوعات التي عالجها ، كما تراها في الأخيلة والمعاني
التي صورها ، وفي الألفاظ التي تخيرها والتراكيب التي ألفها .

ويتجلى كل ذلك في وصف متع الحياة ومباهج النفس التي
كانت تنعم بها تلك الطبقة من حكام ذلك الزمان الذين كانوا
يسكنون شامخ القصور ، ويتمتعون بالمناظر الفاتنة ، والمجالس
العامرة بأسباب الأنس والطرب ، ويملكون أسباب الترفيه
والترهيب ويقدررون على الابعاد والتقريب ، والوصل والجفاء .
فشعر الصاحب في جملة يمثل في فنونه ومعانيه شعر الكبراء

(١) المجبر - بفتح الباء المنسوب الى مذهب الجبرية ،
وهم فرقة يقولون ليس للعبد قدرة ، وإن الحركات الإرادية
بمشابة الرعدة والرعدة .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٥٧/١ .

أو شعر الكبرياء ، الذى قد يسمى شعر الخاصة ، ولكنها ليست خاصة الفن التى كثيرا ما تكون فى تناول الطبقات المتفاوتة فى المجتمع ، وإنما هى خاصة الحياة ، وخاصة المنصب والجاه .

وإذا ما حاولنا أن نلتمس للصاحب شبيها فى فنه ، فإنا نجد هذا الشبيه فى عبد الله بن المعتز الذى صاح ابن الرومى فى وجهه من أنشده بعض شعره « ويحك ! إنما يصف هذا ما عون بيته ! » ولو خلى بين صاحب وبين شاعريته حتى تصل الى مداها ، وتستوفى غايتها ، وتبوح بمكنونها لكان الى الشريف الرضى أقرب ، وكان فنه بفن الشريف أشبه . ولكن الوقت والفراغ كانا فى يد الشريف بقدر ما كان صاحب فى يد الدولة وفى حوزة المنصب . كانت جل الأغراض التى عالجها صاحب فى شعره تدور حول تلك الحياة الخصبة التى كان يحيها ، وتصف ألوان المتعة التى كان يجدها فى الطبيعة أو فى الحياة والأحياء ، وهى متعة لم تكن مستحصية عليه ، بل كانت طوع يمينه وبين يديه ؛ ولكنها النفس التى كانت تطلب من هذه المتعة المزيد . وأكثر هذا الشعر يصور الرجل المقصود الذى تتطلع اليه الآمال ، ولم يكن يصور الرجل المتطلع الى الآمال ، فقد بلغ غايته الرفيعة ، كما يصور الرجل المتفضل الذى يجود بماله كما يجود بأدبه ، ويؤدب بهذا الأدب كما يؤدب بالحرمان من عطاءه المال ..

ولكل هذا نرى أن المديح فى شعر صاحب قليل ، ولا يتوجه فيه الا الى ولى من أولياء نعمته ، وهم قليل .. ومنه قوله فى عضد الدولة :

همام رأى الدنيا سواما فحاطها
 ليالى فى غير الزمان وقور
 ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها
 فموقعها من راحتيه يسير
 ولكن له طبع الى الخير سابق
 ورأى بأبناء الرجال بصير
 وان لم يلاحظهم بعين حمية
 قتلك أمور لا تزال تمور
 وقوله فى عضد الدولة من قصيدة أخرى :
 سعود يحار المشتري فى طريقها
 ولا تتأتى فى حساب المنجم
 وكم عالم أحييت من بعد عالم
 على حين صاروا كالهشيم المحطم
 فوالله لولا الله قال لك الورى
 مقال النصارى فى المسيح بن مريم
 محامد لو فضت قفاضت على الورى
 لما أبصرت عيناك وجه منم
 وكلا ولكن لو حظوا بركاتها
 لما سمعت أذناك ذكر ملوم
 ولو قلت ان الله لم يخلق الورى
 لفيرك لم أخرج ولم أتائم
 وقوله فيه :

يأيتها الملك الذى كل السورى
 قسمان بين رجائه وحذاره
 فمناصح قد فاز سهم طلائيه
 ومداهن قد جال قدح بواره
 هذى بخارى تشتكى ألم الصدى
 وتقول قولاً نبت فى أخباره
 ماذا عليه لو يهم بعرضتى
 فأكون بعض بلاده ودياره
 وكتب الى مؤيد الدولة أبى منصور :

سعادة ما نالها قط واحد يحوزها المولى الهمام المعتمد
 مؤيد الدولة وابن ركنها وابن أخى معزتها أخو العضد
 وقال فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلـ	همك والفرقد سـيان
لم تبـن هذا القصر بل صفتـه	تاجا على مفرق جـرجان
وقصرـك المبـنى من قبـله	ملكـك ، والله هو البـانى
فاقبل نـار العـبد بل نظمـه	فانه والدرّ مثـلان

وهذا الشعر كما نرى وان كان فى المديح الا أننا نرى
 الصاحب من خلاله ، لا يزال متماسكا ، فلا نقرأ فيه ذلة الخضوع
 والضراعة التى نقرأها فى أكثر ما نقرأ من شعر المديح للمتكسبين
 من الشعراء الذين كانوا ينسون أنفسهم ، بل يهبطون بها الى
 حضيض الاستعطاف والمذلة والاسفاف ، وأولئك الثلاثة كما رأينا

من أبناء بويه ، وهم أولياء نعمته الذين احتضنوه وارتقوا به في دولتهم الى منصب الوزارة .



ولا يخدعنا عن هذه الحقيقة ما في هذا الشعر من المبالغات التي نأبأها ونرقضها ، فانها من أقاويل الشعراء ، ولا تظهر فيها شخصية صاحب التي تلصقها به ، وتجعلها علما عليه ، بل ان من المستطاع أن تنسب الى غيره ممن شئت من شعراء المبالغات كما ينسب اليه في ذلك العصر الذي نأت الحياة فيه عن مظاهر البساطة ، وجنحت فيه المعاني الى الغلو الذي يشين ، والذي يقرب من الكذب ، بل قد يصل في بعض الأحيان الى درجة الكفر .

ومن الذين مدحهم من أصحاب الفضل عليه أبو الفضل بن العميد ، وهو أستاذه ومدربه . ومن قوله فيه يذكر تقرسا أصاب يمناه :

أبو الفضل من أجرى الى الفضل يافعا
فظل به يدعى وصار به يكنى
سلامته شمس المعالي وسقمه
كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأته ورد السقام لغير ما
عرفنا فخذ معنى تألمه منا
وما راده الا ليشغل عن ندى
والا فلم قد خص بالآلم اليمنى

وما يحجز البحر الخضم عن الندى
ولا السيد الأستاذ عن جوده يشى

وهى كلمة وفاء كان جديرا أن يكتبها لأستاذه فى علة ، وقد
ظهر فيها ذلك المعنى البكر الذى أحسن فيه التعليل ، وادعى فيه
أن العلة إنما لزممت يده اليمنى لتكفه عن نداه المسرف ، ولكن
هيهات أن تشنيه عما طبع عليه ، كالبحر لا يستطيع أن يكفه أحد
عن العطاء !

أما الاخوانيات فإن للصاحب المقام الأوفى فى صياغتها ، وتكاد
تسيل رقعة لفرط ما حملته من ألوان الصفاء فى معانيها وفى لغتها
التي لا تجدها فيها كلمة نائية أو لفظا مستكرها ، وإنما هى أشبه
شيء بالنمير الصافى الذى لا يكدره تصنع ولا تعمل ولا اكراه ،
بل هو يجرى فيها على سجية رفيقة ، وطبع سلسال لا يتحجر
ولا يتعثر ، فهو اذ يتحدث الى صاحبه فى مداعبة أو غتاب فكأنه
يتحدث عن نفسه ، أو كأنه يحدث نفسه ، لفرط ما أصفى من
الود ، وما بذل من صفاء الروح . وتجد مثلا لهذه الشاعرية
الثرة بالود المتبعة بالصفاء فى مثل ما كتب الى أبى الفضل بن
شعيب :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا
فأسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنى نفسى صديقا صدوقا
فاذا أنت ذلك المتمنى

فبغضن الشباب لما تشنى
وبعهد الصبا وان بان منا
كن جوابى اذا قرأت كتابى
لا تقل للرسول كان وكنا
وفى مثل ما كتب الى أبى بكر الخوارزمى :

أسعدك الله يوم الفصح وعشت ما شئت يوم سمح
يا رأس مالى فى الورى وربحى وظفرى ونصرتى ونجحى
شربا ولا تصنع لأهل النصج فالحزم أن تسكر قبل تصحى
سكر النصارى فى غداة الفصح

أرأيت الى الصاحب كيف يحيى هذا الصديق الأديب ،
وكيف يتبسط معه فى الحديث ويتلطف معه فى الخطاب ، وكيف
يعدّه رأس ماله وربحه وظفره ونصرتة ونجاحه ؟ ثم انظر الجزاء
الذى يلقاه به الخوارزمى وقد نال من برّه وتقريبه الكثير ، فى
مثل قوله :

لا تحمدنّ ابن عباد وان هطلت
كفاه يوما ولا تدممه ان حرما
فانها خطرات من وسواسه^(١)

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما
ماذا كان يريد أولئك الأصفياء من ذلك الرجل الذى قربهم
وأفاض عليهم من أدبه وماله وقلبه ما كان يستطيع ؟ لعلمهم كانوا

(١) الوسواس جمع وسواس وهو حديث النفس المختبلة

لا يقنعون الا بأن يصبوا أموال الدولة وأمواله في جيوبهم ،
أو ينزل لهم عن منصبه ليخلفوه فيه !!

ما هذا الجحود الغريب الذى يثنى الكرام عن المكارم ،
ويشترع من القلوب الثقة بمن هم أحق الناس بالثقة ممن يتسبون
الى العلم أو الى الفن ؟ ان مثل هذا الجحود لسبب من أعظم
الأسباب فى تزهد الفضلاء فى الفضل ، وترغب الكرام عن المكارم ،
وما أصدق الذى قال « والكفر مخبئة لنفس المنعم » وما أحق
الصاحب أن يقول عندما بلغه خبر وفاة أبى بكر الخوارزمى :

أقول لركب من خراسان رائج :

أما تـ خوارزميكم ؟ قيل لى : نعم !

فقلت : اكتبوا بالجص من فوق قبره

« ألا لعن الرحمن من كفر النعم » !

وهما بيتان يشعرا أن بما كان يجده الصاحب من مرارة

الجحود ممن أحسن اليهم وأحسن بهم الظن !

ومن اخوانيـات الصاحب الرقيقة الرائقة ما كتبه الى صاحبه

أبى القاسم القاشانى :

يا أبا القاسم قل لى

كنت قد قدّمت وعدا

وبذرت الود بالقو

ونحرت الودّ بالهجـ

ان أم الصدق فى الـ

وفى هذا العتب المتبسط الذى كتبه اليه :

مولاي لم تدع عب
أعرفته من بينهم
أم قيل عريـد ذات يو
أم لم يساعد حين مل
ان كنت تبخل بالطعا
لسنا نحاول دعوة
مدك عند احضار المدام
متبسّطاً وقت الطعام
م حين صار الى المدام
ت الى الغلامه والغلام
م فكيف تبخل بالكلام
فاسمح علينا بالسلام

وحدث الثعالبي عن أبي نصر التهذيبى ، قال : سمعت القاضى
أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى يقول : انصرفت يوما من
دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد ، فجاءنى رسوله بعطر الفطر ،
ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما أهدي له أخلاقه
قال : وسمعتة يقول : ان الصاحب يقسم لى من اقباله واكرامه
بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ، وقد استغفيته يوما
من فرط تحفيّه بى ، وتواضعه لى ، فأثبـدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده وأعزّه ما نيل فى الوطن
فالعزّ مطلوب وملتمس وأمدّه من فعلك الحسن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية ، فقلت : لعل
مولانا يريد قولى :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل
ألا ليت قومى يعلمون صنيعى !

فقال : ما أردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى « يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » !
 فهذا كلام من يعرف الفضل لأصحابه ، ومن ينصف الصديق ،
 ومن يعرف أثر تكرمته في وطنه وبين أهله وعشيرته ، وهو أثر
 بعيد لا يدركه الا عالم بأسرار النفوس من أمثال الصاحب في
 فطنته وبعد نظره وطهارة قلبه .

* * *

أما الوصف فقد كان الصاحب فيه من أعلام المبرزين ،
 وأوصافه تزخر بالتصوير الرائع ، وتفيض بالتشبيهات البارعة .
 وأكثر أوصافه في مباحج الطبيعة وفي الأزهار والثمار وفي
 الخمرات ، وهو صاحب البيتين المشهورين اللذين هام بهما
 البلاغيون :

فتشابها فتشاكل الأمر
 وكأنما قدح ولا خمر

رقّ الزجاج ورقّت الخمر
 فكأنما خمر ولا قدح
 ومن خمرياته :

فقلت للندمان عند شمه
 فحسبها ما شربت من كرمها

وقهوة قد حضرت بختمها
 لا تقبضن بالماء روح جسمها
 وقوله :

متشاكل أشباحها أرواح
 فالراح والمصباح والتفاح
 من أيّ هذى تماث الأقداح

متغايرات قد جمعن وكلها
 وإذا أردت مصرحا تفسيرها
 لو يعلم الساقى وقد جمعن لي
 وقوله :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا
دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقياها : أدرها فاتها
خدود عذارى قد جعلن على طبق
ومن أبدع ما قال فيها من قصيدة :
وكأس تقول العين عند جلائها
أهل لخدود الغانيات عصير ؟
تحاميتها الا تعلق واصف
وقد يطرب الانسان وهو كبير !
وقوله فى جلوسه مع الشرب من غير شرب :
تمتع ندمان بها وأحبة
وحظى منها أن أقول ألا انعمى
لك الوصف دون القصف منى فخيمى
بغير يدى وارضى بما قاله فمى
ومن ملح أوصافه وتشبيهاه :

أقبل الشلج فانبسط للسور ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجوّ فى غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منشور
فكان السماء صاهرت الأر ض فصار النشار كالمنشور
وقال فى التارنج :

بعثنا من التارنج ما طاب عرفه

فقل على الأغصان منه نوافج^(١)

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهو وعاء المسك (معرب) .

كرات من العقيان أحكم خرطها
وأيدى الندامى حولهن صوالج^(١)
وقال في الند^(٢) :

ند لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفا من نسيم يديه
فكأنما عجنوه من أخلاقه وكأنه طيب النماء عليه
وقال في حبة عنب :

وحبة من عنب من المنى متخذه
كأنها لؤلؤة في وسطها زمردة

وقال فيها أيضا :

وحبة من عنب قطفتها تحسدها العقود في الترائب
كأنها من بعد تمييزي لها لؤلؤة قد ثقت من جانب
وقال في التين :

تين يزين رواؤه مخبوره متخير في وصفه يتحير
عسل اللعاب لديه مما يجتوى وجنى النخيل لديه مر مقرر^(٣)
وكأنما هو في ذرا أغصانه قطع النضار أدارهن مدور
ويقول ذائقه لطيب مذاقه الله أكبر والخليفة جعفر

(١) العقيان : الذهب الخالص .

(٢) الند - بفتح النون وكسرها - طيب ، أو هو العنبر .

(٣) اجتوى : أصابه الجوى ، وهو الحرقه وشدة الوجع .

وشئ مقرر ومقر - على وزن كتف - حامض أو مر .

ومن قوله يصف الشمع :

ورائق القد مستعجب
صفرة لون وسكب دمع
يجمع أوصاف كل صب
وذوب جسم وحر قلب
وقال في الخط واللفظ :

بالله قل لى أقرطاس تخط به

من حلة هو أم ألبسته حلا ؟

بالله لفظك هذا سال من غسل

أم قد صببت على أفواهنا عسلا ؟

ومن ملح شعره فى الغزل :

وشادن أصبح فوق الصفة
كم قلت اذ قبل كفى وقد
قد ظلم الصب وما أنصفه
تيمنى : يا ليت كفى شفه
وقوله :

تسحب ما أردت على الصباح
لقد أولاك ربك كل حسن
وبعد فليس يحضرنى شراب
وليس لدى ثقل فارتهمنى
فهم ليل وأنت أخو الصباح
وقد ولاك مملكة السلاح
فأنعم من رضاك لى براح
بنقل من ثناياك الوضاح

وقال من باب الاقتباس من الحديث الشريف :

ومفهف يغنى عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر (١)

(١) امرأة مفهفة أى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد - على
زنة طرب - تحير .

خالسته تفاسح وجنته : من غير ابقاء ولا حذر
فأخافنى قوم فقلت لهم « لا قطع فى ثمر ولا كثر » (١)
ومن بديع غزله :

أتانى البدر باكيا خجلا
قال غزال أتى ليعزلنى
فقلت قبل ترابه عجلا
قد بايعت أنجم السماء له
وقال متغزلا :

بدا لنا كالبدر فى شروقه
يا عجبا والدهر فى طروقه
قال أبو بكر الخوارزمى : أشدنى الصاحب هذه القوافى
ليلة ، وقال : هل تعرفون نظيرا لمعناها فى شعر المحدثين ؟ فقلت :
لا أعرف الا قول البحتري :

ومن عجب الدهر أن الأمل
رأى أصبح أكتب من كاتبه
فقال الصاحب : جودت وأحسنت ، وهكذا فليكن الحفظ !
وللصاحب فى شعر المجون باع طويل ، يقصر عنه المفلقون
المجودون ، وكان مبعث ذلك روح النقد التى تمكنت منه ،
فبرع فى رسم صور خلافة تشيع فيها روح السخرية ممن سلط
عليهم شاعريته المبدعة ، وله هجاء لا ذع يقصر عنه الهجاءون الذين

(١) الكثر - بفتحيتين - جمار النخل ، والشطر كله حديث
« لا قطع فى ثمر ولا كثر » .

تخصصوا في النيل من الأعراض ، ومن قوله في قاض لم يثبت عنده
هلال شوال :

ان قاضيينا لأعمى أم على عمد تعامى ؟
سرق العيد كأن ال عيد من مال اليتامى !
وقوله فيه :

يا قاضيا بات أعمى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد
وأنشد له الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي :
نبئت أنك منشـد ما قـلته
في سبّ عرضك لا تخاف وعيـدي
والكلب لا يخزي اذا أخسأته
والقبار لا يخشى من التسويد
وأنشد له غيره :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم ما لها
مشى ذا الثقل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها
ولو ذهبنا نتخير للصاحب روائع شعره في سائر الفنون
التي أجاد فيها صاحب وأبدع ، ثم شرحنا أسباب الاجادة ومظاهر
الابداع ، لاتسع مجال القول ، وضائق عنه هذه الصفحات ،
ولكننا نجتزئء بهذه الأمثال التي يستطيع القارئ أن يستشف
من خلالها طبيعة شعر صاحب ، وما أتيح له من ملكة بارعة
وقدرة فائقة على التحليق في سماء هذا الفن الرفيع ، ونختم هذه
الروائع بقوله :

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممثّل في الأمم ؟
فقلت دعيني على غصتي فإن الهموم بقدر الهمم !

* * *

ولا يتسرب إلينا شك في أن أي ناظر إلى هذا الشعر سيقع منه
موقع القبول ، وأنه سيجد فيه من القوة ما يرفعه إلى درجة
الفحول المطبوعين . ولكن أبا حيان التوحيدي ، وقد عرفنا من
عداوته للصاحب ما عرفنا ، وعرفنا ولوعه بثلبه وانتقاصه ، لما
قدمنا من الأسباب ، يذكر جملة من الآراء تسائر رأيه في الصاحب ،
وينسبها إلى غيره من الناس ، والله أعلم بصحة ذلك ، فقد سأله
الوزير أبو عبد الله العارض : كيف بلاغة الصاحب من بلاغة
ابن العبيد ؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف (١) والصابي (٢) ؟
وأراد أبو حيان أن ينسب ما أراد من قدح في الصاحب إلى
غيره فقال : قد سألت جماعة عن هذا ، فأجابني كل واحد بجواب
إذا حكيتّه عنه كان ما يقال فيه ألصق وكنت من الحكم عليه

(١) ابن يوسف الذي يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن
يوسف أحد أعيان الكتاب في دولة بني بويه ، تقلد ديوان الرسائل
لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده .
(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن هلال الصابي كاتب الإنشاء
ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان
الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ونقم عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ،
فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فشفعوا فيه فأطلقه ، وألف له
كتاب « التاجى » فى أخبار بني بويه ، وظل على دين الصابئة
إلى أن مات سنة ٣٨٤ هـ كما روى ابن خلكان ، وقال صاحب الفهرست
أنه مات قبل سنة ٣٨٠ هـ والأول هو الأصوب .

وله أبعد ! ... سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته ، فقال : يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أودرجتين ..

وقال على بن القاسم : هو مجنون الكلام ، تارة تبدو لك منه بلاغة قس ، وتارة يلقاك بعنى باقل ، تحريف كثير في المعاني ، واحالة في الوضع ، وغلط في السجع ، وشروء عن الطبع .

وقال ابن المربان : هو كثير السرقة ، سييء الاتفاق ، رديء القلب ، فروقة (١) في ايراده ، هزيمته قبل هجومه ، واحجامه أظهر من اقدامه ..

وقال الصابي : هو مجتهد غير موفق ، وفاضل غير منطوق (٢).

وقال على بن جعفر : هو يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة ، وطباعه تصدق عنه بالتخلف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والاخلال والفجاجة . وأما حالته فبالابعاد عن حومة القصيد والارادة ، والعجب أنه يحفظ الطم والرم (٣) من النثر والنظم ، ثم اذا ادعاهما يقع دونهما سقوطا ، أو يتجاوزهما فروطا (٤) ، وهذا مع الكبر المقنوت والتشيع الظاهر ، والدعوى العارية من البيئة العادلة ..

وقال أحمد بن محمد : ... بلى ابن عباد في هذه الصناعة بأشياء

(١) رجل فروقة شديد الفرق - بفتحيتين - وهو الفزع .

(٢) غير منطوق أى غير بليغ النطق .

(٣) الطم والرم : العدد الكثير ، يقال جاء بالطم والرم ، والطم

في الأصل الماء الكثير أو ماسنائه الماء من غشاء ، والرم الثرى .

(٤) الفروط التقدم .

كلها عليه لاله .. فأول ما بلى به أنه فقد الطبع وهو العمود ،
والثاني العادة وهي الموازية^(١) ، والثالث الشغف بالجاسي^(٢) من
اللفظ وهو الاختيار الرديء ؛ والرابع تتبع الوحشى وهو
الضلال المبين ، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس
استكراه المقصود من المعنى واللفظ على النبوة ، والسابع
التعاضل^(٣) المجهول بالاعتراض ، والثامن الف الرسوم الفاسدة
من غير تصفح ولا فحص ، والتاسع قلة الاتعاط بما كان —
للشقة الواقعة في النفس — من الفائق ، والعاشر تنفيق المتاع
بالاقتدار في سوق العز ، وهذه كلها سبل الضلالة ، وطرق
الجهالة^(٤) ..

ونعتقد أن شيئا من هذا الكلام أو هذه النعوت لا ينطبق
على شيء من شعر الصاحب ، وإن كان ينطبق بعضه على شيء من
نثره المسجوع من أمثلة ما روى أبو حيان نفسه شيئا منه أوردناه
فيما تقدم ، وقلنا رأينا فيه .. وهذا أيضا على فرض التسليم
بصحة ما أورد من السجع المتكلف واللفظ الغريب والوحشى ،
وعلى فرض التسليم أيضا بصحة صدور هذه الأحاديث والآراء
عمن ذكر أسماءهم ! .

ولا يستبعد الأستاذ أحمد أمين في مقدمته التي كتبها للامتناع

(١) الموازية أى المساعدة المعينة .

(٢) الجاسي : الجاف الصلب ،

(٣) التعاضل التعقيد ، والتعاضل معان أخرى ، أكثرها مناسبة

هنا التعقيد بعدم تنسيق الكلام ووضع كل كلمة في موضعها .

(٤) الامتناع والموانسة ٦٥/١ .

والمؤانسة أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه ، واخترع أشياء لم تجر
في مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، وقد اتهمه
العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة
المعزوة الى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن
أبي طالب ، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التي دعت
أن يرجو أبا الوفاء — وهو الذي كتب له ما جرى بينه وبين
الوزير أبي عبد الله العارض — في أن يكون الكتاب سرّاً ، فانه
ألف الكتاب في حياة الوزير ، وخشى أن يطلع عليه الوزير ، فيعلم
مقدار ما تزيد (١) ..

لقد جمع القائلون في هذه الكلمات ، أو جمع لهم أبو حيان ،
جميع عيوب الفن الأدبي ، وصبوها على أدب الصاحب الذي لم
يرأ ولا سيما بعض ثمره منها ، ولكن تجريد هذا الأدب من كل
مزية والصاق كل نقص به محال في مجال النقد التزيه الخالص من
نزعات الكيد والانتقام التي سميت آراء أبي حيان وروايات
أبي حيان .

ذلك أن القول المطبوع ، والأدب الصافي ، والشاعرية المرفهة
كل ذلك واضح المعالم في أدب الصاحب لكل منصف يطلع على
شعره وأكثر ثمره .

لقد كان الصاحب يرتجل الشعر ، فتخال لفرط إتقانه وصفاء
ديباخته أنه شعر معدّ مهذب أعاد صاحبه النظر فيه ، لولا أن رواته

(١) انظر مقدمة (الامتاع والمؤانسة) بقلم الأستاذ أحمد أمين :

سمعوا هذا الشعر ، وأخبروا عن ارتجاله في مناسباته . بل لقد كان صاحب يسبقهم الى أشطرهم وقوافيهم التي ينشدونها في حضرته فتكون تلك الأشطر هي عين ما قالوا ، ومن أمثلة ذلك ما حدث أبو الرجاء الضرير الشطرنجي العروضي الشاعر الأهوازي في قوله : قدم علينا صاحب بن عباد في السنة التي جاء فيها فخر الدولة ، ولقيه الناس ، ومدحه الشعراء ، فمدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبي القاسم الصاحب اسما عيل كافي الكفاة
فقال الصاحب : قد كنت والله أشتهي أن تجتمع كنيتي واسمى
ولقبى واسم أبي في بيت !

قال أبو الرجاء فلما انتهيت الى قولي فيها :

* ويشرب الجيش هنيئاً بها *

قال الصاحب : يا أبا الرجاء ، أمسك ! فأمسكت ، فقال :
ويشرب الجيش هنيئاً بها

من بعد ماء الرى ماء الصّراة (١)

هكذا هو ؟ قلت : نعم ! قال : أحسنت ! قلت : يا مولاي ،
أحسنت أنت ، عملت أنا هذا في ليلة ، وأنت عملته في لحظة (٢) !
وروى عون الهمداني أن الصاحب أتى بسلام مثاقف (٣) ،

(١) الصراة نهر بالعراق .

(٢) معجم الأدباء ٢٥٤/٦ .

(٣) المثاقفة الملاعبة بالسلاح .

فلعب بين يديه ، فاستحسن صورته وأعجب بمشاقفته . فقال
لأصحابه : قولوا في وصفه ، فلم يصنعوا شيئاً ، فارتجل الصاحب :
مثاقف في غاية الحذق فاق حسان الغرب والشرق
شبهته والسيف في كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق^(١)
واتحل أحد المتشاعرين بعض شعر الصاحب ليمدحه به ،
فبلغ الصاحب ذلك ، فقال : ابلغوه عنى :

سرفت شعري ، وغيري يضام فيه ويجزع
فسوف أجزيك صفعا يكدر رأسا وأخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع
وكتب اليه أبو منصور الجرجاني :

قل للوزير المرتجي كافي الكفاة الملتجا
اني رزقت ولبداً كالصبح اذ تبلجا
... لا زال في ظلك ظ ل المكرمات والحجا
فسمه ، وكنه مشرقاً ، متوجاً

فوقع الصاحب تحت هذه الأبيات :

هنته ، هنته شمس الضحا ، بدر الدجى
فسمه « محسننا » وكنه « أبا الرجا »
وأهدى العميري قاضي قزوين الى الصاحب كتباً ، وكتب معها :
العميري عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب منعمات من حسناتها مترعات

(١) يتيمة الدهر ٢٠٢/٣ ووفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

فوقع الصاحب تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتابا
ورددنا لوقتها الباقيات
لست أستغنم الكثير فطبعي
قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات» !

وكتب الصاحب الى أبي هاشم العلوي ، وقد أهدي اليه في
طبق فضة عطرا :

العيد زارك نازلا برواقك يستنبط الاشرار من اشراقك
فأقبل من الطيب الذي أهديته ما يسرق العطار من أخلاقك
والظرف يوجب أخذه مع ظرفه فأضف به طبقا الى أطباقك
ولما أتت الصاحب البشارة بسبطه عباد بن علي الحسنی ، ولم
يكن للصاحب ولد غير أمه ، وكان قد زوجها من أبي الحسن علي
ابن الحسين الحسنی الهمداني ، وكان شاعرا أدبيا بليغا ، أنشأ
الصاحب يقول :

أحمد الله لبشرى	أقبلت عند العشي
اذ حباني الله سبطا	هو سبط للنبي
مرحبا ثمت أهلا	بسلام هاشمي
نبوي ، علوي	حسيني ، صاجبي

ثم قال :

الحمد لله حمدا دائما أبدا
قد صار سبط رسول الله الى ولدا

والحقيقة أن كثيرا من هذه الأشعار المرتجلة لا يصور الفحولة التي يتصف بها شعر الصاحب ، فإن فيها من بساطة التعبير ، ومن قرب المعاني ، ما يهبط بها كثيرا عن درجات شعره الرائق الممتاز ، ولكن مواقف الارتجال وغزارة البداهة من غير اعداد أو تعبير ترقى به الى درجة الشعر الذي نجد فيه عذوبة الصاحب ، وسماحة طبعه ، حتى لقد يكون في الامكان القول بأن الصاحب لو أراد أن يكون كل كلامه على هذا النمط من الشعر لم يتأب عليه القول ، ولم يستعص عليه شيء مما يريد ، فقد أصبح القريض طوع بنائه ، يكاد يسيل على عذبات لسانه .



ولقد كانت ثقافة الصاحب الأدبية واطلاعه على غرر الشعر وروائع الكلام سببا من أسباب افادته من شعر غيره ، وأخذ من معاني بعضهم في نظر بعض الكاتبين في تاريخ الصاحب ، كما فعل الثعالبي في محاولته ارجاع بعض معاني الصاحب الكتابية الى أبي الطيب المتنبى ، وقد فصلنا الكلام في هذا الموضوع ، وشرحنا رأينا ورأى النقاد فيما أثبتته الثعالبي ، ونذكر هنا أن الثعالبي بعد أن أورد في يتيمته غررا من شعر الصاحب ، ذكر نبذا من سرقاته في شعره ، وقال فيها : سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : قال بعض ندماء الصاحب له يوما : أرى مولانا قد أغار في قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود
على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا

فقال : كما أغار هو بقوله :

يا بال هذى النجوم حائرة كأنها العمى مالها قائد

على العباس بن الأحنف في قوله :

والنجم في كبد السماء كأنه أعمى تحير ما لديه قائد

وسمعت أيضا أبا بكر يقول : أنشدني الصاحب نتفة له منها

هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه

فقولوا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جدا حتى جمعت من حسدى له عليه ، ووددت

لو أنه لى بألف بيت من شعري ! قال الثعالبي : فأفشدت الأمير

أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى هذا البيت ، وحكى له

هذه الحكاية في المذاكرة ، فقال لى : أتعرف من أين سرق

الصاحب معنى هذا البيت ؟ فقلت : لا والله ! قال : انما سرقه من

قول القائل . ونقل ذكر العين الى ذكر الصدغ :

لدغت عينك قلبى انما عينك عقرب

لكن المصة من رى قمك تريقا مجرب

فقلت : لله درّ مولانا الأمير ! فقد أوتى حظا كثيرا من

التخصص بمعرفة التلصص ! قلت : ومعنى قول الصاحب فى الثلج :

وكان السماء صاهرت الأر ض فكان النشار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكان الربيع يجلو عروسا وكانا من قطره فى نثار

وقول الصاحب :

يقولون لى كم عهد عينك بالكرى
فقلت لهم : مذ غاب بدر دجاها
ولو تلتقى عين على غير دمة
لصارمتها حتى يقال نفاها
مأخوذ لفظ البيت الثانى من قول المهلبى الوزير :
تصارمت الأجفان منذ صرمتنى
فما تلتقى الا على عبرة تجرى

وقول الصاحب :

هات مشطا الى ولىك عاجا فهو أدنى الى مشيب الرعوس
واذا ما مشطت عاجا بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس
مأخوذ من قول أبى عثمان الخالدى :
ورأتنى مشطت عاجا بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس
وأخذ قوله :

فم الغويرى اذا فتشته أتن فم
كم قلت اذ كلمنى وأسفى على الخشم
من قول المهلبى الوزير :

وان أبصرت ظلعتيه فوا لهفى على العمش
وأخذ قوله فى ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا وأبناؤه لفظا عريّا عن المعنى
من قول المتنبى :

* والدهر لفظ أنت معناه *

وقوله في القافية الأخيرة :

وناصح أسرف في النكير
فكيف صغت الهجو في حقير
فقلت : لا تنكر وكن عذيري
من قول الحمدوني :

* هبوني امرأ جريت سنفى على كلب *

وقوله في البيت الأخير من هذه الأبيات :

ومهفهف حسن الشمائل أهيف
ما زال يبعدني ويؤثر هجرتي
فجذبت قلبي من اسار يديه
قالوا تراجعهم ؟ فقلت بديهة
والله لا راجعته ولو أنه
مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمتسه ولو أنه

كالشمس أو كالبدر أو كالمتنفي (٢)

ولا شك أن الافادة في معاني هذا الشعر أوضح من الافادة
فيما قدمناه من المنشور من كتابة صاحب ، ولكن الافادة هنا
لا تعنى النقل ، بل هنا تصرف كثير ، وقد يقع للمتأخر معنى سبقه
اليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكنه كما وقع للأول وقع للآخر ،
فليس هنا ما يدعو إلى الجزم بأن صاحب اطلع على الكلام الذي

(١) النكير : النقرة التي في ظهر النواة .

(٢) يتيمة الدهر ٢٧٧/٣ .

قيل انه أفاد منه أو انه سرقه . قال أبو هلال : وهذا أمر عرفته من
نفسى ، فكيف أمتري فيه ، وذلك أنى عملت شيئا فى صفة النساء
* سفرن بدورا وانتقبن أهلة *

وظننت أنى سبقت الى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت
الى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين ، فكثر تعجبى ، وعزمت
على ألا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما (١) ..

الصاحب الناقد

وكما كان الصاحب بن عباد أدبيا كبيرا ، وكاتبا فى مقدمة
أعلام هذا الفن عند العرب ، وشاعرا تفيض شاعريته بهذا الشعر
المستعذب المطبوع ، كان كذلك ناقدًا فى طليعة النقاد الذين يعتد
بآرائهم ونظراتهم الصائبة الى الفن الأدبى ..

والأديب أعرف من غير شك بصناعته ، والكاتب أحق الناس
بالقول فى كتابته ، والشاعر أعرف من غيره بمواضع الاجادة ،
ومواطن التقصير ..

وقد عرفنا أن الصاحب كان واسع الاطلاع كثير المحفوظ من
الروائع الأدبية ، وقد أعانته ادامة النظر على صحة الفكرة وجودة
الرأى فيما يرى وفيما يسمع ، فقد صارت حضرة كما يقول
الشعالبى (٢) مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار

(١) الصناعتين ١٩٧ .

(٢) يتيمة الدهر ٢/١٨٩ .

الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم ودرر
القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد
الاعجاز ... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء
الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ،
ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني ،
فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب
الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين ، كأبي نواس ،
وأبي العتاهية ، والعتابي ، والنمرى ، ومسلم بن الوليد ،
وأبي الشيص ، ومروان بن أبي حفصة ، ومحمد بن مناذر ..

وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى . وجرجان مثل
أبي الحسين السلامي ، وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي طالب
المأموني ، وأبي الحسن البديهي ، وأبي سعيد الرستمي ، وأبي
القاسم الزعفراني ، وأبي العباس الضبي ، وأبي الحسن بن
عبد العزيز الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي محمد
الخازن ، وأبي هاشم العلوي ، وأبي الحسن الجوهري ، وبنو
المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشاني ، وأبي الفضل الهمداني ،
واسماعيل الشاشي ، وأبي العلاء الأسدي ، وأبي الحسن
الفويري ، وأبي دلف الخزرجي ، وأبي حفص الشهرزوري ،
وأبي معمر الاسماعيلي ، وأبي الفياض الطبري ، وغيرهم ..

ومدحه مكاتبة الشريف الموسوي الرضي ، وأبو اسحاق

الصابي ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباته ...
وحدث ابن بابك قال : سمعت الصاحب يقول : محدث

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد
أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، ما سررت
بشعر ، ولا سرنى شاعر كما سرّنى أبو سعيد الرستمى الأصفهانى
بقوله :

ورث الوزارة كابرًا عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد
يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن عباد^(١)
ان رجلا يرى هؤلاء ويقرأ شعرهم ويستمتع اليه لجدير بأن
يخرجه هذا فى فهم الشعر والأدب وأن يعينه على تذوقه ، ويقدره
على ابداء الرأى فى صوابه وخطئه وفى جودته ورداءته ، وأن
تتسع خبرته بالفن الأدبى لسائر فنونه من الكتابة والخطابة
والشعر ، ولكل ما يتصل بمبناها ومعناها وفى استطاعته أن يردّ
كل قول الى أصله ، وكل سطو الى صاحبه ، ومن أمثلة ذلك ما مر
من أن بعض ندماء صاحب قال له يوما : أرى مولانا قد أغار
فى قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل

ولكن لصون الحسن بين برود

على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصنّ به الجمالا

فقال صاحب : كما أغار هو بقوله :

ما بال هذم النجوم حائرة كأنها العمى مالها قائد

(١) معجم الأدباء ٦/٢٦٣ .

على العباس بن الأحنف في قوله :
والنجم في كبد السماء كأنه أعمى تحير ما لديه قائد
فما أكثر حفظه ، وما أسرع استحضاره !
وقال الشاعر الأوسى : مدحت الصاحب بن عباد بقصيدة ،
وكنتم أنشدوها بين يديه ، فلما بلغت قولى :
لما ركبك إليك مهرى نعلتها بدر السما وسمرتها بكواكبها
فقال لى الصاحب : لم أنثت المهر وهو مذكر ؟ ولم شبهت
النعل بالبدر وهو لا يشبهه ؟ واو شبهته بالهلال لكان أحسن
لأنه على صورته وهيئته !

* * *

ومع أن كثيرا من النصوص النقدية التى قيلت فى تلك
المجالس وأشباهاها قد أضاعه الزمن فيما أضاع من آثار الصاحب
الحافلة فى فنون المعرفة والأدب فقد حفظ التاريخ شيئا من آثار
النقد التى كتبها الصاحب ، وهى تنم على معرفة عميقة بالفن
الأدبى ، ومذاهب أصحابه ، ولا غرو فقد كان الصاحب كما يقول
عن نفسه « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكابر
الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء ، بالجمال تارة
وبالعراق مرة ، وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب
عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب ، فما رأيت من يعرف الشعر
حق معرفته ، وينقده حق نقده غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل
ابن العميد ، فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ،
فلا يرضى بتهذيب المعنى ، حتى يطالب بتخير القافية والوزن ،

وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطرافه كلامه تعلقت فيما أتحدى به في هذا الجنس » .. وذلك بعد أن وصف المتكلمين في الشعر الذين يتصدون لإصدار الأحكام على الأدباء ، وهم لا يملكون الأداة التي تمكنهم من إصدار هذه الأحكام : « وقد بلينا بزمن زمن^(١) يكاد المنسم^(٢) فيه يعلو الغارب^(٣) ، وميننا بأغبياء أعمار^(٤) قد اغتروا بمساح الجبال لا يضرعون لمن حلب الدهر أشطره^(٥) ، ولا سيما علم الشعر فهو فوق الثريا وهم تحت الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فإذا تكلموا رأيت بهائم مرسنة^(٦) ، وأنعاما مجفلة^(٧) .

الصاحب والمنتبى :

قال الصاحب هذا في وصف كثير من الذين كانوا يعرضون في زمنه للكلام في فن الشعر من غير علم ولا معرفة في مقدمة رسالته التي كتبها في « الكشف عن مساوىء المنتبى » لما رأى

(١) الزمن — بكسر الميم — المبتلى .

(٢) المنسم — على وزن المجلس — خف البعير .

(٣) الغارب : ما بين السنام الى العنق .

(٤) جمع غمر — بضم الفين وسكون الميم وضمها ، وهو

الذى لم يجرب الأمور .

(٥) حلب الدهر أشطره ، مثل يضرب في الخبرة وطول التجربة .

وهو مستعار من حلب أشطر الناقة وذلك إذا حاب خالفين من

أخلافها ثم يحلبها الثانية خلفين أيضا ، والمعنى أنه اختبر الدهر

شطرى خيره وشره فعرف ما فيه .

(٦) مرسنة أى مشدودة بالرسن وهو الحبل .

(٧) يقال : أجفلت الدابة إذا أسرعت وذهبت في الأرض .

كثيرا من هؤلاء يشيدون بالمتنبى ، ويغنون في وصف شاعريته .
ولقد شغل أبو الطيب المتنبى عصره ومعاصريه بشعره
وشخصيته ومطامحه ، فقد اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير
حلب والشعور والجزيرة ، فمدحه بمدائح خلدت وخطت اسمه
أبد الدهر ، وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم ، وحدث في
واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة ، وتشتت جنده ،
وهلكت أتباعه ، وثبت سيف الدولة في ستة نفر أحدهم أبو الطيب ،
فاخترقوا صفوف العدو ونجوا ، وبقي أثيرا عند سيف الدولة
مقدما في جميع حاشيته وبطاطته مع صلفه وتيئه ، فحسده بطاتته ،
فوشوا به اليه حتى فارقه الى كافور الاخشيدى صاحب مصر
واسع الآمال في ملك أو ولاية ، حتى اذا طاش سهمه وخاب فآله
فر من مصر ، قاصدا بغداد ، وقد ترفع عن مدح الوزير المهلبى ،
ترفعا عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على المهلبى ، فأغرى به
شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه ، وأسمعوه
ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، فلم يجبههم ولم يفكر
فيهم ، وقيل له في ذلك ، فقال : انى قرغت من اجابتهم بقولى لمن
هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غروا بدمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا قم مرر مريض يجد مرءا به الماء الزلالا
ثم ان أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجها الى
حضرة أبى الفضل بن العميد مراغما للمهلبى الوزير ، فورد أرجان ،
وأحمد مورده .

ويقال ان صاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبى إياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب ، ولم يكن قد استوزر بعد . وقد كتب صاحب اليه يلاطفه في استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله . فلم يقم له المتنبى وزنا ، ولم يجبه الى كتابه ، ولم يحقق مراده .

وقصد المتنبى بعد ذلك الى حضرة عضد الدولة بشيراز — فأسفرت سفرته — كما يقول الثعالبي^(١) — عن بلوغ الأمنية ، وورود مشرع المنية .. وذلك أن المتنبى قتل عند مغادرته إياه محملا بالعطايا والهبات ..

قال الثعالبي : واتخذ الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقية ، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا إياها ، وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته !

* * *

وقد عمل الصاحب رسالة فيما أخذه على المتنبى ، وذكر الحاتمي جملة من نقذات الصاحب في مناظرته مع أبي الطيب المتنبى . « واذا فرضنا أن الذي دعا الصاحب الى عمل هذه الرسالة هو استيأؤه من المتنبى حيث تعاظم عن مدحه ، فانا نجده لم يتعامل عليه بالباطل في شيء منها ، ولم يظلمه بحرف واحد جاء فيها ، ولم يعبه الا بما هو عيب ، لا يمكن للمتنبى ولا لغيره أن يعتذر منه (٢) ..

(١) يتيمة الدهر ١/١٢٢ .

(٢) أعيان الشيعة ٨/١٦٠ .

وفي مقدمة تلك الرسالة التي كتبها صاحب في الكشف عن مساوئ المتنبي ، نجد صاحب قبل أن يدخل في موضوعه يبرأ من الهوى والعصبية ، ويرى أنهما يزريان بالعالم ويحطان من علمه ، كما أن تغليب الهوى يطمس الحقائق « أما بعد ، — أطال الله مدتك ، وأدام في العلو رغبتك — فالهوى مركب يهوى بصاحبه ، وظهر يعثر براكبه . وليس من الحزم أن يزرى العالم على نفسه بالعصبية ، ويضع من علمه بالحمية . فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم متفقون على أن تغليب الهوى يطمس أعين الآراء ، وأن الميل مع الهوى عن الحق ييهم سبيل الصدق ^(١) . ثم يذكر سبب التأليف وهو تعصب بعض الأدباء لأبي الطيب المتنبي ، وفيهم أن له قبيحا ، وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي ، فقلت : انه بعيد المرمى ، وشعره كثير الاصابة في نظمه ، الا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ! . فرأيته قد هاج وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحداني ، فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره ، وقيّد بالخط ما تذكره ، لتتصفح العيون ، وتسبكه العقول !

ففعلت ذلك ، وان لم يكن تطلب العثرات من شيمتي ،

(١) الكشف عن مساوئ المتنبي = الابانة عن سرقات

«ولا تتبع الزلات من طريقتي ! وقد قيل : أى عالم لا يهفو ،
وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ وانبا قلت ما قلت لثلا
يقدر هذا المعترض أنتى ممن يروى قبل أن يروى^(١) ، ويخبر
قبل أن يخبر . فاستمع وأنصت ، واعدل وأنصف ، فما أوردت
من كثير مازل فيه الا قليلا ، ولا ذكرت من عظيم ما اختل فيه
الا سيرا ..»

قال الصاحب : والآن حين أعود الى ذكر المتنبي ، فأخرج
بعض الأبيات التى يستوى فيها الرئىض والمرتاح^(٢) فى المعرفة
بسقوطها دون المواضع التى تخفى على كثير من الناس انعموضها .
فأما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام .
عليها ، ولكن يعاب اذا كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري
«وغيره جل المعانى ، ثم يقول لا أعرفهم ، ولم أسمع بهم ، ثم ينشد
أشعارهم ، فيقول : هذا شعر عليه أثر التوليد ؟
ثم يأخذ الصاحب فى تعداد المعاييب فى بعض شعر المتنبي ،
فيقول : وأول حديث المتنبي أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع
«من جمع الاحسان والاساءة فى بيت كقوله :

* بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها

وهذا كلام مستقيم لو لم يعاقبه ويعقبه بقوله :

* وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

(١) يروى الثانية - بتشديد الواو المكسورة - ينظر ويفكر .

(٢) يقال ناقة ريض ، أول ما ريضت وهى صعبلة بعد ،

والمرتاح المهر صار مروضا .

فإن الكلام إذا استشف جيداً ووسطه ورديته كان هذا
الكلام من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الأدباء . وأعجب
من هذا هجومه على باب قد تداولته الألسنة ، وتناولته القرائح ،
واعتورته الطباع بأساءة لا إساءة بعدها : سقوط لفظ وتهافت .
معنى ، فليت شعري ! ما الذى أعجبه من هذا النظم ، وراقه من
هذا السبك ، لولا اضطراب فى النقد ، واعجاب بالنفس ؟
ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة .
الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب أقرب إلى الأفهام منه ، وهو :
نحن من ضايق الزمان له فيك وخائنه قربك الأيام^(١)
فإن قوله « له فيك » لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى .
لنازعته المتصوفة دهرًا بعيداً ..



ثم تناول الصاحب أبياتا من مرثية المتنبي فى أم سيف الدولة ،
ووصفها بأنها تدل على فساد الحس ، وسوء أدب النفس ، وهى .
الأيات :

رواق العزّ حولك مسبطر	وملك على ابنك فى كمال
وهذا أول الناعين طرّا	لأول ميتة فى ذا الجلال
صلاة الله خالقنا حنوط	على الوجه المكفن بالجمال
ولا من فى جنازتها تجار	يكون وداعهم خفق النعال
وأفجع من فقدنا من وجدنا	قيل الفقد مفقود المثال

(١) يريد أن الزمان يهواه ويغار عليه فلا يسمح لأحد أن
يقرب منه لينفرد به دون الناس .

وقد غاب الصاحب البيت الأول بأن لفظة « الاسطرار » (١) في مرثي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق المغير . وقال عن البيت الثاني من سمع باسم الشعر عرف ترددده في انتهاك السر ، ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال البيت الثالث ، وقد قال فيه بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ولكنها استعارة حداد في عرس . ولما أحب تقريظ المتوفاة والافصح عن أنها من الكريمات قال البيت الرابع بعد أن أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبدة شعره (٢) ، وسخر الصاحب بقوله : لعل هذا البيت عنده وعند من يقول بامامته أحسن من قول الشاعر :
 أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه فطيب تراب القبر دلّ على القبر
 أما البيت الخامس فقد قال فيه ان الناس كانوا يستبشعون قول مسلم بن الوليد :

* سلت وسلت ثم سل سليلها *

حتى جاء هذا المبدع فقال بيته ، وأظن المصيبة في الرائي أعظم منها في المرثي !
 وأخذ الصاحب على المتنبي التفاسح بالألفاظ النادرة

(١) الاسطرار التمدد .

(٢) معنى هذا البيت انها ليست من النسوة السوقة يسير وراء جنازتها التجار والباعة ، وينفضون نعالهم بعد انصرافهم من قبرها .

والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غدى لبن (١) ، ولم
يطأ الحضر ولم يعرف المدر (٢) ، فمن ذلك قوله :
أيفطمه التوراب قبل فطامه

ويأكله قبل البلوغ الى الأكل (٣) ؟
وما أرى كيف عشق « التوراب » حتى جعله عوذة شعره ؟ .
وعاب عليه قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا

فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
قال : وما زلنا نعجب من قول أبي تمام « لا تسقني ماء
والمخضرمين والمحدثين ، والصب على قوالبهم ، فقال :
الملام » فحفت علينا بحلواء البنين . وقد أراد التشبه بالمتقدمين
ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام
و « حينئذ » هنا أقرر من غير منفلت . ومن أساليبه العجيبة في
التعزية عن المصيبة قوله :

لا يحزن الله الأمير فأننى لأخذ من حالاته بنصيب
ولا أدري لم لا يحزن سيف الدولة اذا أخذ أبو الطيب
بنصيب من القلق ؟ أترى هذه التسلية أحسن عند الشعراء أم
قول أوس :

(١) أى كأنه أعرابي من البادية .

(٢) المدر : المدن والحضر .

(٣) التوراب : التراب ، معنى البيت : أيفطمه التراب قبل أن
تفطمه أمه ، ويأكله التراب قبل أن يبلغ سن الأكل .

آيتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا ؟
وكنتم أتعجب من كلام أبى يزيد البسطامى فى المعرفة وألفاظه
المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا فى صفة فرس :
وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
وما أحسن ما قال الأصمعى لمن أنشده :

فما للنوى جذّ النوى قطع النوى

كذلك النوى قطّاعة لوصال

لو سلط الله على هذا البيت شاة لأكلت هذا النوى كله .
ولم تنفك مستحسنين لجمع الأسامى فى الشعر ، فاحتذى هذا
الفاضل على طرق الشعراء فقال :

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه

تشابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدون وحمدون حارث

وحارث لقمان ولقمان راشد

وهذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا
الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس .. ومن بدائعه
الطريفة عند متعلقى حيله وقرائحه البديعة عند ساكنى ظله :

شديد البعد من شرب الشمول ترنج الهند أو طلع النخيل
فلا أدرى استهلال الأبيات أحسن ؟ أم المعنى أبدع ؟ أم قوله
« ترنج » أفصح ؟

ومن لغاته الشاذة ، وكلماته النادرة قوله :

كل آخائه كرام بنى الدن سىا ولكنه كريم الكرام

ولو وقع « الآخاء » في رائية الشماخ لاستثقل ، فكيف مع
أبيات منها :

قد سمعنا ما قلت في الأحلام فأجزناك بدرة في المنام
والكلام اذا لم يتناسب زيفه جهابذته ، وبهرجه نقاده .

وله بيت لا يدري أمدح القائل به أم رثاه ، وهو :

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل^(١)
فلم يرض أن سرق من بشار قوله :

والخيل شائلة لشق غبارها كعقارب قد رفعت أذنا بها

حتى ضيّع التشبيه الصائب بين ألفاظ كالمصائب . والذي

لا أمتري فيه أن عالما من المناضلين عنه عنده أن « شوائل تشوال

العقارب » أبدع في صفه الخيل من قول امرئ القيس :

له ايطاليا طي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تنقل

ومن أوابده التى لا يسمع طوال الدهر مثالها قوله في سيف

الدولة :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة

ففى الناس بوقات لها وطبول

وهذا التحاذق منه كنغزل الشيوخ قبحا ، ودلائل العجائز

سماجة ، ولكن بقى أن يوجد من يسمع . وفى هذه القصيدة

يقول :

(١) شوائل : يقال شالت العقرب ذنبها اذا رفعت ، يريد أنها

مزيفة ألسير ، ترفع أذناها فى سيرها ، وذلك دليل على كرمها
وقوتها .

فان تكن الدَّوَلات قسما فانها

لمن ورد الموت الزَّوَام تدول

فان قوله « الدولات » و « تدول » من الألفاظ التى لو رزق

فضل السكوت عنها لحاز فضلا ، ومن مبادئه التى تجمع استكراه
الألفاظ وسقوط المعنى :

وما مطَّرتنيه من البيض والقنا

ورثوم العبدى ها طلات غمامه^(١)

ومن ركيك صنعته فى وصف شعره والزراية على غيره قوله :

ان بعضا من القريض هراء

ومن هذا نتيجة قريحته فى وصف شعره كيف يطمع له بادعاء

السبق لولا التقليد الذى صار آفة العقول وعاهة الألباب ؟ ومما
لم أقدره يلج سمعا أو يرد أذنا قوله :

جواب مسألى : أله نظير ؟ ولا لك فى سؤالك لا ألا^(٢)

وقد سمعت بالفأفاء ، ولم أسمع بالألأاء حتى رأيت هذا

المتكلف المتعسف الذى لا يقف حيث يعرف . ومن استرساله الى

(١) البيض السيوف ، والقنا الرماح ، والعبدى - بكسرتين

ودال مشددة مفتوحة - العبيد . يقول انى سائر كذلك فيما
يمطرنى به سحاب جودك من سيوف ورماح يحملها العبيد ، فانت
وهبت لى العبيد وسلاحهم .

(٢) معناه : اذا سئلت عن هذا الممدوح : أله نظير ؟ فالجواب :

لا ، ولا لك أيضا نظير فى هذا السؤال ، فان أحدا لا يجهل هذا
غيرك !

الاستعارة التي لا يرضاها عاقل ، ولا يلتفت اليها فاضل قوله :
تتقاصر الأفهام عن ادراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدنا
فالمصراعان يتبرأ أحدهما من صاحبه ، ثم « الدنا » من الألفاظ
التي لا يبالى الانسان أن يعدمها في شعره . ومن شعره الذي
يدخل في العزائم ، ويكتب في الطلسمات قوله :

لم تر من نادمت الاكا لا لسوى ودك لي ذاك
وأحسب أنه بهذا البيت أشد سرورا من أم الواحد بواحد
وقد آب بعد فقد ، أو بشرت به عقب ثكل ، ومن أبياته السنية
الجماعية قوله :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤثما بها جبرين
وقلب هذه اللام الى نون أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب
جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة .. ومن عيوب قصائده
التي تحير الأفهام ، وتقوت الأوهام جمعه من الحساب ما لا يدرك
بالأرتماطيقى^(١) ، ولا بالأعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

أحاد أم سداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتنادي
وهذا كلام الحكل^(٢) ورطانة الزط^(٣) ، فما ظنك بممدوح

(١) الأرتماطيقى المقصود به علم الحساب ، وقد نقل بعض
الترجمين الكلمة بحروفها منذ عهد الترجمة والكلمة يونانية
نقلت عنها معظم اللغات الأوروبية .

(٢) الحكل بالضم ما لا يسمع صوته كالدر .

(٣) الزط : جيل من الهند ، معرب .

قد شمر للسماح من مادحه ، فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ،
والمعاني المنبوذة ؟ فأى هزة تبقى هناك ؟ وأى أريحية تثبت بهذا ؟
ومن مساءلته للطلول البالية ، وكلامه أشد منها بلى ، وأكثر
أخلاقا :

أسألكم عن المتدريها (١) فما تدري ولا تدري دموعا
فان لفظة (المتدريها) لو وقعت في بحر صاف لكدرته ،
أو ألقى ثقلها على جبل سام لهذته ، وليس للمقت غاية ، ولا للبرد
نهاية .. ومما يتصل بالفن المتقدم قوله :

عظمت فلما لم تكلم مهابة

تواضعت وهو العظم عظما على العظم
وكان الرجل محاربا ، فقال في وصف الحروب وما تنتج من
رعب القلوب قوله :

فعدا أسيرا قد بللت ثيابه بدم وبلّ ييوله الأفخاذا

فكأنه حسب الأسنة حلوة أو ظنها البرنى والآزادا (٢)

فلا أدري أكان في حومة الحرب ، أم في سوق التمارين في
البصرة . ومن مبادئه التي تنبئ عن ركوبه لرأسه ، وعشقه
لنفسه قوله :

لجنّية أم غادة رفع السجف

لوحشية لا ما لوحشية شنف (٣)

(١) المتديرون الذين اتخذوها دارا . اذا سألت الربوع :

لا تدري ما تقول ، ولا تبكى فتساعدنى على البكاء .

(٢) البرنى والآزاد ، نوعان من أنواع التمر الجيد .

(٣) السجف جانب الستر ، والشنف ما علق فى أعلى الأذن

وفي هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفتن لها الا من جمع في علم وزن الشعر بين العروض والذوق ، وهو قوله :

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف
وذلك أن سبيل العروض الطويل أن تقع « مفاعلين » وليس
يجوز أن تأتي « مفاعيلين » الا اذا كان البيت مصرعا ، اللهم الا أن
يضع عروضاً لتمام الدائرة ، فهذه العروض قد ألزمت القبض
لعل ليس هذا موضع ذكرها ، ونحن نحاكمه الى كل شعر للقدمات
والمحدثين فما نجد له على خطئه مساعداً .. ومنها بيت قد حشا
تضاعيفه بالضعف ، وهو :

ولا الضّعف حتى يبلغ الضّعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت
على صدر الكعبة ، وينادي في الناس : قعوا له ساجدين .. وله
وقد غاص فأخرج جندلة قوله :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو

عقمت بمولد نسلها حواء (١)

وأنا أقول : ليت حواء عقمت ولم تأت بمثله ، بل ليت آدم

(١) اللذ : لغة في (الذي) . والمعنى لو لم تكن من هذا الورى
الذى كانه منك ، لأنك جماله وشرفه وأنت أفضل أهله لكنت حواء
في حكم العقيم . قال بعضهم : نصف البيت بهي ، ونصفه ردى .

أجفر (١) ، ولم يكن من نسله ! . ومن تصريفه الحسن وضعه
« التقييس » موضع القياس في قوله :

بشر تصور غاية في آية ينفي الظنون ويفسد التقييس
ويليه بيت ان لم يستحي أصحابه منه سلمنا لهم ، وهو :
وبه يضمن على البرية لا بها وعليه منها لا عليها يوسى
وليس بالحلو قوله :

صدق المخبر عنك دونك وصفه

من بالعراق يراك في طرسوسا

وقد كنت أسمع رواية المعلّى للخليل بن أحمد :

لكن جهلت مقالتي فعدلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك
فاقتناه شاعرنا هذا وعبر في قفاه ، فقال :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله

ويجهل علمى أنه بى جاهل

وفى رافعى رايته من يشغف بهذا البيت أشد من شغفنا بقول

حبيب الطائي :

أبا جعفر ان الجهالة أمها

ولود وأم العلم جداء حائل (٢)

ومن رفعه وافصاحه عن عظيم محله ، واباتته عن علو همته

قوله :

(١) أجفر عن المرأة : انقطع .

(٢) أبو جعفر كنية محمد بن عبد الملك الزيات ، والجداء
الصغيرة الشدى والذاهية اللبن ، والناقة الحائل التى لم تلحق سنة
أو أكثر .

ربما أشهد الطعام معنى

من لا يساوى الخبز الذى أكله

وما أدرى الى أين ينخفض قائل هذا المقال فى سقوط النفس

والسفال (١) ، وفى تشبيهاته المتناسقة فى الخذلان قوله :

وشوق كالتوقد فى فؤاد كجمر فى جوانح كالمحاش (٢)

ومن مخازيه التى خلقها خلقا متفاوتا تخفيفه « الغاش » ؛

وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الأدب يسوغه ، أو يسمح فيه
فيجوزّه ، وذلك فى قوله :

كأنك ناظر فى كل قلب فما يخفى عليك محل غاش

فإن جاز هذا جاز أن يقال عباس بن عبد المطلب ، والشماخ

بن ضرار ، ولا تشدد الباء ولا الميم ، على أن ما أورده أشنع من

هذا الذى مثلنا به ، اذ كان لفظ فاعل بنى على فاعل مشددا ..

ولا يزال يركب القوافى الصعبة ثقة بالقريحة السمحة ، فيبتدىء
زائيته بقوله :

كفرندى فرند سيفى الجراز لذة العين عدة البراز (٣)

حتى امتد به النفس فقال :

تقضم الجمر والحديد الأعادى دونه قضم سكر الأهواز

(١) السفال - بالفتح - تقيض العلو .

(٢) المحاش : ما أحرقته النار .

(٣) الفرند جوهر السيف ، والجراز - بضم - بفتح - السيف

القاطع . يقول ان سيفى شبيه بى فى المضاء ، وهو جميل فى مرأى العين .

وهذا « السكر » اذا جمع الى « البرنى » و « والأزاد »
فيما تقدم من شعره تم الأمر .. وليس العجب منه ، ولكن ممن
يظنه معصوما لا يرى له زلل ، ولا يوجد في شعره خلل .. وفي
هذه يصف الممدوح ومعرفته بالمديح فيقول :
ملك منشد القريض لديه يضع الثوب في يدي بزّاز^(١)
وفي أقل ما ذكرناه غنى للمنصف ، وان لم يكن في أكثر منه
كفاية للمتعسف . ومما دلنا على حفظه الغريب قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم

شيم على الحسب الأغرّ دلائل

يريد بالجفخ البذخ والفخر ، من قول الشاعر :
أيوعدني بجفخ بني عمير وقد أفحمت شاعر كل حي ؟
ومنه قول الآخر :

أجفخا اذا ما كنت في الحيّ آمنا

وجبنا اذا ما المشرفية سلت ؟

وليس هذا مثله وهو وايد قرية ومؤدب صبية ! وله ، يريد
أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا فأتى بأخزي الخزايا
في قوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرافا
وفي الناس أمته ! فهل ينشط لركوبها ؟ وكذلك الممدوح لعل

(١) يقول ان ممدوحه يعرف الشعر ، كما يعرف البزاز

التياب .

له عصبية لا يحب أن يركبوا اليه ^(١) ، فهل في الأرض أفجس من هذا السخب ^(٢) ، وأوضع من هذا التبسط ؟ .. وكانت الشعراء لا تصف المآزر تنزيها لألفاظها عما يستبشع ذكره ، حتى تخطئ هذا الشاعر الى التصريح الذي لا يهتدى اليه غيره ، فقال :
 انى على شغفى بما فى خمرها لأعفّ عما فى سراويلاتها ^(٣)
 وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا !

* * *

وأنهى صاحب رسالته فى الكشف عن مساوىء المتنبي بقوله : هذه أيدك الله تعالى .. مقدمة علقها ليستدل بها على ما بعدها ، لو أتيت بنظائرها مما أخرجت من شعره لأضجرت

(١) قال الواحدى : يقول لو قدرت لأظهرت ما وراء ظواهرهم من المعانى البهيمية ، وأظهر ذلك بأجرائهم مجرى سائر الحيوان بالركوب ، وانما كنت أفعل ذلك لأنه لا عقل لهم .

ويقول فى الرد على صاحب فى نقده هذا البيت : وليس الأمر على ما قال ، لأن الشاعر اذا ذكر الناس فانه يخرج من جملتهم كثيرا من الناس ، كما قال السرى الرفاء :

لا أن خير الناس حيا وميتا أسير ثقيف عندهم فى السلاسل
 لم يفضل السرى أحدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
 بهذا البيت ، وإن كان أكد بقوله « حيا وميتا »

(٢) السخب - بفتحيتين - الصخب .

(٣) الخمر جمع خمار ، وهي ما تغطى به المرأة رأسها . قال الواحدى : سمعت أبا بكر الشعرانى يقول : هذا مما عابه صاحب ابن عباد على المتنبي ، وانما قال المتنبي « عما فى سراويلاتها » وهو جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمى . يريد المتنبي : مع حبى لوجوها أعف عن أبدانهم ! .

القارىء ، وأملت السامع ، فان دام هؤلاء الأغمار على النكار (١)
لم يهدموا المادة ، ولم يفقدوا الزيادة :

فمن شاء فليعذر ومن شاء فليعلم
وللصدق أولى من وفاق البهائم

* * *

ولو أعدنا النظر في هذه الرسالة النقدية التى وصلت إلينا
لأعطينا صورة صادقة لمقدرة صاحب على مزاولة فن النقد
الأدبى ، ولو تمحض صاحب لصناعة النقد ، ولو كان أمامه من
الوقت متسع لقاض قلمه بالعجب العجائب ، ولعد فى مقدمة النقاد
العرب لأنه يفضلهم بأنه عالج هذه الصناعة وهو أديب يعالج أهم
فنون الأدب وهما فن الشعر وفن الكتابة ، وهو فيهما يفضل
صاحبيه الحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات اللذين قال
الجاحظ انه لم يظنر بما طلب من علم الشعر الا عندهما وعند
أمثالهما من أدباء الكتاب !

وقد اعترف للأدباء بالقدرة على نقد الأدب ، وفضلوا على
غيرهم من العلماء فى فروع المعرفة الذين يتناولون فن الأدب من
النواحي التى يحدقونها ويقفون عندها ، أو يتناولون هذا الفن
عن طريق الفكر والنظر ، ومصادق ذلك ما رواه محمد بن يوسف
الحمادى فى قوله : حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) المناقرة والنقار المراجعة فى الكلام ، والأغمار الذين لم يجربوا

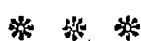
وقد حضر البحتري ، فقال : يا أبا عبادة ، مسلم بن الوليد أشعر
أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لأنه يتصرف في كل طريق ،
في كل مذهب ، ان شاء جدّ ، وان شاء هزل ، ومسلم يلتزم طريقا
واحدا لا يتعداه ، ويتحقق مذهبا لا يتخطاه .. فقال عبيد الله :
ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا ! فقال البحتري :
أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وانما يعرف الشعر
من دفع الى مضايقة ، فقال : وريت بك زنادي يا أبا عبادة ! لقد
حكمت في عمّيك حكم أبي نواس في عمّيه جرير والفرزدق ، فانه
سئل عنهما ، ففضل جريرا ، فقليل له ان أبا عبيدة لا يوافقك على
هذا ! فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، وانما يعرفه من دفع
الى مضايقة الشعر !

ولذلك كان صاحب أجدر المتكلمين في الأدب بالكلام ،
وكانت آراؤه أجدر بالاعتبار والقبول .. وقد يكون السبب الذي
دعا صاحب ما قدمناه ، وهو سخطه على المتنبي لأنه لم يردّ على
كتابه الذي أرسله اليه ، ولم يجبه الى ما أراد من شخصه اليه
ومديحه اياه . وقد يكون السبب في تحجير هذه الرسالة ما ذكره
الصاحب نفسه من تعصب جماعة ممن ينتسبون الى الأدب
للمتنبي وشعره ، وذهابهم الى تبرئته من الأخطاء والعيوب ،
ومغالاتهم في الدفاع عنه والتعصب اليه . ولذلك كان أكثر كلام
الصاحب موجها اليهم .

ومع ذلك فان صاحب كما رأينا لم يقل ان شعر المتنبي ساقط
كله ، أو مرذول أكثره ، بل ان صاحب كما رأينا يمجّد المتنبي

وَيَصِفُهُ بِأَنَّهُ « بَعِيدُ الْمَرْمَى » وَيَصِفُ شَعْرَهُ بِأَنَّهُ « كَثِيرُ الْإِصَابَةِ فِي نَظْمِهِ » .. وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ سَقَطَاتٌ مَعْدُودَةٌ ، وَهَنَوَاتٌ فِي بَعْضِ أَيْيَاتِهِ ، وَهِيَ تَغْفِرُ فِي هَذَا الْخُضْمِ مِنَ الشَّعْرِ الْكَثِيرِ الْغَزِيرِ الَّذِي جَمَعَهُ دِيْوَانُهُ الْحَافِلُ ، وَرَبَّمَا أَتَى — كَمَا يَقُولُ الصَّاحِبُ « بِالْفَقْرَةِ الْغَرَاءِ . مَشْفُوعَةٌ بِالْكَلِمَةِ الْعُورَاءِ » ..

وَيَبْدُو أَنَّ أَنْصَارَ الْمُتَنَبِّئِيِّ هُمُ الَّذِينَ اسْتَفْزَوْا الصَّاحِبَ كَمَا ذَكَرَ ، وَلَمْ يَرْضَوْا حَتَّى تَحْدُوهُ ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَثْبِتَ فِي وَرْقَةٍ مَا مَا يَنْكَرُهُ عَلَيْهِ ، وَيَقْيِدَ بِالْخَطِّ مَا يَذْكُرُهُ حَتَّى تَتَصَفَّحَهُ الْعَيُونَ ... وَاعْتَرَفَ الصَّاحِبُ بِشَاعَرِيَةِ الْمُتَنَبِّئِيِّ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ ، فَقَدْ اعْتَذَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ صَرَاحَةً : أَيْ عَالَمٌ لَا يَهْفُو ؟ وَأَيْ صَارِمٌ لَا يَنْبُو ؟ وَأَيْ جَوَادٌ لَا يَكْبُو ؟ فَقَدْ جَعَلَهُ عَالِمًا ، وَشَبَّهَهُ بِالسَّيْفِ الصَّارِمِ ، وَالْجَوَادِ السَّابِقِ الْكَرِيمِ .. وَقَالَ الصَّاحِبُ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ تَطْلُبَ الْبَعَثَاتُ لَيْسَ مِنْ شَيْمَتِهِ ، وَلَا تَتَّبِعِ الزَّلَاتُ مِنْ طَرِيقَتِهِ ..



وَلَكِنْ مِمَّا لَاشْكَ فِيهِ أَنَّ مَا أَذْكُرُهُ الصَّاحِبَ مِنْ مَا أَخَذَ عَلَى شَعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ لَا يَسَعُ أَكْثَرَ النَّاسِ انْصَافًا وَمِيلًا إِلَى التَّسَامُحِ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى صِحَّةِ رَأْيِهِ ، وَيَسَلِّمَ لَهُ بِنَقْدِهِ .

وَقَدْ أَلَمْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمَوْجُزَةَ الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَطُولَ حَتَّى تَكُونَ كِتَابًا لَهُ اعْتِبَارُهُ فِي مَرَاجِعِ النِّقْدِ وَأَصُولِهِ . أَلَمْتُ بِأَكْثَرِ النُّوَاحِي الَّتِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ وَالشَّعْرِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ ،

فقد تناولت اللفظ وقيمته ، كما تناولت التركيب كله ، وعالجت
الفكرة والمعنى وعالجت جو العمل الأدبي وظروفه .

فقد نقد صاحب لفظ المتنبي المفرد وعبارته المركبة ، فذكر
« الغرابة والتنافر والتعقيد الذي أصيب به بعض شعر المتنبي ، كما
نقد سوء المطالع التي جانب المتنبي فيها الذوق ، وتنبه الى
« الألفاظ الشعرية والألفاظ غير الشعرية ، والمعاني التي تقبح والتي
تجمل ، والأسلوب الذي لا يناسب الغرض الذي يعالجه الشاعر ،
كما نقد الابتذال في الألفاظ والفحش في المعاني ، فقد عاب
« الاسطرار » ولا سيما في مراثي النساء ، وعاب الوجه « المكفن
بالجمال » وقال انه « استعارة حداد في عرس » ! وعاب التجار
و « خفق النعال » بعد الجنازة ، وعاب تكرار الألفاظ التي يسبب
اجتماعها تنافرا وثقلا ، وعاب التفاسيح بالألفاظ النافرة المهمة
كلفظ « الثوراب » الذي كان المتنبي ولوعا به ، وكأنه يتخذ
عودا أورقية ، وعاب استعارته الغريبة في « حلواء البنين » .

وعاب كلمة حينئذ وهي صحيحة الا أنها ليست من لغة الشعر ،
وعاب جمع الأخ على « آخاء » ولو وردت في شعر الشماخ
لاستثقل ، وعاب عليه « البوقات » و « الدولات » واستكراه
« الألفاظ وسقوط المعاني ، والاستعارات الخاطئة أو القبيحة
كاستعارة المحول للحدود ، ومخالفته قواعد اللغة ..

ولقد اعتمد صاحب في نقده على ثقافته اللغوية والأدبية ،
وعلى ذوقه الفني الناضج في أكثر ما عاب عليه أبا الطيب .

* * *

الا أننا وجدنا ظاهرة جديدة في هذا النقد ، وهى روح السخرية والمرح التى تفشت فى ثناياه ، مما لم نعهده فى كثير من فصول النقد الأدبى ، ولا شك أنها سخرية الفنان التى تدفع القارئ الى التأمل ، وفى هذه السخرية العذبة التى تفيض فى ثنايا نقد صاحب قليل من الكلمات اللاذعة التى تطغى عذوبتها على ما قد يكون فيها من الفحش .. ومن أمثال هذه السخرية المرحية والفكاهة العذبة ، ولكنها سخرية لاذعة :

« ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب^(١) أقرب الى الأفهام منه » ..

« قوله — له فيك — لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى^(٢) لنازعته المتصوفة دهرا بعيدا » ..

« هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها بمثابة « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » من القرآن ، و « اصندع بما تؤمر » من الفرقان » !
« قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ، ولكنها استعارة حداد فى عرس » !

« كان الناس يستبشعون .. حتى جاء هذا المبدع يقول » ..
« أظن المصيبة فى الرائي أعظم منها فى المرثى » !

(١) رقية العقرب يشبه بها ما لا يفهم من الكلام ، وقد يقال « رقية الحية » فى الكلام الطويل الذى لا يفهم .
(٢) علمان من أعلام المتصوفة فى الاسلام .

« ما أدري كيف عشق » التّوراب « حتى جعله عوذة في

شعره » ..

« ومن تعقيده الذى لا يشق غباره » ..

« ما أشك أن هذا البيت عند حملة عرشه .. » .

« هذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا

الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس » ا

« هذا التحاذق منه كتغزل الشيوخ قبحا ، ودلال العجائز

سماجة ، ولكن بقى من يسمع » ا

« من افتتاحاته التى تفتح طريق الكرب ، وتغلق أبواب

القلب » ..

« ومن شعره الذى يدخل فى العزائم ، ويكتب فى الطلسمات » ..

« قلب اللام الى النون فى « جبرين » أبغض من وجه المنون ،

ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة » ..

« لا أدري أكان فى حومة الحرب ، أم فى سوق التمارين

بالبصرة ؟ » ..

« هؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت

على صدر الكعبة ، وينادى فى الناس : قعوا له ساجدين ا » .

« وقد غاص فأخرج جندلة » !

« وهذا السكر اذا جمع الى البرئى والأذاذ تم الأمر » !

ومن تهكمه المرير الذى يبدو فيه الفحش قوله : فأتى بأخزى

الخزايا فى قوله :

« وفى الناس أمه ، فهل ينشط لركوبها ؟ » .

وأيا ما كان الأمر فإن هذا اللون الساخر من النقد هو أحب الألوان إلى القراء ، لأنه أسلوب خفيف يجلب المتعة ، ويسرّي عن خاطر ، فوق ما يستثير من الأذواق ، ويحركها في طلب موضع النقض ، والوقوف على مظنة الطرفة ، فهو نقد أشبه بالأدب في عذوبة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وتلك هي طبيعة صاحب في أدبه وفي أخلاقه ، كلها تفيض سماحة وسلاسة وعذوبة .

وكان لهذه الرسالة الموجزة التي كتبها صاحب أثر كبير في تنشيط حركة النقد الأدبي فدارت معارك نقدية كثيرة حول المتنبي بين خصومه الناقمين عليه أو على أدبه ، وأنصاره المتعصبين له ، وقد أفاد النقد الأدبي عند العرب من هذه المعارك التي ابتدأها صاحب فوائد جليلة ، غنى بها هذا النقد ، وتعددت مناهجه ، واحتكت الآراء احتكاكا أشعل الجذوة المستترة في النفوس ، والمواهب الكامنة في الرءوس ، ومن أمهات الآثار النقدية التي يعتز بها الفكر العربي ، وتزدان بها المكتبة الأدبية ، من آثار هذه المعركة كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » الذي ألفه القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي قال فيه أحد الشعراء من أهل نيسابور :

أيا قاضيا قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطة
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطة
وقد كان القاضي أبو الحسن صنيعه صاحب كما تقدم «

قال الثعالبي (١) : ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في اظهار مساوئ المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره » فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد في فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار في البلاد يغير جناح ..

(١) ينيمة الدهر ٤/٤ .

الفصل السادس

علم الصاحب

علم الصاحب

ذكر أبو حيان في « الامتاع والمؤانسة » عن الصاحب أنه كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، قد تنف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب . قال : وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الإلهي خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض ويقول الشعر ، وليس بذلك ، وفي بديهته غزارة (١) ..

هذا ما ذكره أبو حيان ، وعد عرفنا ولوعه بانتقاص الصاحب ، وهو هنا لا يذكر من ثقافة الصاحب وعلمه الا الثقافة الأدبية ، كما اصطلاح عليها في أزمانهم ، فقد « تنف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا » اذ كان الأدب كما كانوا يعرفونه « هو الأخذ من كل فن بطرف » .. ومعنى ما وصفه به أنه لم يكن صاحب ثقافة أصيلة ، أو معرفة عميقة يعدّ بها عالما بين علماء فن من تلك الفنون ، وحجة في مسائله وادراك أصوله وفروعه . ولكننا مع ذلك نقر أبا حيان علمه أن الثقافة المتميزة عند

(١) الامتاع والمؤانسة ٥٥/١ .

الصاحب هى الثقافة الأدبية وأن شهرة الصاحب فى ميدان الثقافة انما قامت على أنه أديب استوفى أداة الفن الأدبى واجتمع لديه ما يلزم لها من ألوان المعرفة . ولكن ليس معنى ذلك أن الصاحب كان أديبا فحسب ، ولكن معناه أن ثقافته الأدبية كانت الغالبة على سائر ألوان ثقافته وان كان قد برّز فى فنون كثيرة أخرى من المعرفة ، كان عالما بها ، وكان حاذقا فى معرفتها ، وحجة فى مسائلها ، وكان صاحب قول فيها .

* * *

وقد وصفه كثير من المترجمين بوفرة العلم وتنوعه ، فقال الأنبارى فى نزهة الألباء : وأما الصاحب أبو القاسم اسماعيل ابن عباد فانه كان غزير الفضل متفننا فى العلوم ، أخذ عن أبى الحسين بن فارس .. وصنف تصانيف كثيرة كالوقف والابتداء ، والعروض ، وجوهرة الجوهرة .. ويحكى عنه أنه لما صنف كتاب « الوقف والابتداء » كان فى عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر الأنبارى ، وقال له : انما صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت فى سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنف هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت فى النيف وسبعين التى نظرت فيها ونظرت فى كتابك أيضا ^(١) ! . وقال فيه المولى محمد تقى المجلسى بقوله : هو أفقه أصحابنا المتقدمين والمتأخرين ، وكل ما يذكر من العلم والفضل فهو فوقه .. وهو رئيس المحدثين والمتكلمين

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٠ .

علامة . وعن تاريخ الوزراء : كان صاحب الكافي اسماعيل بن عباد
وحيد عصره وفريد دهره في العلم والفضل والفهم والفطنة ،
مقدما في اصابة الرأي والتدبير واطاعة الخاطر ، وصفاء
الضمير (١) ..

* * *

فهذه الأقوال الكثيرة تدل على أن صاحب كان عالما كما كان
أديبا ، وإن غلب أدبه على علمه ، وربما كان ينقص بعض هذه
الأقوال التوضيح اللازم الذي يدل على ما تبهر فيه ، وجهوده
المتأخرة التي بذلها في كل أصل . وفي كل فرع .

* * *

وقد عرف عن صاحب أنه كان من أصحاب علم الكلام ،
وأنه كان من فريق المعتزلة فقد كان يقول « المذهب مذهب
الاعتزال » . والمعتزلة معدودون في نظر كثير من الباحثين هم
فلاسفة الاسلام ، ولهم آراء كثيرة مفصلة في كتب الملل والنحل ،
وقد تفرقوا الى فرق كثيرة ، ومن أقوالهم القول باستحالة رؤية
الله عز وجل بالأبصار ، ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام
الله عز وجل وحدوث أمره ونهيه ، وكلهم يزعمون أن كلام
الله عز وجل حادث وأكثرهم يسمون كلامه مخلوقا ، ومنها
قولهم ان العبد يكسب أعماله ولأجل هذا سموا أنفسهم
أو سماهم المسلمون (قدرية) . ومنها اتفاقهم على دعواهم في

(١) أورد صاحب « أعيان الشيعة » في الجزء الحادى عشر
طائفة من أقوال المترجمين في علم صاحب .

الفاسق من أمة الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، وهى أنه فاسق
لا مؤمن ولا كافر ، ولذلك سماهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم
قول الأمة بأسرها (١) ..

والمعتزلة يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » . وهم
أهل فصاحة وبيان وجدل ومناظرة .

وقد كان صاحب واحدا من أولئك المعتزلة أهل العدل
والتوحيد ، ومن القائلين بخلق القرآن ، وفى كلام صاحب ما يؤيد
اعتناقه مذهبهم ، وسيره فى طريقهم ، حتى ليظهر أثر هذا فى بعض
شعره الذى يضمنه اشارات الى مسائل من أقوالهم التى يعتقدها ،
فمن ذلك قوله :

ولما تناءت بالأحبة دارهم
وصرنا جميعا من عيان الى وهم
تمكن منى الشوق غير مسامح
كمعتزلى قد تمكن من خصمهم
وقوله :

كنت دهرا أقول بالاستطاعة
وأرى الجبر ضلة وشناعة
ففقدت استطاعتى فى هوى ظي
ى فسمعا للمجبرين وطاعة

(١) راجع فى سائر آرائهم وفرقهم كتاب « الفرق بين الفرق
وبيان الفرقة الناجية منهم » لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر بن
محمد البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ فى الفصل الثالث ، صفحة
٩٣ وما بعدها .

والمجبرة أو الجبرية بعكس القدرية ، ينفون استطاعة العبد
قبل وبعد ووقت الفعل . وكقوله :

بالنص فاعقد ان عقدت يمينا

كل اعتقاد « الاختيار » رضينا

مكن لقول الهنا تمكينا

وذلك أن المعتزلة يقولون ان العبد يخلق أفعاله أو يختارها ،
ولا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله تعالى ، فليس الانسان
مجبورا ، وأثبتوا له قوة واستطاعة بها يفعل ما اختار فعله (١)
وكذلك يذكر صاحب « العدل والتوحيد » في شعره ، ويقول
انهما عقيدته ومذهبه الذي يدين به ، وهذا ما يقوله المعتزلة الذين
يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » (٢) ، كقوله :

« العدل والتوحيد » والامامه والمصطفى المبعوث من تهامه
وسيلتي في عرصة القيامة

وكقوله :

لو شق قلبي يرى وسطه سطران قد خطا بلا كاتب
« العدل والتوحيد » في جانب وحب أهل البيت في جانب
وكقوله :

« العدل والتوحيد » مذهبي الذي

يزهى به الايمان والاسلام

(١) راجع (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم ١٤/٣ .

(٢) راجع (الملل والنحل) للشهرستاني ٥٠/١ على هامش

(الفصل في الملل والأهواء والنحل) .

وولايتي لمحمد وآله

دينى وحسن الدين ليس يسرام

فهناك جبل الله مظفور القسوى

وعليه من سر القضاء ختام

وكقوله ، وذكر « العدل » وحده :

نعرفت بالعدل فى مذهبى ودان بحسن جدالى العراق
فكلفت فى الحب مالم أطق فقلت بتكليف ما لا يطاق
وقد كان الصاحب يدعو لمذهبه ، ويشجع عليه ، كما روى
الثعالبي عن أبى الحسن الشقيقى البلخى أن الصاحب كتب فى
توقيعه الى رقعة اليه : « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت
العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان أقمت على
الجبر ، فليس لكسرك من جبر » (١) ..

ومن المسائل الكبرى التى أثارها المعتزلة ، وكثر فيها البحث
والمناظرة قولهم بأن القرآن مخلوق ، وقد أجمع أهل الاسلام
كلهم أن الله تعالى كلاما ، وعلى أن الله تعالى كلم موسى عليه
السلام ، وكذلك سائر الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور
والصحف ، فكل هذا لا اختلاف فيه بين أحد من أهل الاسلام ،
ثم قالت المعتزلة ان كلام الله تعالى صفة فعل مخلوق ، وقالوا ان
الله عز وجل كلم موسى بكلام أحدثه فى الشجرة . وقال أهل السنة
ان كلام الله عز وجل هو علمه لم يزل ، وأنه غير مخلوق ، وهو
قول الامام أحمد بن حنبل وغيره رحمهم الله ، وقالت الأشعرية

(١) يتيمة الدهر ١٩٧/٣ .

كلام الله تعالى صفة ذات لم تزل غير مخلوقة ، وهو غير الله تعالى ،
وخلاف الله تعالى ، وهو غير علم الله تعالى ، وأنه ليس الله تعالى
الا كلام واحد (١) .

وقد تعصب لرأى المعتزلة ، وقولهم ان « القرآن مخلوق »
طائفة من الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم والواثق الذين
عملوا على أن يحملوا العلماء والفقهاء على الأخذ بهذا القول ،
وقد كانت فتنة كبيرة أصابت أضرارها عددا كبيرا من فقهاء المسلمين
وعلمائهم ، وعذب بسببها كثير من فضلائهم الذين كانوا لا يقرون
القول بهذه البدعة التي لا أثر لها في تقديم أو تأخير أو شك
أو يقين ، مع أن المسلمين جميعا كانوا على القول بأن القرآن
كلام الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من
حكيم حميد .

* * *

وجرت في هذه الفتنة مناظرات كثيرة بين الحكام والفقهاء
بأمر الخلفاء ليحملوا الناس على الأخذ بقولهم في خلق القرآن ،
فمن تابع هواهم أقرّ على عمله ، ومن أصرّ على مخالفتهم نحى
عن وظيفته ان كان صاحب وظيفة ، أو سجن وعذب ان لم تكن
له وظيفة . ومن أمثلة ذلك ما كتب المأمون الى اسحاق بن ابراهيم
عامله على بغداد (محافظها) وكان المأمون اذ ذاك يغزو ، فرأى
أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء الى رأيه ، وقال في ختام كتابه
اليه « وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ،

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/٣ .

ولا نصيبا من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل
الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول
ولا حكاية ، ولا تولية شيء من أمر الرعية » فجمع اسحاق نحو
ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء ، وهذا نموذج من أجوبتهم
لاسحاق (١) :

قال اسحاق لبشر بن الوليد :

— ما تقول في القرآن ؟

— قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة !

— فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ..

— أقول : القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— الله خالق كل شيء !

— أما القرآن شيء ؟

— هو شيء !

— فمخلوق هو ؟

— ليس بخالق !

— ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— ما أحسن غير ما قلت ، وقد استعهدت أمير المؤمنين

ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك !

وقال لعل بن أبي مقاتل :

— ما تقول يا علي ؟

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ٣/ ٢١٣ .

— قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ،

وما عندي غير ما سمع .

— القرآن مخلوق ؟

— القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا !

— هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

وقال لأبي حسان الزيادي : القرآن مخلوق هو ؟

— القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله

مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد

سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار

يقيم حجنا وصلاتنا ، وتؤدي إليه زكاة أموالنا ، ولجاهد معه ،

ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن

دعانا أجبنا !

فأعاد اسحاق السؤال : القرآن مخلوق هو ؟ . فأعاد حسان

مقالته .

قال اسحاق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين .

فقال حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين و لا يأمر بها

الناس ، ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن

أقول قلت ما أمرتنى به ، فأنت الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه

من شيء ، فإن أبلغتنى عنه بشيء صرت إليه !

قال اسحاق : ما أمرني أن أبلغك شيئاً !

فقال حسان : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والموارث ولم يحملوا الناس عليها !

وقد رأينا فى هذه المحاورات اصرارا على عدم الانسياق فى تيار هذه البدعة الجديدة ، وقد كان اصرار كثير من أولئك العلماء على آرائهم والوقوف فى وجه أولئك الذين حاولوا حملهم على القول بما يرون وما نالوا بسبب ذلك من الايذاء الذى تحملوه راضين مدعاة للفخر ، والاعتراف لهم بالتضحية فى سبيل الفكرة التى يؤمنون بها .

* * *

ويهمنا هنا أن الصاحب كان يدين بقوله المعتزلة ، ويذهب مذهبهم فى القول بخلق القرآن ، بل انه كان يسلك السبيل نفسه التى سلكها أولئك الخلفاء العباسيون وأتباعهم فى حمل الناس على القول بما يقولون ، فكان يعقد المناظرات ويناقش العلماء فى هذه المسألة اقتداء بمشيريها والمتعصبين لها . وقد روى أبو حيان شيئا من هذه المناظرات ، فقال : كنت بالرى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة ، قد ورد فى مهمات وحوائج . وعقد لابن عباد مجلس جدل ، وكنا نبئت عنده فى داره فى بابشير ^(١) ، ومعنا الضير أبو العباس القاضى ، وأبو الجوزاء البرقى ، وأبو عبد الله النحوى الزعفرانى ، وجماعة من الغرباء ، فرأى الصاحب فى مجلسه وجها غريبا صاحب مرقعة ،

(١) بابشير — بسكون الباء الثانية وكسر الشين وياء ساكنة — قرية على مقدار فرسخ من مرو .

فأحب أن يعرفه ويعرف ما عنده ، وكان الشاب من أهل سمرقند يعرف بأبى واقد الكراييسى . فقال له : يا أخ انبسط واستأنس وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشرب مرىء ، ولن ترى إلا البر ، بهم تعرف ؟ فقال : بدقق ! قال : تدقّ ماذا ؟ قال : أدق الخصم اذا زاغ عن سبيل الحق !

فلما سمع الصاحب هذا تنكر وعجب ، لأنه فجىء ببذئثة . فقال : دع هذا وتكلم ، فقال الشاب : أتكلم سائلا ؟ ما بى والله حاجة الى مسألة ! أم أتكلم مسئولا ؟ فوالله انى لأكسل عن الجواب ! أم أتكلم مقررًا ؟ فوالله انى لأكره أن أبدد الدر فى غير موضعه ، وانى لكما قال الأول :

لقد عجمتنى العاجمات فلم تجد (١)

هلوعا ولا لين المجسّة فى العجم

وكاشفت أقواما فأبديت وصمهم

وما للأعادي فى قناتى من وصم

فقال له : يا هذا ، ما مذهبك ؟ قال : مذهبى ألا أقر على الضيم ، ولا أنام على الهون ، ولا أعطى صمتى لمن لم يكن ولىّ نعمتى ، ولم تصل عصمته بعصمتى . قال : هذا مذهب حسن ، ومن ذا الذى يأتى الضيم طائعا ؟ ويركب الهون سامعا ؟ ولكن ما نحلّتك (٢) التى تنصرها ؟ قال : نحلّتى مطوية فى صدرى ،

(١) أى اختبرتني وامتحنتني ، والهلوع الجزوع .

(٢) أى ما طريقتك ؟ وما مذهبك ؟

لا أتقرب بها الى مخلوق ، ولا أنادى عليها فى سوق ، ولا أعرضها على شاكّ ، ولا أجادل فيها المؤمن !

قال له الصاحب : فما تقول فى القرآن ؟ قال : ما أقول فى كلام رب العالمين الذى يعجز عنه الخلق اذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبحشوا عن خافى سره وعجائب حكمته ؟ فكيف اذا حاولوا مقابلته بمثله ؟ وليس له مثل مظنون ، فضلا عن مثل متيقن ؟

فقال له ابن عباد : صدقت ، ولكن أمخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : ان كان مخلوقا كما يزعم خصمك ، فما يضرك ؟ .

فقال الصاحب : يا هذا ، أبهذا تناظر فى دين الله ؟ وتقوم على عبادة الله ؟

قال : ان كان كلام الله نفعى ايمانى به ، وعملى بمحكمه ، وتسليمى لمتشابهه ، وان كان كلام غيره ، وحاش لله من ذلك ، ما ضررنى !

فأمسك عنه ابن عباد وهو مغیظ ، ثم قال له « أنت لم تخرج من خراسان بعد ا » . فمكث الرجل ساعة ثم نهض ، فقال له ابن عباد : « الى أين يا هذا ؟ قد تكسر الليل ^(١) ، بت ها هنا » . فقال : « أنا بعد لم أخرج من خراسان ، كيف أبيت بالرى » ا ؟ وخرج فارتاب الصاحب به ، ففقّاه بصاحب له ، وأوصاه بأن يتبع خطاه ، ويبلغ مداه ، من حيث لا يفتن له ولا يراه ، فما زاغ ^(٢)

(١) تكسر الليل أى مضى منه وقت ليس بالقليل

(٢) ما زاغ أى ما تحول وما فارق .

الرجل عن باب ركن الدولة ، حتى وصل ودخل في ذلك الوقت
الفأنت اليه .

فلما قيل لابن عباد ذلك طار نومه ، وقال : أى شيطان هبط
علينا ، وأحصى ما كنا فيه بلسان سليط ^(١) ، وطبع مريد ^(٢) ؟
وكان هذا الكرايسى عينا لركن الدولة بخراسان ، فلذلك
كان قريبا ، وكان أحد رجالاته ^(٣) .

ويبدو أن صاحب لم يأخذ هذه المسألة مأخذ خلفاء
بنى العباس في تعسفهم وصرامتهم مع مخالفهم في القول بخلق
القرآن ، فان في بعض النصوص والروايات ما يدل على عدم
التشدد في رأيه ، بل كان يتخذ ممن يخالفونه في القول أصدقاء
وسمارا ، لا يكرههم على الأخذ بقوله أو الانضمام الى جماعته ،
كما روى أن قوما قالوا للصاحب : لو كان القرآن مخلوقا لجاز
أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان ، بماذا كنا نصلى
التراويح في رمضان ؟

فقال صاحب : « لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ،
ويقول : لا حياة لى بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح » ..

* * *

ولا يبدو في هذا الجواب القسوة والصرامة التي كنا نتوقعها
من حاكم مستبد برأيه يوجب على الناس الأخذ به ، ولا يمكنهم
من مخالفته ، .. وان دخل بعضهم في مذهبه تقربا اليه كما يروى

(١) سليط أى ذو سلطة وقوة .

(٢) مريد أى عات جبار . (٣) معجم الأدباء ٦/٢١٣

أبو حيان في قوله : ودخل الناس في مذهب ابن عباد ، وقالوا بقوله ، رغبة فيما لديه . واجتهد الصاحب بالحسين المتكلم الكلابي أن ينتقل الى مذهبه ، فقال الحسين : « دعني أيها الصاحب أكن مستحدا لك ^(١) ، فما بقى غيري ، فان دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه ، ويبدو للناس عواره » ^(٢) ١

فضحك الصاحب وقال : قد أعفيناك يا أبا عبد الله ، وبعد ، فما نبخل عليك بنار جهنم ، اصل بها كيف شئت !

وقد رأينا في هذه الأمثلة اشارات الى المذهب واعتناق الصاحب اياه ، ولكننا لم نقرأ مناظرة كاملة نرى فيها رأيا واضحا أو فكرة مستقلة يمكن أن تنسب اليه ، وانما رأينا كلاما أشبه بالتسلية وأقرب الى الفكاهة منه الى الجدل والمناظرة التي تقرر فيها الحجة بالحجة ، ويعدّ بها أصحابه من دعائم المذهب وأركانها .

ومما لا شك فيه أن انتساب الصاحب الى المعتزلة كان موروثا ، وأنه أخذ تعاليمهم وعرف مبادئهم عن أبيه الذي كان معتزليا ، والذي صنف كتابا في « أحكام القرآن » نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه ، وروى عنه ابنه الوزير أبو القاسم (الصاحب) ، وابن مردويه الأصفهاني وغيرهما ..

(١) استحد : غضب ، فمستحد اسم مكان ، يريد دعني لأكون موضع غضبك ، كأنه يريد سببا للغضب .
(٢) العوار بفتح العين وضمها : العيب .

ومعنى هذا أن صاحب كانت له ثقافة كلامية ، وإن لم يكن معدودا من أعلام المتكلمين ، فاختلط فنّه الأدبى وأسلوبه الكتابى بطرائق المتكلمين ، كما اختلط كلامه ومناظرته وجدله بفنه الكتابى ، وهذا ما يصدق عليه قول أبى حيان الذى أسلفناه « وكتابتة مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب » .. ولكننا قد وجدنا مع هذا قولاً بنفوره من الفلسفة وعلم الكلام ، وهو ما ذكره أبو الفدا فى تاريخه عن صاحب فى قوله انه كان « يحب العلوم الشرعية ، ويبغض الفلسفة وما شابها من علم الكلام والآراء البدعية » (١) ..

وقد ردّد هذا القول بعض المترجمين ، وأرجع بعضهم سخطه على أبى حيان واقصاءه عن حضرته الى تعلق أبى حيان بالفلسفة وتفور صاحب منها ومن منتجليها ، كما قال صاحب لسان الميزان : « وكان صاحب يبغض من يميل الى الفلسفة ، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدى ، فحمله ذلك على أن جمع مصنفا فى مثالبه أكثره مختلف » وقال : « وكان صدوقا الا أنه كان مشتهرا بمذهب المعتزلة داعية اليه » ..

ويبدو أن الاشتهار بالاعتزال كان تهمة فى نظر غير المعتزلة ، بل كان عندهم كالزندقة والالحاد ، وهذا ما يظهر فى قوله « الا أنه كان مشتهرا بمذهب المعتزلة داعية اليه » بعد قوله فيه « انه كان صدوقا » فقد استثنى الكاتب منه ما لم يكن يرضاه له . وحاول بعض مترجميه ممن كانوا يتعصبون له أن يبرئوه من تهمة

(١) البداية والنهاية ٣١٥/١١ .

الاعتزال ، لأن الاعتزال كان في رأيهم منقصة وعيبا ، فقال صاحب
 أمل الآمل « وبعض العامة يتهمة بالاعتزال وهو برىء منه » !
 وكان هذا رأى سائر طبقات المتكلمين في المعتزلة ، حتى جعل
 البغدادى عنوان الفصل الثالث من فصول كتابه الفرق بين الفرق
 « في بيان مقالات فرق الضلال من القدرية المعتزلة عن الحق » (١) ..
 ولقد كان كل فريق من المتكلمين يكفر غيره من المتكلمين
 أو يصفهم بالزندقة والالحاد حتى اتهم العلماء والمفكرون بعضهم
 بعضا في عقائدهم « وذلك أن الطريقة التى قد لزموها وسلكوها
 لا تقضى بهم الا الى الشك والارتياب ، لأن الدين لم يأت بكم
 ولا كيف في كل باب » . قال أبو حيان (٢) : ولهذا كان لأصحاب
 الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ،
 والقلب الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك
 والريبة ، ولم يأت الجدل بخير قط .. يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ،
 ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده قلبا خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى
 ولا دمة ، وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون
 ولا يناظرون ولا يكرمون ولا يفضلون خير من هذه الطائفة ،
 وألين جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكر للمعاد ،
 وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذ بالله من صغير
 الذنب ، وأرجع الى الله بالتوبة .. قال : ولم أر متكلما فى مدة
 عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفا ، أو أقلع عن كبيرة رغبة.

(١) الفرق بين الفرق : ص ٩٣ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١٤٢/١ .

يتناظرون مستهزئين ، ويتحاسدون متعصبين ، ويتلاقون متخادعين ،
ويصنفون متحاملين ..

والصاحب وان كانت منزلته في علم الكلام ما أسلفنا بحيث
لا يرقى الى درجة الأعلام أصحاب الرأي في هذا الفن ، وأهل
الجدل والمناظرة الا أن له الآثار والمصنفات في العلوم التي لا تنفرد
بالتفكير ، والمما يتصل فيها المعقول بالمنقول ، وتظهر فيها معالم
النص والرواية بأثر الفكر والدراية ، فقد كان عالما بالتوحيد
وعالما بالأصول وعارفا بالمذاهب والفرق ، وينبغي ألا تتجاوز هذه
الدائرة في وصفه بالكلام دائرة العلم والمعرفة ، لا دائرة التفكير ،
وفرق بين العالم الذي يعرف والمفكر الذي يصحح ويستنبط !
فمن آثاره التي تتصل بهذا الجانب كتاب مختصر أسماء الله
تعالى وصفاته ، وكتاب « نهج السبيل » في الأصول ، وكتاب
الزيدية ، وكتاب « الامامة » الذي يذكر فيه فضائل الامام علي
ابن أبي طالب ويثبت فيه صحة امامة من تقدمه من الخلفاء
الراشدين .

أما مناظراته الكلامية فاننا لم نر فيما قرأناه منها تفصيلا يدل
على أنه من أهل الرأي ؛ وقد ذكر شيئا منها أبو حيان التوحيدي
ذكرا أراد به التهوين من شأنه ، واظهار طربه للثناء والشهادة
له أو لبلاغته دون أن يعرض علينا شيئا من كلامه الذي دفع به
حجة خصمه ، وأثبت به الرأي الذي يدافع عنه وينتصر له ، فقد
روى أن الصاحب ناظر بالرئ اليهودي رأس الجالوت (١) في

(١) هي هيئة دينية عندهم .

اعجاز القرآن ، فراجعهُ اليهوديَّ فيه طويلاً ، وما تنه قليلاً ، وتنكر عليه حتى اجتدَّ وكاد يتقدَّ .

فلما علم أنه قد سجر تنوره ، وأسعط أنفه ، احتال طلباً لمخادعته ، ورفقاً به في مخايلته ، فقال لليهودي : أيها الصاحب ، لم تتقدَّ وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه ؟ فإن كان النظم والتأليف بديعين ، وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين ، وله مدعين ، فما أنا أصدق عن نفسي ، وأقول ما عندي : ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده^(١) به لظما وئثرا هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لي أنه دونه ، وأن ذلك سيسبغ على عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

* * *

هذا الحديث من المعقول أن يصدر عن اليهودي المنكر للقرآن المتعلق للصاحب في سبيل تحقيق غايته من الطعن في كتاب الله . ولكن ليس من المعقول أن يرضى الصاحب أو ينخدع بهذه الترهات ، ولو أثنى عليه ألف ثناء ، ولكن أبا حيان على طريقتة يذكر وقع هذا الخداع في نفس الصاحب وسكوته عليه في قوله « فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد^(٢) » ، وسكن عن حركته ، وانحصر^(٣) ورمه به ، وقال : ولا هكذا يا شيخ ، كلامنا حسن

(١) أي تفاجيء وتباغت .

(٢) سكن بعد حدثه ، وخمد بعد ثورته .

(٣) انحصر الورم تضاعف وانقبض .

وبليغ ، وقد أخذ من الجزالة حظا وفرا ، ومن البيان نصيبا ظاهرا .
ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يخمد ،
وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب
وتكلف ؟! هذا كله يقوله وقد خبا حميته ^(١) ، وتراجع مزاجه ،
وصارت ناره رمادا ، مع اعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح
غالب قد دب في أسارير وجهه ، لأنه رأى كلامه شيئا بالقرآن
لدى اليهود وأهل الملل ^(٢) ..

* * *

ولقد اقتصر التوحيدى على هذا الوصف ، ولم يورد شيئا
مما يتصل بالمناظرة وما دار فيها من الحجاج ووجوه الرأى ، لأنه
يريد أن يصل الى غايته الكبرى من النيل من الصاحب ولو كان
ذلك على حساب عقيدته فى أمر هو أهم ما يتصل بها ، وهو
اثبات اعجاز القرآن . وقد أورد التوحيدى فى الامتاع نتفه صغيرة
تتصل بالصاحب ، ونهجه فى بعض مسائل كلامية ، وذلك فى
قوله : وكان ابن عباد قال لكاتبه مرة — أعنى ابن حسولة ^(٣) —
فى شىء جرى .. « نعم ، العالم عتيق ، ولكن ليس بقديم » أى :
لو كان قديما لكان لا أول له ، ولما كان عتيقا كان له أول . ومن
أجل الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم ، واستحسنوا هذا
الاطلاق .

(١) انطفأ وهذا وسكن .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٢/٦ .

(٣) هو أبو القاسم بن حسولة ، قيل كان يعرض الأوراق
على الصاحب بن عباد .

قال التوحيدى : وقد سألت العلماء البصراء عن هذا الاطلاق ، فقالوا : ما وجدنا هذا فى كتاب الله عز وجل ، ولا كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا فى حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا سعيد السيرا فى الامام : هل تعرف العرب أن معنى « القديم » مالا أوّل له ؟ فقال : هذا ما صحّ عندنا عنهم ، ولا سبق الى وهمنا هذا منهم ، الا أنهم يقولون « هذا شىء قديم » و « ببيان قديم » ، ويسترحون وهمهم فى زمان مجهول المبدأ (١) ..

* * *

ونعتقد بعد كل هذا أن ما أوردناه عن علم صاحب الكلام فيه ما يلقى الضوء على مدى علمه بالكلام ، ومدى حذقة لمناهج المتكلمين . ومن آثار هذه المعرفة حكمه على بعض أعلام المتكلمين حكما وصفه العارفون بالاصابة والقدرة على التمييز ، قال ابن الأهدل « ومن كلام صاحب فى وصف الثلاثة المتعاصرين أصحاب أبى الحسن الأشعرى : الباقلانى نار محرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفرائينى بحر مغرق » قال ابن عساكر : كأن روح القدس نفث فى روعه بحقيقة حالهم (٢) .

* * *

وكان صاحب فى مقدمة الفقهاء المحدثين ، وكانت له محبة ظاهرة بالعلوم الشرعية ، وذكر فى أخباره أنه كان يناظر ويدرس ويصنف ويملى الحديث ، ووصف بأنه كان من أفقه فقهاء الشيعة

(١) الامتاع والمؤانسة ٢٥/١ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١١٦/٣ .

المتقدمين والمتأخرين ، وقد سمع الحديث من المشايخ الجياد العوالى ، وعقد له فى وقت مجلس للاملاء ، فاحتفل الناس لحضوره ، وحضره وجوه الأمراء ، فلما خرج لبس زى الفقهاء ، وأشهد على نفسه بالتوبة والانابة مما يعاينه من أمور السلطان .. ولكن كان يخالط السلطان وهو قائب مما يمارسونه ، واتخذ بناء فى داره سماه بيت التوبة ، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته ، واستملى عليه جماعة لكثرة مجلسه ، فكان فى جملة من يكتب عنه ذلك اليوم القاضى عبد الجبار الهمداني وأضرابه من رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين (١) ..

وحدث ياقوت عن أبى الحسن على بن محمد الطبرى الكيال قال : لما عزم الصاحب بن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوما متطلسا (٢) متحنكا بزى أهل العلم ، فقال : « قد علمتم قدمى فى العلم » ، فأقروا له بذلك ، فقال : وأنا متلبس (٣) بهذا الأمر ، وجميع ما أتفقته من صغرى الى وقتى هذا ، من مال أبى وجدى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات (٤) ، أشهد الله وأشهدكم أنى تأب الى الله من ذنب أذنبته » واتخذ لنفسه بيتا وسماه « بيت التوبة » . ولبث أسبوعا على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج فقعد للاملاء ، وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى

(١) البداية والنهاية ٣١٥/١١ .

(٢) أى لأبسا الطيلسان ، ويظهر أنه كان حينذاك ثوب الكبراء والعلماء ، وهو لفظ معرب أصله « تالسان » .

(٣) أى مخالط له ملازم .

(٤) جمع تبعة ، وهى ما يعلق بالمرء من شىء لا يرضى عنه .

الواحد ينضاف اليه ستة ، كلٌ يبلّغ صاحبه ، فكتب الناس حتى
القاضي عبد الجبار (١) ..

وقد عرف عن صاحب أنه كان من أعلام الحديث ، قال
السمعاني في الأنساب ان صاحب سمع الأحاديث من الأصبهائين
والبغداديين والرازيين ، وحدّث ، وكان يحث على طلب الحديث
وكتابه ، وروى عن ابن مردويه أنه سمع صاحب يقول : من
لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام . وكان يقول شاركت
الطبراني في اسناده ، ويقال انه كان ينتقد البخاري ولا يعول
عليه . ولو لوعه بالحديث الشريف كان يكثر من الاقتباس منه
في شعره كقوله :

أقول وقد رأيت له سحابة من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحت عزاليها (٢) بسكب « حوالينا الصدود ولا علينا »

وكقوله في الغزل :

ومهفهف يغنى عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر (٣)
خالسته تفاح وجنته من غير ابقاء ولا حذر
فأخافني قوم فقلت لهم « لا قطع في ثمر ولا كثر » (٤)

(١) معجم الأدباء ٢٥٢/٦ .

(٢) العزالي - بفتح اللام وكسر هاء جمع عزلاء ، وهي مصب
الماء من الراوية ونحوها .

(٣) امرأة مهفهفة أى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد - على
زنة طرب - تحير .

(٤) الكثر - بفتح تين - جمار النخل .

وقوله :

قال لي ان رقيبى سىء الخلق فداره
قلت : دعنى وجهك « الـ جنة حفت بالمسكاره »

* * *

أما اللغة وعلوم الأدب ، فقل فى علم الصاحب بها وحذقه
اياها ما شئت ؛ فقد كان حجة فيها كأعلامها الكبار الذين يوثق
بهم فيما يقولونه ويوردونه ، وقد ألف فى اللغة كتابه الذى سماه
« المحيط » وقد ذكر ياقوت أنه عشر مجلدات ، وقال ابن خلكان
انه فى سبع مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، وكثر فيه الألفاظ ،
وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر (١) . وكذلك
ألف فى اللغة كتابه « جوهرة الجمهرة » .. وقد أفاد من الصاحب
فى علم العربية جماعة فى مقدمتهم أبو منصور الثعالبي فى كتابه
« فقه اللغة وأسرار العربية » وعدّه فى أعلام اللغة وأئمتها ،
فذكر فى مقدمة هذا الكتاب أنه « انتجع من الأئمة مثل الخليل ،
والأصمعى ، وأبى عمر والشيبانى ، والكسائى ، والفراء ،
وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، وأبى عبيد ، وابن الأعرابى ، والنضر بن
شميل ، وأبوى العباس (٢) ، وابن دريد ، ونفطويه ، وابن خالوية ،
والخارزنجى ، والأزهري . ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين
جمعوا فصاحة العرب البلغاء الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة

(١) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ ووفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

(٢) يقصد أبا العباس محمد بن يزيد البرد ، وأبا العباس
أحمد بن يحيى المشهور بشعلب .

الى سهولة البلاغة ، كالصاحب أبي القاسم « اسماعيل بن عباد » ،
وحزمة بن الحسن الأصفهاني ، وأبي الفتح المرائي ، وأبي بكر
الخوارزمي ، والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز
الهرجاني ، وأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ،
واجتلي من أنوارهم ، واجتنى من ثمارهم ، واقتفى آثار قوم
قد أفقرت منهم البقاع ^(١) .. ونقل الثعالبي عن صاحب
في هذا الكتاب فصلا في ترتيب الشرب ، قال فيه : « ترتيب
الشرب (عن صاحب أبي القاسم) : أقلّ الشرب التفرغ ، ثم
المصّ والتمزمز ، ثم العبّ والتجرّع . وأول الرىّ النضح ،
ثم النقع ، ثم التجب ، ثم التفنح ^(٢) .. وقال في الباب السابع
والعشرين في الحجارة : قد جمع أسماءها الأصبهاني في كتاب
الموازنة ، وكسر صاحب « ابن عباد » على تأليفها دفيترأ ، وجعل
أوائل الكلمات على توالي حروف الهجاء الا ما لم يوجد منها في
أوائل الأسماء ، وقد أخرجت منها ومن غيرها ما استصلحته
للكتاب ، ووفيت التفصيل حقه باذن الله عز اسمه ^(٣) .

تلك اشارات الى حظ صاحب من علم اللغة وفقهه فيها ،
وفي تلك الاشارات ما يكفي للدلالة على وفور حظه ، وسعة
معرفته ، وبهذا الحظ كان صاحب أدبيا يستطيع أن يتفهم الأدب

(١) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي : ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٩٢ .

ويتذوقه وينقده ، وكيف يتخير لأدبه المنظوم والمنثور ، وكيف يفيد غيره من طلاب اللغة تعليما وتأليفا .



أما علم النحو والصرف والعروض ، فقد كان تحصيل صاحب منها لا يقل عن تحصيله من علم اللغة ، وذلك راجع الى أسباب أهمها الرغبة الدافعة ، ثم المجالسة النافعة ، ثم خزانة كتبه العامرة التي كان ينوء بحملها أربعمئة جمل ، والتي حدث أبو الحسن البيهقي أنه وجد فهرست تلك الكتب عشر مجلدات . وكانت رحلة صاحب الى بغداد فرصة للبوح بمكنون معرفته ، فقد اتصل بكبار علمائها وناقشهم وحاورهم ، فشهدوا له بالمعرفة والحدق ، وأفاد من عملهم ما استطاع وما امتدّ وقته في دار السلام ، وقد حدثت صاحب في كتابه « الروزنامجه » عن شيء مما حدث له في بغداد في قوله : و انتهيت الى أبي سعيد السيرافي ^(١) ، وهو شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر الحظ من علوم الأوائل ، فسلمت عليه ، وقعدت اليه ،

(١) كان يدرس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض ، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، فما وجد له خطأ ولا عشر له على زلة ، وقضى ببغداد ، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة ، صام أربعين سنة ، وكان زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أجرا انما كان يأكل من كسب يمينه ، شرح كتاب سيبويه ، وله كتب كثيرة منها الوقف والابتداء المدخل الى كتاب سيبويه ، صنعة الشعر والبلاغة . توفي في خلافة الطائع سنة ٣٦٨ هـ .

وبعضهم يقرأ الجمهرة (١) ، فقرأ « أُلقت » ، فقلت : انما هو « لمت » (٢) . فدافعني الشيخ ساعة ، ثم رجع الى الأصل ، فوجد حكايتي صحيحة .

واستمر القارئ حتى أنشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت في طلله كدت أقضى الغداة من جلله
فقلت : أيها الشيخ ، هذا لا يجوز ، والمصراعان على هذا
النشيد يخرجان من بحرین ، لأن :

رسم دار وقفت في طلله (٣) كدت أقضى الغداة من جلله
فاعلاتن . مفاعلن . فعلن مفتعلن . مفعلات . مفتعلن
فذلك من الخفيف ، وهذا من المنسرح !

فقال أبو سعيد : لم لا تقول الجميع من المنسرح ، والمصراع
الأول مخزوم ؟

فقلت : لا يدخل الخزم هذا البحر ، لأنه أوله « مستعلن .
مفاعلن » هذه مزاحفة عنه ، وإذا حذفنا متحركا بقينا ساكنا ،
وليس في كلام العرب ابتداء به ، وانما هو :

* كدت أقضى الغداة من جلله *

بتخفيف الضاد (٤) ، فأمر بتغييره ، ودفعني الى جنبه .

قال : وابتدأ فقرأ عليه من كتاب « المقتضب » باب

-
- (١) كتاب من أهم كتب اللغة لأبي بكر بن دريد .
(٢) اللمق - بفتح فسكون - الكتابة والمحو من الأضداد ،
وضرب العين بالكف خاصة ، والنظر ، وفعله لمق .
(٣) الطلل الباقي من رسوم الديار بعد دروسها .
(٤) فأصبح البيت كله من بحر الخفيف .

ما يجرى وما لا يجرى ، الى أن ذكر « سحر » وأنه لا ينصرف
إذا كان السحر بعينه ، لأنه معدول عن الأول ..

فقلت : ما علامة العدل فيه ؟

فقال : انا قلنا « السحر » ثم قلنا « سحر » فعلمنا أنه
معدول عن الأول .

قلت : لو كان كذلك ، لوجب أن تطرد العلة في « عتمة » ،
لأنك تقول « العتمة » ثم تقول « عتمة » (١) .

فضجر أبو سعيد واحتد ، وصاح واربّد (٢) . وادعيت أنه
ناقص ، والتمس التحاكم .

فكتبت رسالة أخذت فيها خطوط أهل النظر ، وقد أنفذت
درج (٣) كتابي نسختها ، وفيها خط أبي عبد الله بن رذامر عين
مشايخهم .

ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزا فاضلا ، متوسعا عالما ، فعلقت
عليه ، وأخذت عنه ، وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأت
صدرا منه .

قال : وهناك أبو بكر بن مقسم ، وما في أصحاب ثعلب أكثر
دراية ، وما أصح رواية منه ، وقد سمعت مجالسه ، وفيها غرائب

(١) منع عتمة من الصرف رأى لبعض النجاة للعلمية
والتأنيث ومثلها عشية . قال في حاشية الصبيان على الأشمونى .
هذا رأى ، ولكن الأفصح الصرف ، ولذا لم يذكرها بعض النحاة
في غير المنصرف .

(٢) أى تغير وعبس .

(٣) درج كتابى أى طيه .

ونكت ، ومحاسن وطرف ، من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة
وتفسير بيت مشكل ، وحل عقد مفصل ، وله قيام بنحو الكوفيين
وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم . والقاضى أبو بكر بن كامل بقیة
الدنيا فى فروع شتى ، يعرف الفقه والشروط والحديث ، وما ليس
من حديثنا ، ويتوسع فى النحو توسعا مستحسنا ، وله فى حفظ
الشعر بضاعة واسعة ، وفى جودة التصنيف قوة تامة ، ومن كبار
رواة المبرد وثعلب والبخترى وأبى العیناء وغيرهم ، وقد سمعت
قدرا صالحا مما عنده (١) ..

* * *

لقد جالس صاحب أولئك العلماء الأعلام وغيرهم وأفادوا منه
كما أفاد منهم ، فكان بحرا زخارا بفيض من المعرفة بالعربية
وعلمومها وآدابها ، فألف فى العروض والقوافى ، وألف فى التاريخ
عدة كتب منها كتاب المعارف ، وكتاب الوزراء ، وأخبار
أبى العیناء ، وتاريخ الملك واختلاف الدول ..

ولم يكن شىء من ذلك مستغربا ، فبیئة الرجل العلمية وأبوه
العالم وأساتذته ، ومجالسوه وثقاته من رجال العلم وأعلام الفكر ،
وولوعه بالكتاب حتى قيل انه كان يستصحب فى كل سفرة حمل
ثلاثین جملا موقرة بالكتب فى سائر ألوان المعرفة ، حتى استغنى
الصاحب عنها كما يقال بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانی .

* * *

أما علم الشعر والأدب ، والمعرفة بمحاسنهما ومثالبهما فقد

(١) معجم الأدباء ٢٧٩/٦ نقلا عن كتاب الروزنامة للصاحب .

نبلغ فيه الصاحب وتفرع وقد سبق أن قلنا ان ثقافته الأدبية غلبت كل ثقافة سواها ، ومرجع ذلك ذوقه الأدبي وطبيعته الفنية . ثم المعرفة الأدبية والبصيرة النافذة التي أفادها من تجاربه الطويلة في صناعة الأدب ، ومن مناقشة الأدباء ومجاراة الشعراء ، وأفادته من القراءات المستفيضة لآثار العلماء والأدباء ، ثم ما أفاده من شيخه الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد . وقد عبّر الصاحب عن هذه المخرجات في علم الشعر وتقدمه في قوله : « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجاري الشعراء ، بالجبال تارة ، وبالعراق مرة ، وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب » .

ثم يذكر الصاحب أثر أستاذه في تخريجه وفضل معرفته في قوله « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد ، فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن ، وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحدى به في هذا الجنس . وقد قال أبو عثمان الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فالفيتيه لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فرأيتيه لا ينقد الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات »

فلله أبو عثمان لقد غاص على سر الشعر ، فاستخرج ما هو أدق
من الشعر » . وقدم صاحب بعد ذلك شذورا سمعها من الأستاذ
الرئيس أبي الفضل بن العميد في نقد الشعر تدل على ما بعدها ،
وتنبى عما قبلها ..

قال (١) : أنشدت يوما بحضرته كلمة أبي تمام التي أولها :

شهدت لقد أقوت مغايكم بعدى

ومحت كما محت وشائع من برد (٢)

الى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى

معى واذا ما لثمه لثمه وحدى

فقال الأستاذ الرئيس : هل تعرف في هذا البيت عيبا ؟ فقلت
بلى ، قابل المدح باللوم ، فلم يوف التطبيق حقه ، لأن حق المدح
أن يقابل بالهجو أو الذم ، على أنه قد روى « ومتى ما ذمته
ذمته (٣) وحدى » . فقال — أيده الله — غير هذا أردت ! قلت :
ما أعرف ! فقال : أجل ما يحتاج اليه في الشعر سلامة حروف
اللفظ من الثقل ، وهذا التكرير في « أمدحه أمدحه » مع الجمع
بين الحاء والهاء مرتين وهما من حروف الحلق خارج عن حد

(١) من رسالة صاحب التي سماها « الكشف عن مساوىء
المتنبى » ص ٢٢٦ من كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى » لأبى
سعد محمد بن أحمد العميدى .

(٢) أقوت : أقفرت ، ومح الثوب : بلى ، والوشيعه : الطريقة
في البرد .

(٣) ذامه يذيمه : عابه .

الاعتدال ، نافر كل النفار . فقلت : هذا ما لا يدركه ولا يعلمه
الا من انقادت اليه وجوه العلم ، وأنهضه الى ذراها طبعه .

وكنا يوما نتذاكر في مجلسه ، فجرى قول الشاعر :

أعاتبكم يا أم عمرو لحبكم ألا انما المقلّى من لا يعاتب
فاستحسنه الحاضرون وأعجبوا به ، وأثنوا على قائله ، فقال
أيده الله : ان من انتقاد الشعر أن ينقد ما في القافية من حركة
وحروف . فقلت : كره سيدنا « السّناد » في تغيير حركة الاشباع
اذا جاءت فتحة ، وهى في سائر الأبيات كسرة ؟ فقال : ما أردت
غيره .. وهذا قول من له بكل طرف من أطراف الفضل طرف
موكل ، وناظر منتقد .

وكنت أقرأ عليه شعر ابن المعتز ، متخيّر الأنفس فالأنفس ،
فابتدأت بقصيدته على المديد الأول ، فرسم تجاوزها وقدرته على
حفظها ، ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع
طلبه للمحدثين جيّد الشعر ، فتنبّعت عدة قصائد على هذا
الصنف ، فوجدتها في نهاية الضعف ..

وجرى حديث أبى عبادة البحرى ، وهو يوفيه حقه الذى
استوجبه بجزالة لفظه ، وبشاشة نسجه ، وغزارة طبعه ، وحلاوة
شعره ، فذكر القاضى الجعابى سبطا لأبى عمر قاضى القضاة ،
وانقاده اليه ما استدركه فى شعر البحرى وطعن به عليه ، وأنه
ينقبض عن اظهاره لشغف سيدنا بأشعاره ، فقال الأستاذ : لحن
وان عرفنا للبحرى فضله فما ندعى العصمة له ، وفى شعره
الكسر والاحالة واللحن ! وأقبل علىّ فقال : تعرف للبحرى

ما يخرج فيه عن الوزن ؟ فقلت : بلى ، أنشدنى أبو الحسن المنجم
قال : أنشدنى أبو الغوث لأبيه من قصيدة :

وأحق الأيام بالأنس أن يؤ

ثر فيه يوم المهرجان الكبير (١)

قال — رحمه الله — : غير هذا أردت ! فقلت : لا أعرف ،

فأنشد قصيدته التى أولها :

ظلم الدهر فيكم ، وأساء فمزاء بنى حميد عزاء

الى أن انتهى الى قوله :

ولماذا تتبع الناس شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاء

فقلت : هو ما قال سيدنا ، لأن البيت من الخفيف ، وفيه

زيادة سبب ! فقال تنشده * جعل الله الخلد منه جزاء *

ليستقيم . ثم ابتداء بذكر سقطات البحرى ، وعدة ما حرت فيه

وعجزت عن استيفاء حفظه وتفصييه ، فمما علق بنفسى أن أُلشد

قصيدته التى أولها :

أبا خالد بالجود تذكر واجبى اذا ما غنى الباخلين نسيه

فان قوله « نسيه » مختل الاعراب ، بعيد من الصواب .

وذكر من قصيدته التى أولها :

* عذيرى من نأى غداً وبعاد *

(١) فى ديوان البحرى :

ن عليها ذو المهرجان الكبير

وكان الأيام أوثر بالحسب

وفى الموشح للمرزبانى :

ن عليها يوم المهرجان الكبير

وكان الأيام أوثر بالحسب

حتى ذكر قوله :

على باب قنّسرين والليل لاطخ جوانبه في ظلمة بمـداد
وأشـدني من قصيدة في أبي اسحاق بن كنداج :

وجوه حسـّادك مسودّة أم خضبت بعدى بالزاج (١)
فان هذين التشبيهين غير رائعين ولا بارعين . وقال في أثناء
هذا المجلس : ما علمنا أن في طبع البحري تكلفا الى أن قرأت
قصيدته في صفة الايوان * صنت نفسى عما يدنس نفسى *
وسمعتـه — أيده الله — ينشد أبيات أبي تمام التي أولها :
* أما وقد ألحقتنى بالموكب *

فأنشد :

أبديت لى عن صفحة الماء الذى

قد كنت أعهده كثير الطحلب (٢)

فقلت : زين سيدنا هذا الشعر باقامته « الصفحة » مقام
« الجلدة » ! فقال : كذا يلزما لمثل أبي تمام اذا أمكن اصلاح
بيت بلفظة ، وتهذيب قصيدة بكلمة !

وسمعتـه — أيده الله — يقول : ان أكثر الشعراء ليس
يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق
الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ،
وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أى المواقف

(١) الزاج : من اخلاط الحبر .

(٢) الطحلب : خضرة تعلو الماء من طول المكث .

يحصل أحمد اطرادا ، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه به والتمناه
عليه (١) .

فقلت : لو مثل سيدنا هذا لكان أقرب الى القلب ، وأوقع في
النفس . فقال : نعم ، هذا البحتريّ أراد مدح أبي الخطاب
الطائي ، وقد كان ابن بسطام أحسن الى أبي عبادة بمائتي دينار ،
فجعلها أبو الخطاب آلافا وأضعفها ، وجارى ابن بسطام بها ،
فنظر البحتريّ وقد جراه أضعافا ، وجعل مئته آلافا ، وقد كان
يكفى أن يزيده الى الأحاد أنصافا ، فبنى قصيدته على هذه
القافية ، حتى اتسق له ما أحبّ ، وبلغ ما طلب ، فقال :

قضيت عنى ابن بسطام صنيعته
عندى وضاعفت ما أولاه أضعافا
وكان معروفه قصدا الىّ وما
جازيت عنى تبذيرا واسـرـرافا
مئون عينا توليت الثـواب بها
حتى انشئت لأبى العباس آلافا
قد كان يكفيه فيما قدمت يده
ربحا يزيد الى الأحاد أنصافا

وذكر — أيده الله — يوما الشعر ، فقال : ان أول ما يحتاج
اليه حسن المطالع والمقاطع ، فان فلانا أنشدنا في يوم ليروز قصيدة
أولها : * أقبر * وما طلت ثراك يد الطلّ * فتطيرت من افتتاحه

(١) الالتيات : الاختلاط .

بالقبر وتنغصت باليوم والشعر . فقلت : كذا كانت حال أبي مقاتل
لما مدح الداعى الحسن بن زيد بن محمد :

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعى ويوم المهرجان
فنفر من قوله « لا تقل بشرى » أشد نفار ، وقال : أعمى
ويتدىء بهذا فى يوم المهرجان ؟

قال صاحب : ولو تتبعت ما علقت ، وحفظت عن الأستاذ
الرئيس فى هذا الباب لاحتجت الى عقد كتاب مفرد ، ولعلنى
أفعل ذلك فيما بعد ..

وذكر — أيدى الله — اختيارات الشعر ، فقال : ليس فيها
أحسن من كتاب « الحماسة » . ولقد نظرت فى الدواوين لأجد
ما يلحق بكل باب منه ، فلم أر ما يستحق الاضافة اليه . قال :
وخير الاختيارات بعدها اختيارات المفضل باسقاط قصيدتى
المرقش .

من ذلك الخضم الضخم استقى صاحب بن عباد ثقافته
الأدبية التى أفادته فى ناحيتين :

أولاهما : فبه الأدبى الذى تهذب بهذا الفيض الزاخر من
علم أستاذه وثقافته وظهر أثر هذا التهذيب فيما ألف من شعر
رقيق ، يتدفق فى سر وفى عذوبة ، وفيما كان يكتب من كتب
ورسائل أبدع فيها وأجاد ، وعد بها اماما من أئمة الكتاب .

والناحية الأخرى : نظراته فى الأدب منظومه ومنشوره ،
وجودة آرائه فيه ، فقد تخرج بهذا علما بالشعر ، فى طليعة نقاده
العارفين بأصوله ومذاهب أصحابه . واعتمد عليه فى نقد ما كان

يدور في مجالسه من فنون القول التي كان يراجع فيها الشعراء والأدباء ، ويناقش العلماء .

وبرز هذا بروزا واضحا في رسالته النقدية التي كتبها في نقد شعر المتنبي ، والتي سمّاها « الكشف عن مساوئ المتنبي » أو « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » ..

على أننا قد رأينا في ثنايا وصف ما سمعه من أستاذه أبي الفضل ابن العميد ، أنه كان يسأل صاحب ، وكثيرا ما كان يجد عنده الرأي والجواب الذي يدل على البصيرة والفهم والمعرفة بالشعر والأدب ، والقدرة البارعة على تذوقه ونقده ..

وحسبنا هذا المقدار من الحديث عن علم صاحب بالأدب والشعر ، وعوامل تخريجه فيه ، وقد فصلنا القول في شعره ونثره وكتابته ونقده في فضل آخر من هذا البحث عند دراستنا للمصاحب الأديب .

* * *

ولم تقف ثقافة صاحب الواسعة عند حدود الثقافة الأدبية والفلسفية في اللغة والأدب وعلم الكلام وعلم الأصول ، فقد كانت له مشاركة في فن الطب ، وثقافة فيه ، ويبدو ذلك مما ذكره أبو جعفر الطبري المعروف بالبلاذري في قوله « ان للمصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرّة وابن زكرياء لما زاد عليها » ! قال الثعالبي : فسأله أن يعيرينها ان كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب المصاحب ، ونسبته في نفسى الى التزيد والتكسر ، الى أن

ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها
تلك التي ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع الى ملاحه البلاغة ،
ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ،
وتدل على التبحر في علمه ، وقوة المعرفة بدقائقه ، وهذه نسختها :
« قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال
جسمه ، فدلتنى جملته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر
على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف
معدته وقلة شهوته فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا
لم ينق فتفتق الشهوة الصادقة وترجع العادة السابقة . والآخر
أن المعدة اذا دامت عليها المطفئات ، ولزت بها المبردات قلت
الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفىء ويغذى ،
ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوى منها ويزيل
العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل « جالينوس » ، قدّم
علاج الأهم ، ثم عد وأصلح ما أفسدت ! والأقراص في آخر
الحميات خير ما تقيت به المعدة ، وأصلحت به العروق ، وقوى
به الطحال ، ليتمكن من جذب العكر ، لا سيما والذي وجده
مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها ، والبلدة التي
وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسدا تقيا من الفضول لما أثر
هذا التأثير ، ولا طول هذا التطويل .

« وانما اغتر مولاي بأيام السلامة ، فكان يتبسّط في أنواع
الطعام ، ويسرف في تناول الشراب ، فامتلا الجسم من تلك
الكيموسات الرديئة . وورد بلدا شديد التحليل مضطرب الأهوية

فوجدت النفس عوناً على حل ما انعقد ، ونقض ما اجتمع .
ومستفضل الله بالسّلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن
الجسد يخلص خلاص الأبريز ، وإذا زال عنه الخبث وسبك
ففارقة الدرن .

« وأما الرعشة التي يتألم مولاي منها ، ويضيق صدرها بها ،
فليست والحمد لله محذورة العاقبة ، وإنها لتزول بإقبال العافية .
فالعشة التي تتخوف هي التي تعرض من ضعف القوة الحيوانية ،
كما تعرض للمشايخ ، وتؤدي لمشاركتها الدماغ كثيراً من العظام ،
فأما هذه التي تعتاد عقيب الحمى فهي على ما قال « جالينوس »
من أن حدوثها يكون إذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة
العصب ، وتزول عنه بزوال الفضل . وعجب مولاي من تكرّره
شم الفواكه ، ولا غرو إذا عرف السبب ، فإن العفونة التي في
العروق قد طبقت روائعها آلات الشم ، فما يصل إليها من
الروائح الزكية يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة
فتكرهها ولا تقبلها ، وتأبأها ولا تؤثرها . ألا يرى مولاي أن
الأشياء الحلوة توجد في فم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ،
لامتلاء المرارة المضادة للحلاوة على آلات الذوق والمضغ
والإدارة . وهذا راجع إلى مثل ما حكمنا به أولاً من أن هناك
فضلاً لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يخشى من سقوط القوة ،
وإن كان مما لم يخرج لم يوثق بوفور الصحة ، وأنا أحمد الله
إذا ليست شهوة سيدي متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخلاط
الفاسدة تغري صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرض للمزاج الفاسد .

الا أن التغذى لا يجوز اهماله والتبرم به ضربة . فإن البدن اذا احتاج اليه وجب للعليل أن يتناوله تناول الدواء الذى يصبر عليه ، وذلك أن فى دقة الحمية وترك الرجوع أول فأول الى عادة الصحة اماتة للشهوة ، وخيانة للقوة . و « جالينوس » يشرط فى العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذى يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، الا أن ذلك بازاء ما قال الحكيم الأول « بقراط » فى البدن السقيم : انك متى ما زدته غذاء زدته شراً ، وهو فى نفسه يقول : ان الحمية التى فى غاية الدقة ليست بمحمودة ، فالطرفان من الاسراف والاجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم ، أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء (١) ..

ولسنا بعد ذلك نستطيع الجزم بمظنة هذه الثقافة الطبية التى حصلها صاحب ، فاننا لم نقرأ أنه تلقى أصول فن الطب والعلاج على أحد من رجاله المعاصرين ، ولذلك فاننا نرجح أن هذه الثقافة الطبية لها مصدران : أولهما تجاربه فى حالة صحته وحالة سقمه ، والاستماع الى كلام أطبائه ونصائحهم ، ولعله كان يسألهم ويفيد من علمهم وتجاربهم ، والمصدر الآخر فيما نظن هو قراءته واطلاعه على آثار فى الطب والعلاج وفى الكتب التى تدرس فن الطب ، سواء أكانت من آثار حكماء العرب الذين عاصروه والذين سبقوه أم من كتب الطب التى ألفها حكماء اليونان ونقلت الى اللسان العربى .

آثار الصاحب

انك حين تقرأ آثار الصاحب التي حفظها التاريخ ، وسجلتها كتب طبقات الرجال ، لتروعك تلك القوة الخارقة ، والمعرفة الفائقة التي وهبها هذا الرجل ، على الرغم من الجهود المضنية التي تفل عزم الرجال ، والتي كان يبذلها في تدبير شئون الملك ، والتجهز للحرب ، وتفقد أحوال الرعية ، وفي مجالسه التي كان ينصبها للعلماء والأدباء ، يستمع اليهم فيها ، وينظرهم في قضاياها ، وفي اتقاء الأذى ودفع الضرر الذي كان يحاوله أعداؤه وحساده ، وهم كثيرون ..

ومن شأن تلك التبعات الكبرى ألا تدع لحاملها وقتا يصرفه في التأمل والمطالعة ، والبحث والتنقيب ، وفي الكتابة والتأليف ، بل من شأنها ألا تدع له وقتا يخلد فيه لراحته ، ويسكن فيه الى أهله وعشيرته ..

ان كثرة تصانيف الصاحب ، وتنوع مباحثها ، واختلاف فنونها ، لتدل بأنصع برهان على ما آتاه الله من المواهب المنقطعة النظير ، وتشهد بما منحه من وفرة العلم ، وسعة العقل ، ونفاذ البصيرة .. فلم يكن الصاحب الوزير من أولئك الذين يلمون بالمسائل الماما ، ولا من الأدباء الذين يجتزئون من كل فن بطرف ، وانما كان من أولئك الأفذاذ الذين يغوصون الى قرارة المعرفة ، ومنابت الحكمة .

وهذه آثاره في منظوم الأدب ومنشوره ، صناعة وتأليفا ،

ومعرفة وتقدا ، ثم فى علم اللغة ، وعلم الكلام ، وعلم الأصول ،
وفى الفرق ، وفى التاريخ والأخبار والسير .. شاهدة بكل
ما ذكرنا من آيات نبوغه وتحصيله وعبقريته ، ومن هذه الآثار :
١ — كتاب المحيط فى اللغة ، ذكر ياقوت أنه عشرة
مجلدات ^(١) ، وقال ابن خلكان : هو فى سبع
مجلدات ، رتبته على حروف المعجم ، كثر فيه الألفاظ
وقتل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء
متوفر (٢) ..

- ٢ — كتاب ديوان رسائله — عشرة مجلدات .
- ٣ — كتاب « الكافى » — رسائل .
- ٤ — كتاب الزيدية .
- ٥ — كتاب الأعياد وفضائل النوروز .
- ٦ — كتاب الإمامة ، يذكر فيه فضائل على بن طالب رضى
الله عنه ، ويثبت امامة من تقدمه .
- ٧ — كتاب الوزراء .
- ٨ — كتاب « عنوان المعارف » فى التاريخ .
- ٩ — كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .
- ١٠ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .
- ١١ — كتاب العروض الكافى .
- ١٢ — كتاب جوهرة الجمهرة .

(١) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ .
(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

- ١٣ — كتاب « نهج السبيل » في الأصول .
- ١٤ — كتاب أخبار أبي العيناء .
- ١٥ — كتاب تقض العروض .
- ١٦ — كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول .
- ١٧ — كتاب الزيددين .
- ١٨ — كتاب ديوان شعره .
- ١٩ — كتاب « الروزنامجة » مما اتفق له مع أبي محمد الوزير المهلبى ، حين ورد صاحب بغداد (١) .
- ٢٠ — كتاب « الوقف والابتداء » ذكره الأنبارى فى « نزهة الألباء » وقال ان صاحب لما صنف كتاب الوقف والابتداء كان ذلك فى عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر بن الأنبارى وقال له لما صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت فى سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال صاحب للرسول : قل للشيخ نظرت فى النيف وسبعين التى نظرت فيها ، ونظرت فى كتابك أيضا (٢) .

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ١١٥/٣ .

(٢) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٠ — قلت : ولأبى سعيد

لسيرافى كتاب فى « الوقت والابتداء » .

الفصل السابع

أبو حيان والصاحب

أبو حيان والصاحب

كان على بن محمد بن العباس ، المكنى أبا حيان ، والملقب « التوحيدى » ^(١) من أهل شيراز ^(٢) ، وقدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى الى الرى ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل ابن عباد ، وقبله أبا الفضل ابن العميد ، فلم يحمدهما ، وعمل فى مثاليهما كتابا سماه « ثلب الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » أو « أخلاق الوزيرين » ! ..

وكان أبو حيان متفنا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه .. فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف فى الأدباء ، وأديب فى الفلاسفة ، ومحقق فى الكلام ، ومتكلم فى المحققين ^(٣) .. ولكنه كان — كما يقول ياقوت — سخييف اللسان ، قليل الرضا عند الاساءة اليه

(١) التوحيدى نسبة الى نوع من التمر يسمى «التوحيدى» وقال شيخ الاسلام ابن حجر : يحتتمل أن يكون الى التوحيد الذى هو الدين . فان المعتزلة يسمون أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » .
(٢) وقيل من نيسابور .

(٣) ويعدده بعض العلماء زنديقا ، قال ابن الجوزى : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو حيان التوحيدى . قال : وشرهم على الاسلام التوحيدى ، لأنهما صرحا ولم يصرح !

والاحسان ، الذمّ شأنه ، والثلب دكانه . وهو مع ذلك فرد الدنيا
الذى لا نظير له ذكاء وقطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل
للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية .

وكان مع ذلك محدودا محارفا (١) يتشكى صرف زمانه ،
ويكى فى تصانيفه على حرمانه ، قال ياقوت : ولم أر أحدا من
أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا دمجّه فى ضمن خطاب ، وهذا
من العجب العجائب (٢) ..

ولعل السبب فى هذا الاغفال الذى يشير اليه ياقوت ما رمى
به أبو حيان من الزندقة والاحاد فتهيب الناس ذكره ، لما حاروا
فى أمره ، فقد صرح صاحباه — المعرى وابن الراوندى — برأيهما
فقال فيهما من شاء ما شاء ، أمّا هو فكما يظهر من كلام
ابن الجوزى كان يخلط السّم بالشهد ، ويخفى طوية نفسه ،
وحقيقة معتقده ..

وليس المجال هنا على كل حال مجال البحث فى عقيدة
أبى حيان ، أو الاطمئنان الى صحة اعتقاده .

وقد يكون السبب فى اهماله وعدم العناية بأخباره وآثاره
ما اشتهر به من الاساءة الى الناس ، وانكاره احسانهم اليه ،
ومعروفهم لديه .

* * *

وقد يكون حسده لأولى النعمة فى الثراء والجاه والعلم

(١) المحدود المحارف : المحروم .

(٢) معجم الأدباء ٦/١٥ .

والأدب — وقد كان أبو حيان « مجبولاً على الغرام بثلب الكرام » — مما زهد الناس في علمه وأدبه . فقد عرفوا غروره وتعاضلوه ، وعرفوا أن الخلق الذى يتميز به كل مدع للعلم ومنتسب اليه هو فضيلة التواضع ، وقد جرّده الله من هذه الفضيلة ، وسلط لسانه على أنداده في العلم والمعرفة ، وعلى من يسبقونه في ميدان الذوق والفهم والتحصيل ، فقلّ منهم من نجا من لدعه ، وسلم من عيبه ونقده . وكأنه يجد في هذا الثلب لذة عجيبة ، ومتعة غريبة ..

ولا يتكلف أصحاب الأخبار نسبة هذا الخلق اللئيم اليه ، بل ان أبا حيان نفسه يعترف في صراحة أن النيل من الناس ، وشهوة انتقاصهم طبع ركب فيه ، لا يستطيع الخلاص منه . وذلك في حديث جرى بينه وبين أبى سعيد السيرافى ذكره أبو حيان في كتابه « المحاضرات » وقال فيه : كنت بحضرة أبى سعيد السيرافى ، فوجدت بخطه على ظهر كتاب « اللمع في شواذ التفسير » وكان بين يديه ، فأخذته ونظرت — قال : ذمّ أعرابى رجلاً فقال : ليس له أول يحمل عليه ، ولا آخر يرجع اليه ، ولا عقل يزكو به عاقل لديه ، وأنشد :

حسبتك انساناً على غير خبرة

فكشّفت عن كلب أكبّ على عظم

لحى الله رأياً قاد نحوك همتى

فأعقبني طول المقام على الذم

فقال لى : يا أبا حيان ، ما الذى كنت تكتب ؟ قلت الحكاية

التي على ظهر هذا الكتاب ، فأخذها وتأملها ، وقال : تأبى
الا اشتغال بالقدح والذم وثلب الناس ؟ فقلت : أدام الله
الامتناع ، شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع اليه (١) !!
فالولوع بهجو الناس وانتقاصهم داء ابتلى به هذا الرجل ،
وتمكن من قلبه حتى أصبح خلقا من أخلاقه ، وسجية من
سجاياه ، وأصبح لا يخصص به رجلا دون رجل ، ولو كان ممن
تفضلوا عليه ، وأحسنوا اليه ..

* * *

وقد نال أبو حيان من صاحب نيلا عظيما ، حاول به أن
يحطم مجده ، وأن ينتزع من قلوب الناس وعقولهم ما وقر عندهم
من فضله ، وما عرفوه من علمه وسياسته وأدبه ، وكأنه مسلط
لاستخراج مخازيه ، وإذاعة مساويه ، فكتب تلك الرسائل الطويلة
التي بث فيها سمومه بالقدح والثلب الذي افتنّ في ابرازه افتتان
الكاتب الصانع ، والمصنّور الماهر ، بدرجة تنتزع الاعجاب من
قلوب أهل الفن ، وإن كانت تأباها مكارم الأخلاق وما ينبغي أن
يكون بين أهل العلم والمعرفة من التواصل والتقدير ..
وأبو حيان يذكر لحملاته على صاحب أسبابا ، وكل هذه
الأسباب تكشف عن حقد دفين كان صدى لما أحسّ به من
الحرمان ، وسوء التقدير ، وخيبة التأمل .

وهاك شيئا مما كتبه أبو حيان عن اتصاله بالصاحب ، وعما
جرى بينهما مما رآه سببا للموجدة والحفيظة ..

(١) قال أبو حيان : وأما حديثي معه — يعنى مع ابن عباد —
فأتيت حين وصلت اليه :
قال لى : أبو من ؟
قلت : أبو حيان ..
فقال : بلغنى أنك تتأدب ..
فقلت : تأدب أهل الزمان !
فقال : « أبو حيان » ينصرف أو لا ينصرف ؟
قلت : ان قبله مولانا لا ينصرف !
فلما سمع الصاحب هذا تنمر ، وكأنه لم يعجبه ..
ثم قال لى : الزم دارنا ، والنسخ هذا الكتاب .
فقلت : أنا سامع مطيع ..

ثم اتيت قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : انما توجهت من
العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلص
من حرفة الشؤم ، فان الوراقه لم تكن يبغداد كاسدة !! فتمى
اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا ..

(٢) وقال لى ابن عباد يوما :
— يا أبا حيان ، من كذاك بأبى حيان ؟
قلت : أجلّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته ؟
قال : ومن هو ؟ ويلك ..

قلت : أنت !

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلت : حين قلت : « يا أبا حيان ، من كذاك بأبى حيان » ؟

فأضرب عن هذا الحديث ، وأخذ في غيره ، على كراهة ظهرت عليه .:

(٣) وقال لى يوما آخر : — وهو قائم فى صحن داره ، والجماعة قيام ، منهم الزعفرانى وكان شيخا كثير الفضل جيد الشعر ممتع الحديث ، والتسمى المعروف بسطل وكان من مصر ، وصالح الوراق ، وابن ثابت ، وغيرهم من الكتاب والندماء — : يا أبا حيان ، هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية ؟ قلت : نعم ، من أقرب ذلك « أبو حيان الدارمى » من أهل البصرة .. وبعد أن روى شيئا من أخباره وأشعاره .. قال : فلما وفيت الشعر ، ورويت الأسناد ، وريقى بليل ، ولسائى طلق ، ووجهى متهل ، وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب الشباب ^(١) وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا ، فحين انتهيت أنكرت طرفه ^(٢) ، وعلمت سوء موقع ما رأيت عنده !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : ابن الجعابى الحافظ ، يكنى بأبى حيان ، رجل صدق ، وهو يروى عن التابعين !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : روى الصولى فيما حدثنا عنه المرزبانى أن معاوية لما احتضر أنشد يزيد عند رأسه متمثلا :

(١) شرب الشباب حدثه ونشاطه .

(٢) أى رأيت فى نظره ما لا يروق الناظر اليه .

لو أن حيّا نجا لقات أبو

(١) حيان لا عاجز ولا وكل

الحول القلب الأريب وهل

(٢) يدفع صرف المنية الجيل

قال الصولى : وهذا كان من المعمرين المغفلين ..

وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا أريحية ، بل على

اكتهرار وجه ، ونبوّ طرف ، وقلة تقبل !

(٤) وقال لى صاحب يومنا — وهو يحدث عن رجل أعطاه

شيئا فتلكأ فى قبوله — : « ولا بد من شىء يعين على الدهر » ؛

ثم قال :

— سألت جماعة عن صدر هذا البيت ، فما كان عندهم ذلك ..

فقلت : أنا أحفظ ذاك ..

فنظر بغضب ، وقال : ما هو ؟

قلت : نسيت !

فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك !

قلت : ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة

نسيت !

قال : وما حيلولتها ؟

(١) الوكل البليد الجبان العاجز .

(٢) الحول ذو القوة والقدرة على التصرف ، والأريب البصير

بالأمور .

قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب في حسن الأدب ألا يقال
ما يثير الغضب !

قال : ومن تكون حتى تغضب عليك ؟ دع هذا وهات ..
قلت : قول الشاعر :

الأم على أخذ القليل وانمسا
أصادف أقواما أقلّ من الذر
وأدفع عن أموالهم ونفوسهم
ولا بد من شيء يعين على الدهر

فسكت !

(٥) قدم الى نجاح الخادم ، وكان ينظر في خزانة كتبه ،
ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : انسخ هذا فانه قد طلب منه
بخراسان ، فقلت بعد ارتياح (١) : هذا طويل ، ولكن لو أذن لي
لخرجت منه فقرا كالغرر ، وشذورا كالدرر .. لو رقي بها مجنون
لأفاق ، أو نفث على ذي عاهة لبرأ ، لا تملّ ولا تستغث ..

فرفع ذلك اليه — وأنا لا أعلم — فقال : طعن في رسائل
وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرنّ مني
ما عرف ، وليعرفنّ حظه اذا انصرف !

كأنّي طعنت في القرآن ، أو رميت الكعبة ، أو عقرت ناقة
صالح ..

وما ذنبى يا قوم اذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا

(١) أي بعد تدبر وامعان .

الذى يستحسن هذا الكلب ، حتى أعذره فى لومى على الامتناع ؟
أينسخ انسان هذا القدر ، وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره ؟
أو ينفعه ببدنه ؟

(٦) وفى كتاب « الهفوات » لابن الصائى : حكى أبو حيان
قال : حضرت مائدة الصاحب بن عباد ، فقدّمت مضيرة ^(١) ،
فقال لى : يا أبا حيان ، انها تضر بالمشايخ ! فقلت : « ان رأى
الصاحب أن يدع التطيب على طعامه فعل » ! .. فكأننى ألقمته
حجرا وخجل واستحيا ، ولم ينطق الى أن فرغنا ..

(٧) قال الصاحب يوما : « فَعَمِلَ » و « أفعال » قليل ^(٢) ،
وزعم النحويون أنه ما جاء الاّ زند وأزناد ، وفرخ وأفراخ ،
وفرد وأفراد !

فقال أبو حيان : أنا أحفظ ثلاثين حرفا كلها فعل وأفعال ^(٣) .
فقال الصاحب : هات يا مدّع !

قال أبو حيان : فسردت الحروف ، ودلت على مواضعها من
الكتب ، ثم قلت : ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم الا بعد
التبحر والسماع ، وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة
والقياس مطردا . وهذا كقولهم : « فَعَمِلَ » على عشرة أوجه ،

(١) المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير أو الحليب ، واللبن
المضير الحامض منه .

(٢) يريد أن ما جاء من الأسماء على وزن « فعل » مجموعة
على وزن « أفعال » قليل .

(٣) أى أعرف ثلاثين اسما على وزن « فعل » جمعت على
وزن « أفعال » .

وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجها ، وما انتهت في
التتبع الى أقصاه . فقال له الصاحب : خروجك من دعوائك
في « فَعَل » يدلنا على قيامك في « فَعِيل » ولكن لا نأذن لك في
اقتصاصك (١) ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به
بجرائك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرنا ..

(٨) وقال أبو حيان في كتاب « أخلاق الوزيرين » : طلع
ابن عباد على يوما في داره ، وأنا قاعد في كسر ايوان أكتب شيئا
كان قد كادني به (٢) ، فلما أبصرته قمت قائما ، فصاح بحلق
مشقوق : اقعد فالوراقون أحسن من أن يقوموا لنا !..

فهمت بكلام ، فقال لي الزعفراني الشاعر : اسكت ، فالرجل
رقيق .. فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته
وسخفه ، لأنه كان قد قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنخ أنفه ،
وأمال عنقه ، واعترض في التصابه ، والتصب في اعتراضه ، وخرج
في تفكك مجنون قد أفلت من دير جنون .. والوصف لا يأتي
على كنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك الا باللحظ ، ولا يؤتى
عليها باللفظ .

(٩) ما ذنبي اذا قال لي : هل وصلت الى ابن العميد
أبي الفتح ؟ فأقول : نعم رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت

(١) اي فيما تقصه علينا .

(٢) كادته بالشئ كلفه به .

ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا .. فينزوي وجهه ، وينكر حديثه ، وينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له .. ثم يقول : أعلم أنك انما انتجعتة من العراق ، فاقراً على رسالتك التي توصلت اليه بها ، وأسهمت مقرظاً له فيها ، فأتمانع ، فيأمر ويشدد ، فأقرؤها فيتغير ويذهل ؟ ..

(١٠) ثم ما ذنبى اذا قال لى : من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف (١) الذى تكتب به الى فى الوقت بعد الوقت ؟ فقلت : وكيف لا يكون كما وصف مولانا ، وأنا أقطف ثمار رسائله ، وأستقى من قلب (٢) علمه ، وأشيم بارق أدبه ، وأرد ساحل بحره ، وأستوكف قطر مزنه (٣) ؟ فيقول : كذبت وفجرت ، لا أم لك ! ومن أين فى كلامى « الكدية » و « الشحذ » و « التضرع » و « الاسترحام » ؟ كلامى فى السماء ، وكلامك فى السباد ..

هذا ، أيدك الله ، وان كان دليلاً على سوء جدى ، فانه دليل أيضاً على انحلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه ! .. وقال أبو حيان عند قربيه من الفراغ من كتابه فى ثلب الوزيرين

(١) المفوف : الرقيق ، والمشوف : المجلو .

(٢) القلب : البئر .

(٣) استوكف : استمطر واستدعى جريانه .

— وقد حكى عن ابن عباد حكايات وأسندها الى من قال انه أخبره بها — : فما ذنبى ، أكرمك الله ، اذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان .. على أنى قد سترت شيئا كثيرا من مخازيه ، اما هربا من الاطالة ، أو حيلة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح ، وذكر ما يسمح مسسوعه ، ويكره التحدث به .. هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فانى فارقت سنة سبعين وثلاثمائة ..

ثم يلتبس أبو حيان الأسباب التى حملت على ذلك الفحش والاقذاع فى قوله : ما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرّعني من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحمل عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعود المتصل والظن الحسن ، حتى كأنى خصصت بخيالاته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى .. وانظر كيف يستحيل معى عن مذهبه الذى كان هو عرقه النابض ، وسوسه (١) النبات ، وديده المألوف ؟ .. وهكذا أجرانى مجرى التاجر المصرى والشاذباشى (٢) وفلان وفلان ؟ !



ذلك شئ مما ساقه أبو حيان فيما كان بينه وبين الصاحب

(١) السوس الأصل .

(٢) منسوب الى « الشاذباش » وهو فارسى ، ومعناها

اجرة المغنى .

ابن عباد ، أو تلك هى الأسباب التى أحفظت صدر أبى حيان على
الصاحب ، وفيها ما أحفظ صدر الصاحب على أبى حيان .
ويستفاد من هذه الروايات والأخبار :

أن أبا حيان ، وهو من هو فى العلم والأدب ، كان يطمح
أن يجد فى رحاب الصاحب ما كان يطمح اليه من عزة وتكريم ،
ومودة وتقريب ، مما يلائم مواهبه وطموحه ، وقد عرف أن حضرة
الصاحب كعبة القصاد ، وأمل الوافدين من رجال العلم والأدب ،
الذين يدفعهم طموحهم ، أو سوء ما يجدون فى أوطانهم الى
الرحلة الى رحاب أوسع ، وآمال أكبر ، فتوجه من العراق الذى
كان يحترف فيه حرفة الوراقة التى لقبها « حرفة الشؤم » الى
هذا الباب ، وزاحم منتجعى هذا الربيع ، وانما يسقط الطير حيث
يلتقط الحب ..

فماذا كان يريد أبو حيان أن يكون ؟

أكبر الظن أنه كان يريد أن يكون صاحباً للصاحب ، وأنيساً
له ورفيقاً ونديماً ، يستظل بكنف الصاحب ، ويستمتع الى الأدباء ،
ويحكم بين الشعراء ، ويناقش العلماء ، ويفضى فى حضرته بمكنون
علمه ، ليطير ذكره فى الآفاق ، ويودع حياة الخمول التى قاساها ،
وحرفة الوراقة التى كان يمتنها قبل أن يلقاه .

ومما لا نشك فيه أن أبا حيان — بعد الذى عرفناه عن علمه
الواسع ، وثقافته المتنوعة العميقة ، وإطلاعه على كل دقيق من
العلم والفن ، وآثار قلمه الرائعة فى التصوير والبيان ، والغزارة
المنقطعة النظير التى تقرأ آثارها فى كتبه ، ولا سيما فيما استطعنا

أن تقف عليه كاملا في تلك الآثار ، وفي مقدمتها كتاباه « المقابسات » و « الامتاع والمؤانسة » اللذين تقرأ فيهما فيضا زائرا ، وسيلا متصلا من العجب العجيب الذى يدهش العقول ويحير الألباب ، ويدل على توقد الذهن ، وقوة الخاطر — لا شك بعد هذا كله في أن أبا حيان كان جديرا كل الجدارة بما كان يطسح اليه ، وما كان يتطلع الى بلوغه من هذه المنزلة في صحبة صاحب ..

فلم لم يحله صاحب هذه المنزلة ؟ ولم لم يبلغه ما يريد من العزة والجاه ؟ أكانت تلك المعرفة المتبحرة التى كان أبو حيان يتمتع بها يمكن أن تخفى على مثل صاحب ، وهو المشهود له بمعرفة الرجال ، وانزالهم منازلهم من حضرته التى تزدان بالناهين من العلماء والأدباء ، وطالبي الحاجات ؟

ذلك افتراض فى رأينا بعيد .. حتى لو لم يكن صاحب يعرف عن أبى حيان شيئا قبل شخوصه اليه ، وقدمه عليه ، فقد وقف بنفسه على ما عند الرجل من معرفة وفهم وتحصيل فى تلك الأحاديث والمناقشات التى دارت بينهما فى مجلسه ، وفى اجابات أبى حيان الشافية عن الأسئلة التى وجهها اليه صاحب ، وفيما وجده مما لم يجد عند غيره من أهل الرواية والدراية ..

ولم يكن صاحب بعد كل هذا فى حاجة الى سؤال أحد ، أو استطلاع أخباره من أهل الرواية والأخبار .

لعل صاحب كان يرى فى أبى حيان رجلا متطلعا لا يرضى

بعطاء ، ولا يقنع بما يمكن أن يصله به كما يقنع نظرائه من قصّاده ..

ان الذى يذكره أبو حيان فى ذلك أنه لم ينل من عطاء
الصاحب كثيرا ولا قليلا ، وذلك فى قوله : « انى فارقت بابى
سنة سبعين وثلثمائة راجعا الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ،
ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم
واحد » ! وذلك خبر اذا صح غريب ، فان معناه أن أبا حيان
لم ينل فى تلك السنين الثلاث الا طعامه الذى يقيم أوده ويحفظ
عليه حياته ، وثوبه الذى يستر به جسده . وذلك جزاء من مثل
الصاحب قليل ، بل أقل من القليل ..

ولسنا نظن أن واحدا من أدنى خدم الصاحب فى القصر كان
يرضى أن يكون ثمن خدمته طعامه وثوبه ، من غير أن يكون له
حظ من موفور العطاء يعود به على أهله ، أو يحفظه من عادات
الزمان ، فتلك دائما غاية الذين كانوا ينتجعون أبواب الملوك
والأمراء والوزراء ، ويشدون اليهم الرحال ، ويركبون فى سبيلهم
الأهوال ..

* * *

ولم يكن أبو حيان فى تلك السنين الثلاث رجلا من العاطلين
فى بلاط الصاحب ، بل انه كان يزاوّل عملا من أصعب الأعمال
وأشقها على نفسه ، وهو النسخ والوراقة لما يجب ولما قد يكره ،
فلا أقل من أجر العمل ، وهو عمل يحفظ علم الصاحب وأدبه ،

ولن يرضى أن يكون هذا الأجر طعاما وثيابا ، فليس هذا أجر السّراة العالمين لذوى المعرفة الحاذقين .

وذلك شيء عجيب حقا ، اعترف به أبو حيان ، وعرفه كثير من أعيان العصر ، فليس سرّا أن أبا حيان قد عاد من رحلته الى الصاحب صفر اليدين خالى الوفاض . فقد سأل الوزير أبو عبد الله العارض أبا حيان ، فقال له : انى أريد أن أسألك عن ابن عباد ، فقد اتّبعته وخبرته ، وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعاداته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ، فما أظن ألى أجد مثلك فى الخبر عنه والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهمدان لما وافى ، ولكنى لم أعجمه ، لأن اللبث كان قليلا ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا ..

ويكون جواب أبى حيان : انى رجل مظلوم من جهته ، وعائب عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وان وصفته أرييت منتصفا ، وابتصفت منه مسرفا . فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق (١) ..

ولم تكن حفيظة أبى حيان على الصاحب وحقده عليه سرّا من الأسرار ، بل لقد ذاع خبر هذه الموجدة وشاع ، وأصبح حديث العام والخاص ، فالشيخ أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان

(١) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١ .

بالوزير أبي عبد الله العارض يمن على أبي حيان صنيعة فيه واحسانه اليه بقوله : « انك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرى الى بغداد فى آخر سنة سبعين بعد فوت مأمولك من ذى الكفائتين (١) — نضر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، مغیظا منه ، مقروح الكبد لما نالك من الحرمان المرّ ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقصد المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وجبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولقظة (٢) ..

* * *

ولقد أطلق أبو حيان لسانه بالقدح فى الصاحب والتشهير به . وحاول الصاحب فيما يذكر أبو حيان — والعهد عليه — أن يردّه اليه للاحسان اليه ، أو ليكفّ لسانه عنه ، وذلك فى قول أبي حيان : ان ابن عباد رجل أساء الىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب اليه ثانيا ، وكنت أكره ذلك ، وما كنت آمن ما يكون منه ومنى ، والمجنون المطاع مهروب منه بالطباع (٣) ..

(١) ذو الكفائتين لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد ، ويعنون بالكفائتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦ هـ .

(٢) الامتناع والمؤانسة ٤/١

(٣) الامتناع والمؤانسة ٥٣/١ .

وهذا الخبر خبر محاولة صاحب ارجاع أبي حيان الى
حضرتة للاحسان اليه ان صدق يدل على ندم صاحب في تهميته
في حقه ، وخوفه من أن يبسط لسانه في العيب فيه ، فيشيع عنه
ما يكره أن ينسب اليه ، ويذيعه عنه في العالمين .

وليس لنا بعد ذلك أن نشك في سوء منقلب أبي حيان عن
حضرة صاحب ، ولكننا محتاجون الى تفسير لذلك التجهم الذي
استقبله به ، والصدود الذي لقيه منه طول ثوائه عنده .. وفي
الأخبار التي سلفت والتي ذكرها أبو حيان نستطيع أن تستشف
شيئا من تلك الأسباب :

(١) ان صاحب كان يرى نفسه — أو كان يجب أن
يكون — فرد زمانه أدبا وعلما ومعرفة ، وكأنه كان لا يقنع
بمنصب الوزارة الذي رقى اليه ، بل كان حريصا على أن يضم
المجد من أطرافه ، وكان يكره أن يكون في الناس ، بل أن يكون
في مجلسه الذي يتصدّره من يراه الناس رأى العين أعلم منه .

وقد رأى عند أبي حيان علما واحاطة ، ورواية ودراية ليست
عنده . كما رأينا في كلامه عن « فَعَلَّ » و « أفعال » .. وكما
رأينا في عجز البيت « ولا بد من شيء يعين على الدهر » الذي
أخبر صاحب أنه لم يجد من يدلّه على صدره ، فاذا أبو حيان
يذكر في بداهة صدره ، ويفعل أكثر من هذا فيروى البيت الذي
قبله ..

ثم رأينا أبا حيان بعد أن يروى ما يروى في « فَعَلَّ »
و « أفعال » من الحروف الثلاثين التي لم يعرفها النحويون ،

ولم يعرفها الصاحب ، رأيناه يسترسل من غير أن يُسأل فينتقد النحاة في حصرهم أوجه « فاعيل » في عشرة ، وهو يعرف منها ما يربو على عشرين وجها ، ولا يسمح له الصاحب في هذا الاسترسال ، بل يقطع حديثه في تعسف ظاهر بقوله : « لا تأذن لك في اقتصاصك ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجراتك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرتنا » ..

وفي هذا الردّ القاسي ما يؤكد ما قلناه من أن الصاحب كان يكره أن يكون في مجلسه من هو أعلم منه .

أو لعل الصاحب ، وهو سيد المجلس ، كره من أبى حيان أن يتكلم كما يشاء ، والصاحب رب الدار ورئيس المجلس وهو الذى يدير الحديث ، ويوجهه على حسب ما يشاء ، فرأى فيما كان من أبى حيان اخلالا وتجاوزا لا يليق ..

ولكن ذلك لا ينهض عذرا في مجلس ينصبه للعلم ، يستطرد فيه البحث الى آماده .. وربما كانت طريقة أبى حيان وأسلوبه في عرض ما يريد لم تكن طريقة العالم المتواضع في علمه ، بل ربما كان أسلوبه في الكلام أسلوب المتعالم المستعلى المتعجرف الذى يرى أن عنده ما ليس عند غيره فيملؤه الزهو والغرور ، وكان زهوه وغروره هو الذى نفّر منه الصاحب ، وأطلق فيه ألسنة الحاسدين ..

ويصف أبو حيان في بعض كلامه أسلوبه في القول وطريقته في الالتقاء ، عندما كان الصاحب يسأله عن اسمه « أبو حيان » .. فيقول : « وقّيت الشعر ، ورويت الاسناد ، وريقى بليل ، ولسانى

طلق ، ووجهى متهلل . وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب
الشباب ، وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا ..
ولم يكن غريبا بعد ذلك أن ينكر نظرة الصاحب اليه ، ويعرف
سوء موقع ما أنشد عنده ، وأن ينتهى الحديث من غير هشاشة
ولا هزة ولا أريحية ، بل باكفهرار وجه ، وبسو طرف ، وقلة
تقبل ..

حتى عبارات الملق التى كان يفتن فيها أبو حيان كانت
لا تجد لها صدى فى قلب الصاحب ، فإذا سأله الصاحب عن سر
بلاغته وجودة كلامه ، وأجابه أبو حيان بأنه يقطف من ثمار
رسائله ، ويستقى من قلب علمه ، ويشيم بارق أدبه ، ويرد ساحل
بحره ، ويستوكف قطر مزنه .. يكون جواب الصاحب فى خشونة
وصلف : كذبت وفجرت لا أم لك ! كلامى فى السماء ، وكلامك
فى السّماء !

* * *

والذى لا نشك فيه أن السعاية قد بلغت مداها بين الرجلين ،
وأن السعاة لعبوا دورا كبيرا فى توسيع الهوة وفى احداث الفرة
بينهما ، ولا نشك كذلك فى أن أولئك السعاة وجدوا فى صراحة
أبى حيان ، وفى بثه ضجره بالمقام ، وضيقة بالعمل واطلاقه لسانه
فى نقد بعض ما كان يجد من الصاحب ، وسائل أعانتهم على بلوغ
ما يريدون ، وقد أحس أبو حيان بأثر صراحته وشكواه ، وما فعل
به السعاة فى قوله « قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : انما
توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاجمت منتجى هذا

الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن ببغداد
كاسادة .. فنمى اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده
تكررا .

وتلك احدى حماقات أبى حيان ، اذ كيف يخفى عليه أن
قصور الخلفاء والوزراء كانت تعج بالعيون والرقباء على كل
اشارة وحركة ، لا سيما فى ذلك الزمن الذى كثرت فيه الدسائس
والمؤامرات ، وهو رجل أيا كان علمه وأدبه غريب ؟ !

ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الأخبار أن أبا حيان
كان صاحب أمل عريض يلائم معرفته وطموحه ، وقد تبدد هذا
الأمل ، وكان مصيره أن يعود الى حرفة النسخ والوراقة التى فرّ
منها ببغداد ، ففضى تلك السنين الثلاث قلق المضجع ، نابى
الوساد ، بعد أن خاب فأله وأخفق سعيه ، فتحول أمله يأسا ،
وانقلب رضاه سخطا ، وعاش على هون ذليلا فى كسر الايوان
ينسخ ما يرضى وما يكره ، وما يستطيع وما لا يستطيع ، ولم تكن
حرفة النسخ لتشبع نهمه الى المجد الذى يحلم به . ويمكن
تشبيهه أبى حيان فى آماله وفى موقفه من الصاحب بآمال المتنبى
وموقفه من كافور .. كما يمكن أن يقال ان اعتداد أبى حيان
بنفسه وعلمه وأدبه كان يقابله حرص من الصاحب على ألا يبدو
غيره أعلم منه أو أعرف منه بما يعجز ، ثم سعاية السعاة وقد كانت
ذات أثر بعيد فى القطيعة بين الرجلين ، وفقدان الثقة بينهما .

وبعد فهل من الممكن الذهاب الى القول بأن الصاحب وجد
فى أبى حيان منافسا يخشى خطره على منصبه ، بعد أن عرف

علمه وأدبه ، وأنه يستطيع أن يزاحمه فيهما ، إذا كانا عدة المنصب
ووسيلة بلوغه ؟ .

* * *

ثم هل من الممكن أن نفسر تلك الحملات الظالمة التي شنتها
أبو حيان على صاحب بأنه كان ينشد الانسانية الكاملة ، والمثالية
البشرية في صاحب فلم يجدها ، ووجد في شخص صاحب أو في
خلقه وأدبه هنوات جستمها هذا التجسيم ، وأجرى بها قلمه البارِع
في الهجاء والثلب على ذلك النحو المثير من العيب والانتقاص ؛
فسجل تلك الصور التي تنبئ عن المهارة والحدق في فن الوصف
والتشهير ؟

قد يذهب هذا المذهب من يتخذه بقول أبي حيان عندما قارب
الفراغ من كتابه في « أخلاق الوزيرين » : ولولا أن هذين
الرجلين — أعنى ابن عباد وابن العميد — كانا كبيرى زمانهما ،
واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما
ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نثرا ، والقبیح
يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ،
ولا ألحى عليهما بهذا الحد . ولكن النقص ممن يدعى التمام
أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم
منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ
منه بدعواه عجيب » ا

ثم من يقرأ قوله فيهما بعد ذلك : « لو أردت مع هذا كله

أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجيل والديلم الى وقتك هذا
المؤرخ في الكتاب لم تجد (١) ..

وكان أبا حيان يقول في هذا الكلام ان حسنات الأبرار سيئات
المقربين ، ولكن هل يسلم له هذا القول ؟ وهل يمكن أن يكون
هو العذر الذي يطمئن اليه قارئ بعدما تقدم من الكلام الذي
يكشف عن أحقاد نفسية ، ودوافع ذاتية ، بلغت مداها في عقل
أبي حيان وفي قلبه ، واستحالت سموما سال بها لعاب قلمه ،
فأحالت كل مكرمة من مكارم الصاحب وكل حسنة من حسناته
مثلية وعيباً ؟

* * *

وليت هذا الايذاء وقف على الصاحب ، بل انه ليتجاوز الى
خاصة المتصلين به فينال به من علمهم ، ولا تسلم منه أعراضهم ،
كما يقول عن الداركي (٢) : « أما الداركي فقد اتخذ الشهادة
مكسبة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللواط ، ولا يرجع
الى ثقة وأمانة ، ولقد تهتك بنيسابور قديماً ، وببغداد حديثاً .
هذا مع الفدامة والوخامة . . وهو اليوم قاضي الري ، وابن عباد
يكنفه ويقربه ، ليكون داعية له ونائباً عنه ، وليس له أصل ،

(١) معجم الأدباء ٢٣٢/٦ .

(٢) لعله يريد أبا القاسم الداركي ، نسبة الى دارك ، قرية
في أصفهان ، وهو أحد فقهاء الشافعية ، وهو بغدادى أقام بنيسابور
مدة ، وانتهى التدريس اليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها .
مات سنة ٣٧٥ هـ .

وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاحا ، ولقد رأيته ، الا أنه يأتي لابن عباد في سمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها ، الا أنه مع ذلك نغل الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين (١) .. وبعد ، فقد عرف السابقون من المحققين أخلاق أبي حيان ، وتشككوا فيما نمقه من أحاديث وما سطره من روايات لا يمت كثير منها الى الصدق بسبب من الأسباب . فقد قال السبكي في « ملبقات الشافعية » ما صورته : قال الذهبي : كان أبو حيان سييء الاعتقاد ، ثم ثقل قول ابن فارس في كتاب « الفريدة والخريدة » (٢) : كان أبو حيان كذابا قليل الدين والورع .. ولقد وقف سيدنا صاحب کافی الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله ، فهرب والتجأ الى أعدائه ، وثفق عليهم بزخرفته وافكه ، ثم عثروا منه على سوء عقيدته ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات في الاستتار .. وفي « لسان الميزان » عن بعض العلماء أنه قال : لم أزل أرى أبا حيان معدودا في زمرة أهل الفضل حتى صنع

(١) الامتاع والمؤانسة ١٤٢/١ .

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة ، ولم نجد هذا الكتاب في مؤلفات ابن فارس ، وفي ميزان الاعتدال « قال ابن رانى فى كتاب الفريدة » وفى لسان الميزان « قال ابن مالى » . هـ من تعليق السيد محسن الأمين الحسينى العاملى (اعيان الشيعة ١١ / ٣٣٨) .

رسالة منسوبة الى أبى بكر وعمر ، وقال انهما راسلا بها عليا ، وقصد بذلك الطعن على الصدر الأول . وحكى الذهبى عن أبى سعيد المالىنى أنه قال : « قرأت الرسالة ، يعنى المنسوبة الى أبى بكر وعمر مع أبى عبيدة الى علي » ، على أبى حيان فقال : هذه الرسالة عملتها ردًا على الرافضة ، وسببه أنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء — يعنى ابن العميد — فكانوا يغفلون فى حب علي ، فعملت هذه الرسالة » ا

ان رجلا يبلغ به العبث الى هذه الدرجة من الافتراء على الصدر الأول من الصحابة الراشدين فى تأليف رسائل كاذبة يؤلفها ثم ينسبها اليهم ، ليس كثيرا عليه أن يفترى على مثل صاحب بن عباد ، وأن يخترع روايات مكذوبة ينسبها الى بعض العلماء والرواة فى النيل منه ، ليرضى من الناس من يشاركه فى الحقد على صاحب ، والغيرة الحمقاء من أفضاله ومكارمه . ومن صاحب وغير صاحب بالقياس الى أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة ؟ ! ومن هذا كله ينبغى على قارىء أبى حيان أن يضع بين عينيه هذه الحقائق ، وألا يأخذ بكلامه كله قبل أن يعرضه على عقله وفكره ، ويقرنه كلامه بكلام غيره من أهل الثقة فى الأخبار والروايات .

وأخيرا فلا بأس أن ننقل فى ختام هذا الكلام احتمالات السخط على صاحب التى كتب بسببها أبو حيان ما كتب :

(١) لأنه كان يأمل منه أكبر مما وصله به

(٢) أو لأنه طبع على التأفف والسخط ..

(٣) أو لأن الصاحب طلبه ليقتله كما قيل .

ويقول صاحب « أعيان الشيعة » (١) ان أبا حيان هجا الصاحب ، وهو ذو لسان ذلق وبلاغة . وقد كان هذا دأب الشعراء يهجون من لم يرضوا عن جوائزهم بأقبح الهجو ، ويمدحون الناس بما فيهم وبما ليس فيهم طلبا لجوائزهم . وأبو حيان كان كاتباً بليغاً أكثر منه شاعراً ، فهجا الصاحب لما لم يرض عنه بنشره البليغ ، كما يهجو الشاعر شعره ، فذمه للصاحب وابن العميد لا قيمة له في عالم الحقيقة ، كما لا قيمة لهجو الشعراء في عالمها ، نعم له قيمته الأدبية التي تترك أثراً في النفوس على ممر الدهور ..

وفاء الصاحب

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٥ هـ : في هذه السنة مات الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالرى ، وكان واحد زمانه علماً وفضلاً وتديراً وجودة رأى وكرماً ، عالماً بأنواع العلوم ، عارفاً بالكتابة وموادها . ورسائله مشهورة مدونة ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره ، حتى أنه كان يحتاج في نقلها الى أربعمئة جمل ..

ولما حضره الموت قال لفخر الدولة : قد خدمتك خدمة استفرغت فيها وسعى ، وسرت سيرة جلبت لك حسن الذكر ، فان أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل اليك

(١) أعيان الشيعة ٢٤٠/١١ .

وتركت أنا ، وان عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة
الثانية إليك ، وقدح ذلك في دولتك ، فكان هذا نصحه له الى
أن مات (١) ..

وذكر الثعالبي في اليتيمة أن صاحب لما بلغت سنة الستين
اعتثرته آفة الكمال ، واثابته أمراض الكبر ، جعل ينشد قوله :
أناخ الشيب ضيفا لم أرده ولكن لا أطيق له مـردا
رداء للردى فيه دليـل تردى من به يوما تردى
ولما كنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته قال :

يا مالك الأرواح والأجسام	وخالق النجوم والأحكام
مدبر الضياء والظلام	لا المشتري أرجوه للأنعام
ولا أخاف الضر من بهرام	وانما النجوم كالأعلام
والعلم عند الملك العلام	يا رب فاحفظنى من الأسقام
ووقنى حوادث الأيام	وهجنسة الأوزار والآثام
هبنى لحب المصطفى المعتام (٢)	وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التى دلت على انقضاء عمره :
أرى سنتى قد ضمنت بعجائب

وربى يكفينى جميع النوائب
ويدفع عني ما أخاف بمنـه
ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب

(١) الكامل لابن الاثير ٣٨/٩ .

(٢) المعتم : المختار المصطفى .

اذا كان من أجرى الكواكب أمره
 معيني فما أخشى صروف الكواكب
 عليك أيا رب السماء توكلني
 فحطني من شر الخطوب الحواري
 وكم سنة حذرتها فتزحزحت
 بخير واقبال وجد مصاحب
 ومن أضمر اللهم سوءا لمهجتني
 فرد عليه الكيد أخيب خائب
 فلست أريد السوء بالناس انما
 أريد بهم خيرا مريع الجواب
 وأدفع عن أموالهم وتقوسهم
 بجندي وجهدي باذلا للمواهب
 ومن لم يسعه ذاك مني فائني
 ساكفاه ان الله أغلب غالب
 وبلغته عن بعض أصحابه شماتة ، فقال :
 وكم شامت بي بعد موتي جاهلا
 بظلمي يسل سيف بعد وفاتي
 ولو علم المسكين ماذا ينسأله
 من الظلم بعدى مات بعد مماتي
 ووجد في بعض أيام مرضته التي توفي فيها خفة ، فأذن للناس ،
 وحل وعقد ، وأمر ونهى ، وأملى كتباً تعجب الحاضرون من
 حسنها وفرط بلاغتها ، وقال :

كلامنا من غرر وعيشنا من غرر^(١)
انى وحق خالقي على جناح السفر
ثم لما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس
وثمانين وثلثمائة انتقل الى جوار ربه ، ومحل عفوه وكرامته ،
ومضى من الدنيا بمضيه روتق حسنهما ، وتاريخ فضلها^(٢) .
وكانت وفاة صاحب الرى ، ثم نقل الى أصفهان ، ودفن
فى قبة بمحلة تعرف بباب ذكرىه ، قال ابن خلكان^(٣) : وهى عامرة
الى الآن ، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبويض^(٤) ..

* * *

وكانت وفاة صاحب مظهرها فائقا رائعا لما كان له من رفيع
المنزلة فى قلوب رجال الدولة وعامة الشعب ، وما حل بهم من
الجزع لفقده ، حتى قيل انه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان فى
حياته غير صاحب بن عباد ، فانه لما توفى أغلقت له مدينة الرى ،
 واجتمع الناس على باب قصره ، ينتظرون خروج جنازته ، وحضر
مخدومه فخر الدولة وسائر القواد ، وقد غيروا لباسهم ، فلما خرج
نعشه الى الباب على أكتاف حاملية للصلاة عليه قام الناس بأجمعهم
اعظاما ، وصاحوا صيحة واحدة ، وقبلوا الأرض ، وخرقوا
ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبالقوا فى البكاء والنحيب عليه

(١) الفرر - بضم ففتح - الحسن ، وبفتحتين الخطر

(٢) يتيمة الدهر ٢٧٩/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٢٧/٢ .

(٤) توفى القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان سنة ٦٨١ هـ
أى بعد وفاة صاحب بنحو ثلثمائة عام .

جهدهم ، وابتدر الديلم الى تقبيل الأرض قدام جنازته ، ثم حملت الى موضع الصلاة ، وصلى عليه أبو العباس الضبي الذي تولى الوزارة بعده ، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياما ، وبعد أن صلوا عليه علقوا نعشه بالسلاسل في سقف بيت ، ورفعوه عن الأرض الى أن حمل الى أصبهان ، ودفن هناك (١) .

ولقد أطلقت وفاة صاحب السنة شعراء العصر ، فكثرت مرثيته ، وطالت وجادت ، ووجد الشعراء في عظمة صاحب وشخصيته ، وفي مروءته وسماحته ، وفي شعره وكتابته ، وفي تدبيره وسياسته ، وفي تقواه وعفته ، معينا لا ينضب من المعاني المتزاحمة الجياد ، جعلت مرثيهم فيه من خرائد الشعر المصونة ، ومن نماذجه العالية ، حتى لقد كان أحدهم يلقي عليه الشعر في رثاء صاحب ويلهمه في منامه ، قال أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني : رأيت في المنام قائلا يقول لي : لمَ لم تترك الشاعر الأصحاب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : أجمتني كثرة محاسنه ، فلم أدر بهمَ أبدا منها ، وقد خضت أن أقصر وقد ظن بي الاستيفاء لها !! . فقال لي : أجز ما أقوله ، فقلت : قل ، فقال :

« نوى الجود والكافي معا في حفيرة » فقلت :

« ليأنس كل منها بأخيه » فقال :

« هما اصطحبا حين ثم تعانقا » فقلت :

(١) ابن خلكان ٢٢٩/٢ وياقوت ٢٧٥/٦ وأعيان الشيعة

« ضجيعين في لحد يباب دزيه » فقال :

« اذا ارتحل الثاؤون عن مستقرهم » فقلت :

« أقاما الى يوم القيامة فيه » ..

ورثاء الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى النقيب بقصيدة
طويلة ، ذكر منها الثعالبي في يتيمة الدهر خمسة وستين بيتا ،
وأول ما ذكره منها قول الشريف :

أكذا المنون يقطر الأبطالا

أكذا الزمان يضعضع الأجبالا

أكذا تصاب الأسد وهى مدلة

تحمى الشبول وتمنع الأغبالا

أكذا تقام عن الفرائس بعدما

ملائت هماهما الورى أو جبالا

أكذا تحط الزاهرات عن العلالا

من بعد ما شاق العيون منالالا

أكذا تكب البزل وهى مصاعب (١)

تطوى البعيد وتحمل الأثقالا

أكذا تغاض الزاخرات وقد طغت

لججا وأوردت الظمساء زلالا

(١) البزل جمع بازل وهو الجمل اذا بلغ واشتد ، والمصاعب جمع مصعب وهو الجمل الفحل ويقال أصعبت الجمل فهو مصعب اذا تركته فلم تتركبه ولم يمسه حبل .

يا ملاب المعروف حلق نجمه
حط الحمول وعطل الأجمالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذى
كان الأنام على نداء عيالا
من كان يقرى الجهل علما ثاقبا
والنقص فضلا والرجاء نوالا
ويجب الشجعان دون لقائه

يوم الوغى ويشجع السؤالا

وهى من أروع المراثى فى الأدب العربى ، ومن أروع ما جادت
به شاعرية الشريف الرضى ، ولولا خوف الاطالة لأتينا على
أكثرها ، فما من بيت فيها الا وفيه القوة وأثر الفجعة على
الصاحب وتسجيل مآثره الفريدة ، فليطلبها من شاء فى « يتيمة
الدهر فى محاسن أهل العصر » للثعالبي (٢٨٣/٣ — ٢٨٥) .

ولأبى العباس الضبى ، وقد مرّ بباب الصاحب :

أيها الباب لم علاك اكتئاب

أين ذاك الحجاب والحجاب ؟

أين من كان يفزع الدهر منه

فهو اليموم فى التراب تراب ؟

ولأبى القاسم بن أبى العلاء الأصفهاني :

يا كافى الملك ما وفيت حظك من

وصف وان طال تمجيد وتأين

فت الصفات فما يرثيك من أحد
الا وتزيينه اياك تهجسين

ما مت وحدك لكن مات من ولدت
حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

هذى نواعى العلا مذمت نادبة
من بعد ما نديتكم الخرّد العين

تبكى عليك العطايا والصلات كما
تبكى عليك الرعايا والسلاطين
قام السعاة وكان الخوف أقعدهم
فاستيقظوا بعد ما متّ الملاعين

لا يعجب الناس منهم ان هم انتشروا
مضى سليمان وانحل الشياطين
ما أحسن هذا المثل ، وما أمكن موقعه ! ومن قصيدة أبى سعيد
الرستمي :

أبعد ابن عباس يهش الى السرى
أخو أمل أو يستماح جواد
أبى الله الا أن يموتاً بموته
فما لهما حتى المعاد معاد
ومن قصيدة أبى الفرّح ميسرة :

ولو قبل الفداء لكان يفدى
وان جل المصاب على التفادى

ولكن المنون لها عيون
تكد لحاظها في الانتقاد
فقل للدهر أنت أصبت فالبس
برغمك دوننا ثوبى حداد
إذا قدمت خاتمة الرزايا
فقد عرضت سوقك للكساد
ورثاه ختنه أبو الحسن على بن الحسين الحسنى بقوله من
قصيدة :

ألا هل أتى الآفاق أية غمسة
أطلت ، ونعمى أى دهر تولت
وهل تعلم الغبراء ماذا تضمنت
وأعواد ذاك النعش ماذا أقلت
فلا أبصرت عينى تهلل بارق
يحاكى ندى كفيك الا استهلّت
ولو قبلت أرواحنا عنك فدية
لجدنا بها عند الفداء وقلّت

* * *

ونجتزىء بهذا القدر مما قيل في رثاء الصاحب ، فانه من
الكثرة والجودة بدرجة لا تتسع لها هذه الصفحات ، ولكنها جميعا
تدل على مدى الحسرة وألم الفجعية بموته ، وأكثر هذا الرثاء
نقرأ فيه العاطفة الصادقة ، والاحساس العميق بهول الكارثة
وكان أصحابه كانوا يقولونه ، وقلوبهم تضطرم وأكبادهم تحترق .

والى جانب هذه الصور المشرقة للوفاء وعرفان الجميل ، رأينا بعد وفاة صاحب صوراً للجحود ونكران الجميل ، ونسيان الفضل ، وهى صورة للخساسة وما طبعت عليه بعض النفوس من اللؤم وسوء الطبع ، وكان القاضى « عبد الجبار بن أحمد » صورة من صور هذا الجحود والتكر للمعروف ، فقد قدّره صاحب واستدعاه من بغداد ، وأكرمه وقدمه ، وولاه قضاء الرى ، ولم يكتف صاحب فى اكرامه بهذا ، بل عينه قاضياً للقضاة فى جرجان وطبرستان وما يليهما من الأعمال ، ويذكر فى خطاب توليته ما يرفع عبد الجبار هذا الى الذروة من العلم والفضل والورع والنبيل ما نصه « هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين الى عبد الجبار بن أحمد حين ألفاه الكافى فيما استكفاه ، الوافى بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضائته ، بما أحمد فيه رضى مسعاته ، مؤدياً حق الله فى الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والامضاء على سنن الشرع ومفضاه ، لا يميل به هواه عند الارتياح ، ولا يختلف مغزاه فى الاعتبار والاجتهاد . الورع مركبه وسبيله ، والحق مقصده ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشددت الى اقتباس علمه الرجال . فرأى أن يضيف له الى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آتف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، الى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالهما ويعدّ من سفوحهما وجبالهما ، برّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، متمتعاً رعية هذه البلاد بكفائته ،

قاسما لهم حفظوظهم من رعيته ودرايته ، فأولى الولاية من جمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه فى العلم والتقى ، والله ولىّ الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، انه سميع بصير ، وعلى كل شىء قدير (١) .

وهذا القاضى «عبد الجبار بن أحمد» الذى أحسن اليه صاحب هذا الاحسان وولاه هذه التولية ، وقال فيه مثل ذلك الكلام لما توفى صاحب كان الناس يترحمون عليه الا هذا القاضى عبد الجبار فانه كان يقول أمام الناس « أنا لا أترحم عليه ، لأنه لم يظهر توبته » ا فطعن عليه فى ذلك ، ونسب الى قلة الرعاية والوفاء للمعروف ، فلا جرم أن فخر الدولة قبض عليه بعد موت صاحب ، وصادره فيما قيل على ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعزله عن قضاء الرى ، وولى مكانه القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى العلامة صاحب التصانيف والفضائل الجمة .. وقيل ان عبد الجبار هذا باع ألف طيلسان مصرى فى مصادرتة ، وهو شيخ يقول ان المسلم يخلد فى النار على ربع دينار ، وجميع هذا المال الذى حصله من قضاء الظلمة بل الكفرة عنده .

وذمه كذلك أحد الشعراء — كما ذكر أبو حيان ولعله هو « أحد الشعراء » — فذم سجنه وخطه وعقله :

متلقب كافى الكفاة وانما
هو فى الحقيقة أكفر الكفار

(١) رسائل صاحب بن عباد ٣٤ .

السجع سجع مهوَّس (١) والخط خ
ط منقرس (٢) والعقل عقل حمار

فيا سبحان الله ! ولكن :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولكن هنالك ما يدعو الى العجب العجيب ، وما هو أشد
من هذا ظلما وعذرا ، وذلك فيما رواه ابن الأثير في قوله :
لما توفي الصاحب بن عباد أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله
وداره ، ونقل جميع ما فيها اليه .. ثم ان فخر الدولة قبض على
أصحاب ابن عباد ، وأبطل كل مسامحة كانت منه ، وقرر هو
ووزرائه المصادرات في البلاد ، فاجتمع له منها شيء كثير ، ثم
تمزق بعد وفاته في أقرب مدة ، وحصل بالوزر وسوء الذكر ..

قال ابن الأثير متعجبا : فقبح الله خدمة الملوك ، هذا فعلهم

مع من نصح لهم ، فكيف مع غيره (٣) ؟ !

ثم انظر بعد ذلك ما فعل مالك الملك بفخر الدولة ، فقد أدركته
منيته بقلعة طبرق في شعبان سنة ٣٨٧ هـ ، ولما مات كانت مفاتيح
الخزائن بالرى عند أم ولده مجد الدولة ، فطلبوا له كفنا فلم
يجدوه ، وتعذر النزول الى البلد لشدة شغب الديلم ، فاشتروا

(١) أى مصاب بالهوس ، وهو خفة العقل ، وطرف من الجنون .

(٢) أى مصاب بالنقرس ، وهو مرض في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

(٣) الكامل لابن الأثير ٣٨/٩ .

له من قيم الجامع ثوبا كفنوه فيه ، وزاد شغب الجند ، فلم يمكنهم
دفنه ، فبقى حتى أتن ، ثم دفنوه (١) ..

وتفصيل غدر فخر الدولة بالصاحب بعد وفاته أن أبا محمد
خازن الكتب كان ملازما دار الصاحب في مرضه على سبيل
الخدمة ، وكان عينا لفخر الدولة عليه . فلما توفي الصاحب بادر
بإعلامه الخبر ، فأنفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا
على الدار والخزائن ، ووجدوا كيسا فيه رقاع أقوام بمائة وخمسين
ألف دينار مودعة له عندهم ، فاستدعاهم فخر الدولة وطالبهم
بالمال فأحضروه ، وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ، وثقل جميع
ما كان في الدار والخزائن الى دار فخر الدولة ، ثم قبض على
أصحاب ابن عباد ..

(١) المصدر السابق ١٥/٩ .

خاتمة

وبعد ، فلعل في هذا القدر من الدراسة ما يكفي لرسم صورة واضحة لمعالم شخصية أبي القاسم صاحب بن عباد ، وإذا كان لابد من كلمة تنهى بها هذه الدراسة تتصل بما فيها ، وتنبيه الى غيرها مما له وثيق الصلة بموضوعها ، فإن من أهم ما لريد أن نلفت اليه نظر القارئ هو أننا لم يكن من همنا تتبع حياة صاحب وتدرجه في سلم الحياة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة . فقد كان حسبنا من ذلك أن نذكره كاتباً ووزيراً ، وأن نشرح مقامه في الكتابة ، ومقامه في الوزارة ، ونصف ما استطاع أن يحقق في هذين المجالين من المجالات الرسمية التي اتصلت بحياته ، وقامت على أساسها صفته العامة أو حياته العامة .

ومن المعروف أن الأعمال الكبار والمهام الجسام كان يناط تديرها كما كان يناط تنفيذها اذ ذاك بأولئك الرجال من الكتاب والوزراء ولكن التاريخ لم يكن ليتتبع حياة أولئك العاملين ولا ينسب اليهم الأعمال المجيدة التي قاموا بها ، والمخاطر الشداد التي تعرضوا لها ، بقدر ما كان يستقصى حياة سادتهم من الملوك والسلطين ويعرض للخطير والتافه من شئون هذه الحياة ، وينسب اليهم الأمجاد والبطولات التي حصلت نحت بنودهم والوقائع والأحداث التي

جرت في أيامهم ، ومن ثم تضيع تلك الأمجاد أو تضيع نسبتها الى أصحابها وفاعليها الأصليين .

ولكننا على الرغم من ذلك استطعنا أن نعرف كثيرا من مظاهر العظمة والتوفيق في الحياة العامة للصاحب بن عباد ، واستطعنا أن نقرأ بين سطور ذلك التاريخ بعض مظاهر البطولة في السياسة والقيادة التي تولاها صاحب ، فقد عرفنا أعماله الكبار في تثبيت ملك آل بويه ، وما مكن به لمؤيد الدولة ، وما مهد به لفخر الدولة حتى أصبح ملكا وسلطانا بعد أن عاش بعيدا طريدا أيام أخويه ، وقد ذكر التاريخ أن صاحب فتح لمخدومه فخر الدولة خمسين قلعة لم يكن لأبيه ولا لأخيه شيء منها ، عدا ما لم يذكره التاريخ أو ما ذكره منسوبا لغيره .

ولم تكن هذه الحياة الفانية التي درسنا منها ما درسنا لتعطينا بالقدر الذي كان يعيننا من دراسة العوامل والأسباب التي هيأت له الحياة الباقية ، حياة الذكر والخلود ، وهي فضائله ومكارمه التي عرف بها ، والتي تعد بطبيعتها أهم مقومات شخصيته التي قام عليها مجده التاريخي وهي علمه المتبحر في صنوف كثيرة من المعرفة ، وفنه الأدبي الذي برز فيه كاتبا في طليعة الكتاب وشاعرا في مقدمة الشعراء ، وناقدا صاحب أداة من الثقافة والخبرة والذوق . وأعتقد أن هذا الجانب قد استوفى حقه من العناية في هذا الدرس ، كما استوفت حظها من تلك العناية الأجواء التي أحاطت به والتي كان لها بعض الآثار في منهجه وسلوكه العام ، ولم تقتصر دراستنا في هذا الجانب على الأولياء الذين فاصروه

وأخذوا بيده الى مكان الصدارة والسلطان ، بل انها فتحت قلبها للحساد والمعوقين الذين حاولوا بكل ما أوتوا من البيان أو من سلاطة اللسان أن يهدموا صاحب ويثلوا مجده الراسخ كأبى حيان التوحيدي الذى شرحت هذه الدراسة عوامل سخطه وحنقه ومظاهر تعامله على صاحب أو على علمه وفنه ؛ ومدى ما يمكن من الثقة بأقواله الحاقدة التى انبعثت من قلبه الحاسد الموتور .

وأعتقد أولا وأخيرا أن عظمة صاحب وكرامته التى أشرنا الى شئء ليس بالقليل من مظاهرها وشواهدا كانت فى حقيقتها عظمة للعلم الذى احتفل به ، والأدب الذى حصله وجاد به ، والمكارم التى بنى عليها وتشبث بها ، ثم كانت من بعد كرامة لأهل المعرفة والفن وبناءة المكارم من بنى البشر على مرّ الزمان .



ولقد عرف القارىء من ثنايا هذه الدراسة فى الفصل الذى عقدناه للحديث عن « صاحب الأديب » أنه تلقى أصول فنه الكتابى عن أبى الفضل بن العميد الذى كان يلقب بالأستاذ والشيخ والرئيس ، ولكل لقب من هذه الألقاب دلالة على الأستاذية والزعامة ، وهى زعامة اعترف بها التاريخ الأدبى عند هذه الأمة فى فن الكتابة ، حتى أصبحنا نجد الى جانب المدارس المعروفة : مدرسة عبد الحميد ، ومدرسة الجاحظ ، ومدرسة ابن المقفع ، مدرسة جديدة ذات خصائص متميزة ، وهذه الخصائص فى جملتها مستمدة من الحياة الحضارية فى المشرق التى

ظهرت آثارها في التفكير ، كما ظهرت آثارها في التعبير في قوة ووضوح وجمال يجارى الحياة المتأثرة التي عاش فيها هذا الفن وأصحابه ، وكانت هذه الطريقة المتميزة هي طريقة ابن العميد التي تلقى صاحب أصولها عن صاحبها ومبتدعها وهو ابن العميد نفسه ، والتي تجمع الى الاحتفال بالقالب والصياغة جودة المعنى والمضمون ، لوفرة المعاني وتزاحم الدواعي التي تدفع الى التعبير . ولم يكن أدبها أدب تسلية أو تزجية فراغ ، فقد كان هناك من مستلزمات الجدم لا فراغ معه للهزل — كما قال صاحب نفسه — وكما كان صاحب عميدنا في صناعته وتأثقه الحضارى كان جاحظيا في احتفاله بالمعاني وتفصيلها ؛ كما كان جاحظيا في كلامه وفي اعتزاله .

ولقد خلف صاحب هذا الأسلوب الكتابي في قوته وعنفوانه ، يحتذيه من يملكون قوة الفكرة كما يملكون أداة التعبير الفني المتأنق الجميل ، وقد ترسم خطا صاحب عدد من زعماء فن الكتابة وفي مقدمتهم ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر ؛ كما تأثر بها القاضى الفاضل زعيم الطريقة الفاضلية التي طغت تعاليمها وتلقفها كتاب بغير أداة من الفكر والثقافة فعالوا في الزخرف والطلاء ليخفوا عجزهم وكلالهم في عصور الظلام والاقفار ، حتى شوّه الفن الجميل ، وقبحت الصناعة في نظر كل مطلع على كتابات المتأخرين .

* * *

وبعد ، فإن كان قد بقى من أمجاد الصاحب شيء لم تحققه
هذه الدراسة لأنه يخرج عن نطاقها وطبيعتها ، فإن هذا الباقي
يتشمل فى آثار الصاحب ومصنفاته التى أشرنا إليها ، وعرفنا
بموضوعاتها ، والتى نحسّ بالحاجة الملحة الى موالاة الجهود
فى البحث عن مظانها وكشفها للناس حتى تضم الى تراث العروبة
الحافل ، وتعظم الفائدة والانتفاع بما حوت من آثار المعرفة
والبصيرة ، وما ذلك على أولى العزم بكثير .
والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه . له الحمد فى
الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير .

بدوى أحمد طبانة

مراجع البحث

- ١ - الآثار الباقية من القرون الخالية : أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني
- ٢ - ارشاد الأريب الى معرفة الأديب = معجم الأدباء : ياقوت الحموي
- ٣ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين العامل
- ٤ - الامتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي
- ٥ - انباء الرواة الى أبناء النحاة : علي بن يوسف القفطي
- ٦ - البداية والنهاية في التاريخ : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير
- ٧ - بغية الرعاة : جلال الدين السيوطي
- ٨ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان
- ٩ - تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي : أحمد الاسكندراني
- ١٠ - تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضري
- ١١ - تجارب الأمم : أحمد بن محمد بن مسكويه
- ١٢ - رسائل صاحب بن عباد : تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف
- ١٣ - شذرات الذهب : عبد الحى بن العماد الحنبلي
- ١٤ - صبح الأعشى في صناعة الانشا : أبو العباس أحمد القلقشندي
- ١٥ - الصناعتين : أبو هلال العسكري
- ١٦ - الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : أحمد بن فارس
- ١٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر = تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون
- ١٨ - العقائد : عمر عنایت
- ١٩ - الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهري الأندلسي
- ٢٠ - فقه اللغة وأسرار العربية : أبو منصور الثعالبي

- ٢١ - الفهرست : محمد بن اسحاق النديم
- ٢٢ - الكامل فى التاريخ : ابن الأثير
- ٢٣ - الكشف عن مساوئ المتنبى : الصاحب بن عباد
- ٢٤ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير
- ٢٥ - مختصر تاريخ البلدان : ابن الفقيه
- ٢٦ - مسالك الممالك : الاصطخرى
- ٢٧ - الملل والنحل : الشهرستانى
- ٢٨ - المنتزع من كتاب التاجى : أبو اسحاق الصابى
- ٢٩ - المنتظم : ابن الجوزى
- ٣٠ - نزهة الأنبياء فى طبقات الأدباء : الأنبارى
- ٣١ - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : التلوخى
- ٣٢ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان
- ٣٣ - يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر : أبو منصور الشعالبى

فهرس

صفحة

مقدمة ٣-١٠

الفصل الأول : بنو بويه

ظهور بنو بويه - أصلهم ونسبهم ١٢
عماد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ١٩
بنو بويه فى العراق - أدب بنو بويه ٢٥

الفصل الثانى : الصاحب بن عباد

آباء الصاحب ، بلده ، نشأته ، أساتذته ٤٠
ابن العميد وابن فارس ٤٣
الصاحب وابن العميد ، العميد وأولاد بويه ٤٩
ابن العميد (أبو الفضل) - صلته بالصاحب ٥١
الصاحب يؤدب مؤيد الدولة ٥٤
مع ابن العميد الصغير (أبى الفتح) ٥٧
ابن العميد فى بغداد - مع عضد الدولة ٦٠
ابن العميد ومؤيد الدولة ٦٤
توجس من الصاحب واقصاؤه الى أصفهان ٦٥

٧٤ نكتة أين العميد

الفصل الثالث : صاحب الوزير

٨٢	..	..	..	..	..	..	صاحب ومؤيد الدولة
٨٣	..	..	..	..	..	..	بين مؤيد الدولة وعضد الدولة
٨٥	..	..	..	..	..	..	الصاحب وفخر الدولة
٨٩	..	..	..	..	..	..	الصاحب في بغداد
٩٧	..	..	..	..	..	..	بنو بويه والصاحب
١٠٣	..	..	..	..	..	..	الصاحب وحكام الزمان
١٠٥	..	..	..	..	..	..	الصاحب والوزراء والكتاب
١١٦	..	..	..	..	..	..	عروبة الصاحب

الفصل الرابع : أخلاق الصاحب

١٢٤	..	..	..	..	..	..	الترفع والاعتداد بالنفس
١٢٦	..	..	..	..	..	..	عظمة الصاحب : مظاهرها
١٣١	..	..	..	..	..	..	تواضعه للفقراء والزهاد والعلماء والأدباء
١٤٠	..	..	..	..	..	..	وفاء الصاحب لبني بويه ولأصدقائه ولعمله
١٤٦	..	..	..	..	..	..	حقد أبي حيان على الصاحب ، تناقضه
١٤٩	..	..	..	..	..	..	تسامح الصاحب ، دماثة طبعه
١٥٤	..	..	..	..	..	..	دعابته وفكاهاته
١٥٧	..	..	..	..	..	..	سماحة الصاحب بين الحقيقة والظنون

مثل رائعة لسماحته	..
اعتداله ومظاهره	١٦٢

الفصل الخامس : صاحب الأديب

منزلته بين الأدباء - منابع أدبه	١٧٦
---	-----

(١) صاحب النثر :

لفظه ومعناه - عصر الصنعة	١٧٨
ارتجاله الكلام البديع	١٨٢
سجعه المطبوع وسجعه المتكلف	١٨٣
احتمال الافتغال من أبي حيان	١٨٧
بين الصنعة والطبع	١٨٨
نماذج من أدبه الكتابي : أدب الرسائل	١٨٩
أدب العهود ، طابعه	١٩٤
فقرات من كلامه تجرى مجرى الأمثال - توقيعاته	٢٠٨
أفادته من القرآن والحديث والشعر	٢١١

(٢) صاحب الشاعر :

قراءاته المستفيضة ومجالسه الشعرية	٢١١
طبيعة شعر صاحب	٢٢٨
أخوانياته ، مدائحه ، وصفه ، غزله	٢٣٠
فكاهته ومجونه - ارتجاله وإجادته	٢٤١
أفادته وسرقاته	٢٥٠

(٣) صاحب الناقد :

٢٥٤	..	..	..	..	ثقافته الأدبية والنقدية
٢٥٧	..	..	..	..	نقد ابن العميد وأثره فيه ، رأى صاحب فى الناقد
٢٥٨	..	..	..	..	الصاحب والمتنبى
٢٦٠	..	..	..	..	رسالة الصاحب فى الكشف عن مساوىء المتنبى
٢٦٠	..	..	..	..	مادتها ، نماذج منها
٢٧٦	..	..	..	..	خصائص نقد الصاحب
٢٨٠	..	..	..	..	روح السخرية فى نقده

الفصل السادس : الصاحب العالم

٢٨٦	..	..	..	..	ثقافته الأدبية وثقافته العلمية
٢٨٧	..	..	..	..	رأى المترجمين فى علمه
٢٨٨	..	..	..	..	الصاحب بين المتكلمين ، الصاحب والمعتزلة
٢٩٥	..	..	..	..	تسامح الصاحب مع مخالفيه فى رأى
٢٩٦	..	..	..	..	مثل من مناظراته
٣٠٥	..	..	..	..	علم الصاحب بالحديث والعلوم الشرعية
٣٠٨	..	..	..	..	علم الصاحب ومؤلفاته فى علوم اللغة والأدب
٣١٠	..	..	..	..	بينه وبين أبى سعيد السيرافى
٣١٣	..	..	..	..	عوامل تخرجه فى العلم وأصول الأدب
٣٢١	..	..	..	..	الصاحب وفن الطب
٣٢٥	..	..	..	..	آثار الصاحب

الفصل السابع : أبو حيان والصاحب

علم أبي حيان وأخلاقه	..	..	..	..	..	٣٣١
ولوعه بالثلب والانتقاص	..	..	..	..	..	٣٣٢
حقده على الصاحب - أسبابه ودوافعه	..	..	..	..	..	٣٣٣
مدى صدقه فيما أخذ على الصاحب	..	..	..	..	..	٢٥١

وفاة الصاحب

أثر الفجعة فيه	..	..	..	..	..	..	٣٥٥
مراثيه	..	..	..	..	..	..	٣٦١
بين الجحود والاعتراف	..	..	..	..	..	..	٣٦٤
خاتمة	..	..	..	..	..	..	٣٦٩
مراجع البحث	..	..	..	..	..	..	٣٧٥
فهرس الكتاب	..	..	..	..	..	..	٣٧٧

